الهمبول

عماد البليك



مجموعة قصصية





عماد البليك

الهمبول

قصص

P4bSite Forlaggare & مومنت

Al Hamboul

Short Stories by

Emad Blake

First Edition

Moment & P4bSite Forlaggare

www.p4bsite.wordpress.com

momenteast@yahoo.com

صورة الغلاف : المؤلف في دور تمثيلي للهمبول (خيال المآتة)

بعدسة: سلوم إبراهيم

"يا الهمبول يا الخوف المجهول، يا البخوفو بيك الطيور، باكر يخوفو بيك العقول".

قول مأثور عن الشيخ فرح ود تكتوك (1635 – 1732 م)

(حكيم عاصر سلطنة الفونج بوسط السودان)

الهمبول كلمة باللغة الدارجة السودانية تعني خيال المآتة أو الفزاعة، أي تلك الخرقة البالية التي تعلق على عود لإخافة الطيور ومنعها الاقتراب من الزرع، وقد تحولت الكلمة إلى مجاز يقصد به فعل التخويف بغض النظر عن طبيعة المخيف، فهو قد يكون لا يملك أي أدوات للتخويف لكنه يظل مخيفا لأن الخوف الحقيقي يسكن عقل الإنسان، أو يعشعش في الصور الذهنية التي يدمنها دون إعادة التفكير فيها أو رؤيتها بشكل أو بآخر.

***

إلى الباحثين عن معنى للعالم.. للحياة.. للضمير الإنساني الحي.. إلى الغارقين في التيه وغياب الكينونة.. أهدي هذه القصص.. علّهم يجدون فيها الحيلة المستترة لفكرة أن تكون جزءاً من وجود غامض، من معان متشابكة ..

***

هذه القصص هي كولاج كتب في أزمنة متفاوتة.. يجمعه هاجس واحد هو الانتماء للقلق المثير.. للوعي.. للحقيقة إن وجدت.. لفكرة الأنا العارفة ..

***

العالم في هذه المجموعة له فيزياؤه الخاصة، ظنونه، يمكن للأزمنة أن تتطاحن والأمكنة أن تتداخل والذات أن تنشطر كثيراً دون أي قبض على شيء محدد..

***

الـهمبول الأول

دفـاتر الـعِلل

استهلال

أنا وتشيخوف

لا أعرف أن أكتب سيرتي!

عندما طُلِب من تشيخوف أن يكتب سيرة ذاتية مقتضبة عن نفسه لنشرها في دليل الخريجين بكلية الطب في موسكو عام 1894م، ردّ على إدارة الجامعة بأنه مصاب بداء الخوف من كتابة السيرة الذاتية، وكتب: "إنه لعذاب حقيقي أن اقرأ أي تفاصيل عني، فضلا عن كتابتها بنفسي للنشر".

اليوم أنا مضطرب أمر بالموقف نفسه، لكني لست تشيخوف، أنا مجرد قاص مبتدئ لم ينشر سوى مجموعة قصص متباعدة في الصحف الورقية الصفراء الباهتة وبعض جرائد الحائط الجامعية، وقد يكون لي وجه شبه مع تشيخوف في كوني درست الطب أيضا، وعلى عكس الكاتب الروسي فإنني طلقت المهنة بعد سنين قصيرة من العمل بها، في حين ظل تشيخوف يردد:

"الطب هو زوجتي والأدب عشيقتي"

أنا للأسف لا زوجة لي ولا عشيقة.. أنا إنسان بائس ووحيد ومتوحش، مشكلتي هي الآخرين. الخوف منهم وكراهيتهم.. لا أعرف السبب بالضبط.

إذا كان لدى أي منكم الوقت الكافي ليجرب أن يفهمني، فيمكن أن يقرأ بعض من قصصي في هذه المجموعة أو كلها، فليغامر، يمكن البداية من أي قصة أو من الأول إلى الآخر، ليس مهماً.

ولي أن أكلمكم بسر أن قصصي هي صورة لحياتي أنا: "تشيخوف الآخر".

زملائي المقربين في كلية الطب، كانوا يتندرون علي بإطلاق لقب تشيخوف، رائد فن القصّ الحديث في روسيا، وأنا لم أكن مكترثاً لذلك. يمكن لي أن أفرح طبعا غير أن طموحاتي كانت بعيدة وكبيرة.

مضت الأيام وتبدد كل شيء، بفعل الظروف التي عشتها. سواء حياتي الخاصة ومخاض الألم فيها أو مآلات بلدي بشكل عام، التقلبات والحروب والأوجاع التي لا تنتهي.

"تشيخوف الآخر".. أو (أنا)، كُتِبت سيرته ليس في يوم تخرجه من كلية الطب بغردون التذكارية - وهو الاسم المفضل لي، بالنسبة للموقع الذي درست فيه، واليوم يسمونها اسم آخر، جامعة الخرطوم - إنما كتبت فعلياً منذ أن وطأت قدمي

تلك الساحة المكشوفة أمام المباني القديمة ذات الطراز الفيكتوري، التي بناها الإنجليز تخليداً لذكرى اللواء "غردون" الذي قتله رجالات جيش المهدي وهم يحررون الخرطوم من الغاضبين سنة 1885م.

أجلس لأكتب في أي مكان وفي أي شيء أمامي، على الورق، الدفاتر المخصصة للتشريح ورسومات الأعضاء الداخلية للإنسان، كتبت قصة "البنكرياس" ذات مرة في درس التشريح وتعرضت للإهانات من قبل البروفيسور، رآها قصة فوضوية تفيض بالسخرية من الطب، خاصة عندما كتبت عنوانا جانبياً أسخر فيه من "جزر لانغرهانس" التي تمثل خلايا صغيرة من البنكرياس، ربما لأنهم يطلقون عليها كلمة جزر، هذه الطابع الساخر كان سمتي دائما وربما لهذا السبب لم آخذ الحياة بمحمل الجدية.

قبل التخرج بأسبوعين. اعتذرت تماما كتشيخوف أنني لا استطيع أن أكتب أي شيء عن نفسي وقدمت لإدارة الكلية سيرة بديلة ساخرة، كانت عبارة عن قصة قصيرة باسم "الأبله" وهو الاسم نفسه للرواية المشهورة التي كتبها ديستوفيسكي، لكن الأبله ذلك كان أنا.

يا سادتي أنا أبله حقيقي فأعذروني عن حماقاتي.

***

كل ما كتب على مسؤوليتي.. أنا القاص والراوي والفاعل والمفعول.. كل سطر هنا هو ضميري المنهوب..

أوراق من دفتر منسي في بيت قديم من مدينة مهجورة في شمال بلد اسمه السودان

***

الأبله

طارده الصبيان الأكبر سنا في الحي، الفتوات بلغة جيراننا المصريين. طالما كنت مغرماً بمشاهدة المسلسلات المصرية والأفلام التي أذهب لمشاهدتها في السينما وأنا أنتهز الفرصة لأسرق نفسي خلسة، لأن قانون البيت عندنا، ممنوع.. ثم ممنوع يا ولد أن تذهب هناك. فأمي وجدتي وبقية نساء الحي يرون أن هذه الشاشة من صنع الشيطان وتفسد أخلاق الأولاد والبنات، طبعا هن مسكينات لا حظ لهن البتة.

ما دام قد جئنا على ذكر البنات، فالحقيقة أنني أخافهن كما أخاف الصبية الذين يطاردونني، لكنه خوف من نوع آخر. رهبة مرتبطة بفكرة أن تقف أمام أنثى باهرة الجمال لتقول لها كما يفعل بعضهم: "أحبك". وقد دربت نفسي كثيراً في الحمام وأنا أمارس العادة السرية، ولم يحدث تطور، يتدفق الماء الأبيض، يزخ مع الصابون رديء الصنع، وفي النهاية، أجد نفسي قد ضيعت صورة البنت التي تتمشى يومياً إلى المدرسة قريبا منا، وهي ترمقني بنظرات حلوة، كأنها هي من يريد أن يقول لي: "أحبك يا ولد".

الحب عندنا محرم. أما حب الأولاد فحلال جدا وطبعا في السر، لهذا طاردوني وأنا أقفز من سور السينما هربا. كنت

قد دخلت الحمام لأتبول، فجرّ أحدهم بنطالي من الخلف، ثم أراد أن يقبضني إليه ليفعل فعلته. فصرخت ولم يسمعني أحد، قالوا لي مرات إن صوتي كالنساء، فشعرت بالرعب من ذلك، أنني لست رجلاً كما تريدني أمي.

أمي مرة علمت بأمر الأولاد الذي فضوا بكارتي الخلفية، فولولت في البيت، وغطت رأسها بالتراب، وهي تبكي عويلاً مسموعاً للجيران، وعرف الجميع أنني أصبحت "خائساً".. لوطي، بالمعنى الأوضح.

دخلت عمتي وزادت الطين بلة، ولم ينقذني سوى أستاذ الفنون من المدرسة الذي جاء ليخبرهم:

"إن المبدعين الكبار في تاريخ الإنسانية كانوا على هذه الشاكلة، هذه ليست مشكلة أبدا"..

لم يهتموا به، لأنه رجل سكير وعربيد، وليس له من هم سوى رسم النساء العاريات، فقد قبضوا عليه كثيرا وتعرض للضرب أربعين جلدة أمام القاضي بتهمة الشراب، بالإضافة إلى رسم بائعة الخمور البلدية عارية.

كانت "شرطة الآداب" قد داهمت بيت البائعة ليلا، ووجدوا شلة من الرجال يعزفون مزامير الشيطان، ويغنون، وآخر كان يعانق رجلا بلا شوارب، وسيدة نائمة عارية على

السرير ورجل يمسد لها ظهرها، ورسام يرسم الشابة ذات الثلاثين ربيعا وهي تصب العرق في الكؤوس.

قال لي أبي:

"أهذا الذي جئت به لينقذك يا خائس؟"

كرر الكلمة مرة أخرى، شعرت بالضيق وفكرت في أمور كثيرة من ضمنها الانتحار. لكن المعلم الذي كان يقابلني سرا، نصحني.. قائلا:

"الخائس هو أبوك لا تضيع حياتك مع هؤلاء الملاعين.. أنت لك مستقبل، ذات يوم سوف تصبح شيئا له قيمة وسوف ينسون كل شيء"

شعرت بالطرب يملأني وأنا أخرج منه، كان يرتشف العرق بمتعة وقال لي وهو يمد لي كأس معبأة:

"جرّب هذه"

فرفضت حتى لا يَشتمَّني أبي فيشتُمني، فتزداد الوقاحات وأكون قد أصبحت في مزبلة العائلة كواحد من أقارِبي الذي قدروا منذ سنوات أنه طريد عن الرحمة، ولم يعد أحد يهتم به، وقد ساعدهم بأنه فشل في أن يصنع شيئا مفيدا في حياة.. صاروا يلقبونه بالأبله.

كنت خائفا أن أصبح أبلهاً جديد.. صورة لذلك الرجل.. كنت أرغب في الشفاء سريعاً من ألمي وأوجاعي النفسية.. من مطاردات الصبية.. وجلست في الليل اقرأ وحدي.. القراءة هي ملاذي.. مهربي من هؤلاء الأقحاح..

قرأت فيما قرأت..

"طهّر نفسك يا سيدي بالمزيد من الألم.. هكذا يكون البلهاء الحقيقيين الذين هم أحباب الطبيعة، هم الذين يحبهم المطلق والمجهول.. هم الذين سوف يرتادون آفاق العليا بإصرارهم.. يغيرون النواميس والقوانين ويحرمون أنفسهم من متع التقاليد وجبروتها".

رغم كل شيء.. لم أكره أحد.. ظللت أحب أبي وأمي وأقاربي.

إلى أن كرهتم لاحقا وأنا كبير السن ولذلك أسباب أخرى.

البلوّر

أعشق السيقان البيضاء الناعمة.. كتلك التي رأيتها في المجلة التي جاء بها زميلنا إلى المدرسة، كان قد خبأها خلف سرواله. أخرجها وراء الحمامات المدرسية، عندما ذهبنا بحجة التبول.

في ذلك النهار.. كنا قد تحولنا إلى كائنات أخرى، اكتشفنا أننا لا نفهم أي شيء في الجسد الأنثوي.. فمعرفتنا كلها في خصائص الذكور.. المؤخرات الملساء الناعمة، حتى لو بها بعض البثور بسبب الطفح الجلدي المنتشر بين الأولاد.. والآلات الصغيرة التي لم تنضج بعد، لكنها قادرة على القيام بواجبها.

أخبرنا صديقنا:

"سرقتها من خالتي جاءت بها في حقيبتها أمس من المكتب"

وتكلمنا كثيرا:

"يعني هذا أن رفيقاتها كنّ قد عشن الجو"

"ولكن من أين جئن بها؟"

كان بدر الدين يعرف الإجابة، أخبرنا:

"سمعت خالتي تكلم جارتنا صباح وهي تناديها وراء الحائط.. ان ذلك الرجل دون ان تسميه يأخذ مبلغاً معيناً ويحضر نسخة لمن أرادت من النساء في المكتب"

عرفنا جميعا من هو المقصود.. ونسينا أمر الرجل.. صاحب الشارب المفتول الذي اشتهر بأشياء كثيرة غير محبذة أولها مطاردة باعة الكتب والمجلات المفروشة في شوارع المدينة.

تلك السيقان البلورية، وما فوقها ظل يختمر بدماغي. إلى ذلك اليوم الذي أخذني فيه ولد مثلي في العمر إلى مبنى فخم وأنيق، لم أر مثله من قبل، ووقفنا تحت النافذة، كانت أعلى منا.

كنت قد ذهبت مع أمي إلى مدينة مجاورة لشراء بعض أغراض العيد المقبل على الأبواب.. وفي الطريق لابد أن نمرُّ على عدد من الأهل ونسلم عليهم وإلا غضبوا منا، تحديدا من أمي وأقلقوا حالهم وهي امرأة حساسة في غنى عن ذلك.

ذلك الولد كان من أقاربنا ولا أعلم بالضبط ما هو شكل هذه القرابة، ولم أهتم كما أنه غير مهتم.. فقط كنا نجد المتعة في البقاء مع بعضنا ونحن نطارد الأزقة والشوارع المحيطة ببيتهم، في مدينة بدت لي أجمل من مدينتنا الأصغر والأقل تطورا.

أخبرني أن أصعد على الحجر تحت النافذة لأرى بشكل جيد، وشاهدت نساء يقفن في صف مستقيم وموسيقى تعزف وتراتيل مسموعة.. قلت له:

"إنهم يغنون"

ابتسم وقال لي، وهو قد حقق انتصارا كعادته علي:

"هذه صلاة يا عبيط"

"صلاة!!"

"نعم هذه صلاتهم.."

لم أرى صلاة بالموسيقى والإيقاعات.. وقد شدني الأمر، رغم خوفي مما أرى.. أن ثمة خطأ ما.. وعندما كلمت أمي لاحقا ونحن عائدان إلى البيت بعد ان انتهت الرحلة، قالت لي بحزم:

"هؤلاء كفار.. لا تذهب مرة أخرى معه"

وأكملت بغضب:

"بل لن تذهب معي مرة أخرى"

كانت تلك عقوبة لي أن أمي لن تأخذني ثانية إلى المدينة التي أحببتها.. وأحببت فيها السيقان البلورية في الكنيسة.. النساء البيض المصنوعات من لدائن غالية وهن يقفن أمام

الصليب الضخم.. إنهن يشبهن أولئك الشقراوات في المجلة الممنوعة. بنفسي لو أرى ما وراء تنوراتهن الملونة الرائعة.. بودي أن أحضن إحداهن وأنام معها.. لكني جبان.

البلياردو

في مشية المتبختر، وقف العسكري الشاب ابن العشرين، أمام صالون الحلاقة المشهور في المدينة يجرب بندقيته ماركة كلاشينكوف، صرخ، واحد، اثنان، ثلاثة، ثم أطلق رصاصة طائشة في الهواء. على إثرها هرول السابلة من الرجال والأطفال الذين اجتمعوا لمشاهدة هذا الحدث الذي يجري كل يوم.

لكن لماذا هربوا، وما حدث يتكرر يوميا؟

ببساطة لأن الذي يقوم بهذا الفعل كان رجلا آخر، غير ذلك المتمرن على استخدام البندقية، الذي يسمونه صائد الكلاب، وهوايته قتل الكلاب المسعورة التي يشتكي منها السكان مع موسم انتشار مرض السعر.

اليوم بالنسبة للشاب الجديد، فالناس لا تعرف النتيجة، لا أحد سيقف ليضحي بحياته أمام رصاصة غير مضمونه، ربما ظنته كلبا فصادته في قلبه أو ظنه الشاب في طربه الغامر كلبا فصوّب البندقية اتجاهه.

انتهى التجريب بعد خمس دقائق تقريبا من خروج العسكري من صالون الحلاقة البلدي والرخيص، هو

الأرخص في السوق، ورخيص تعني هنا أنه حرفته رديئة وزبائنه من السفلة والفقراء. فقط ما يشفع له السمعة التي يتمتع بها منذ أن أصبح مهما قبل سنة تقريبا بعد أن حلق فيه حاكم الولاية رأسه وخرجا أصلعا أثناء زيارة للمدينة، ولا أحد يعرف سبب اختياره للصالون. ثمة أقاويل كثيرة.

انتهى العسكري من استعراضه بنجاح ليكسب ثقة الجمهور المترقب، وسار بمشية متعجرفة، بعد أن أصبح مثار الاهتمام، وقبل يومين لم يكن له أية قيمة كانوا ينظرون إليه على أنه ولد صعلوك وبائس ونشال كبير للمحافظ من الرجال والنساء معا بلا استثناء، يقوم بجرمه هذا في المواصلات العامة بمحطة وسط المدينة. وليس ثمة جديد "فأغلب تعيينات الشرطيين كانت تستند على أناس لهم خبرات سابقة في الجرائم، لكي يتثنى لهم اصطياد المجرمين" كما صرّح وزيرهم مرة ردا على صحفي، انتقد ذلك، مؤكدا "الخبرة ضرورية".

عينوه، إذاً (الباقر) وسلموه البندقية بعد أن ألبسوه الزي الأخضر المعشب، وكان قد استحم وتعطر وطبعا خرج من الحلاق. والآن في طريقه لقتل الكلب الأول. كان فوج الأطفال بالذات قد ساروا وراءه وهم يتصايحون ويبدون تشجيعا للمهمة الوطنية.. لقد تربوا في أجواء احتفالية كهذه منذ سنوات.. فموسم قتل الكلاب ليس حدثا عابرا. يبلغ ذروته مع جمعها في الشاحنة المتهالكة لقسم الشرطة، وهي جثث هامدة

بألسنة هاربة من الوجوه. ومن ثم حرقها في خلاء المدينة بإشراف الطبيب البيطري المتخصص، لقتل فيروسات السعر إلى الأبد والجالس في مقدمة الشاحنة بجوار السائق.

تقدم الباقر، إلى الكلب الأول، قتله برصاصة واحدة لم تعطه أي فرصة، كان صاحب الكلب سيدة متقدمة السن تقيم وحدها بعد أن سافر أولادها إلى بلاد الله الواسعة ولا رفيق لها سوى هذا الكلب، الذي طالما حذرها منه إمام مسجد الحي بأنه:

"رجس ونحس وشيطان ويمنع دخول الملائكة إلى البيت"

لكن العجوز رأسها عنيدة، ردت عليه:

"الشيطان أنت.. هل تظن أنني أجهل أفعالك؟"

ولأن السيدة مثقفة.. تقرأ القصص.. فقد قرأت مرة قصة ليوسف إدريس عن إمام مسجد ينظر من النافذة وهو على المنبر إلى جارة المسجد الجميلة وهي تتعرى له في انتظاره فراغه من الصلاة ليضاجعها في غياب زوجها. والقصة نفسها كانت تحدث مع الرجل، لهذا فالإمام لم يستطع أن يقاوم كلام العجوز. سار بعيدا وهو يحوقل:

"لا حول ولا قوة إلا بالله من شر ما خلق"

كان يعني السيدة طبعا. والآن هي بلا كلب. طبعا.

تشبثت بالعسكري الباقر، وهي تشتمه كيف قتل كلبها وهي تؤكد أنه ليس مصابا بالسعر، قالت:

"يجب فحص الكلاب أولا قبل قتلها.. ماذا يفعل هذا المعتوه في الشاحنة؟"

كان تشير إلى الطبيب صاحب النظارات السوداء الكبيرة.

صعد الجميع في الشاحنة انطلقوا بحثا عن كلاب أخرى، تتبعهم زفة الأطفال بعد أن فقد الفوج الكبار، لانشغالهم في أمور الدنيا، إلى أن توقفوا أمام أحد الأزقة، كان هناك كلبان يمارسان الفاحشة، عند مجمع الأوساخ وراء المدرسة الأولية.

ضحك الأطفال كثيرا، وضحك سائق الشاحنة والباقر كان يحرك البندقية بلا حسبان وقد استأثره المشهد المميز في أول يوم عمل حقق فيه الانتصار الأول، حرك بأصبعه السبابة دواسة البندقية، ونظر من خلال العين بدقة، صوب الرصاصة داس بقوة.. بشدة جدا.. الكلب والكلبة شعرا بالحرج كما يبدو أو أنهما خائفان من الموت.

"كيف عرفا أن الموت قادم، لا أحد فكر في كيف تُنسج هذه الخبرات التي يزرعها الله في الكلاب؟!"

علق البيطري.

كان مدير المدرسة كبير السن قد سمع بالجلبة، ويبدو أن لديه خبر عن حملة قتل الكلاب المسعورة، وأنهم قادمون عما قليل للقيام بالمهمة في حي المدرسة، رغم إدراكه أن كلاب المنطقة مسالمة وهو يشك أنها مسعورة، فهي لم تتعرض إلى الآن لأي أحد بالأذى.

المدير بجلبابه الطويل وعمامته المتوسطة ورقبته الممتدة كزرافة، فتح الباب لم ير سوى صورة مهتزة، وجسم قوي هائل السرعة يطيح به إلى الوراء، كانت الرصاصة المستهدفة للكلبين قد استقرت في عينه اليمني، تدفق منها الدم منهمرا، وهو صامد لم يبك لأن ذلك عيب. في حين بقي العسكري الشاب مذهولا لا يعرف ما الذي يحدث معه، غير قادر على السيطرة بسهولة على نفسه، وعلى الرصاص المنهمر كالسيل من البندقية، فقد ترك الدواسة على السريع ما يعني انطلاق الرصاص تلقائيا وبسرعة فائقة.. كان الأطفال وهم يهرولون يتساقطون مثل كرات البلياردو.. في يوم عاصف بالدم والدموع.

الملعون

لم يتمالك نفسه، هوى بالسكينة الطويلة على ظهر الرجل وهو ساجد على السجادة المصنوعة من سعف النخيل، دون أن يترك له أي فرصة لكي يقول الله أكبر للمرة الأخيرة. تدفق الدم قويا، ملأ المكان، ومعه تراجع الوجع في قلب القاتل، دون أن يبدي أي مشاعر معينة أو يهرب.

جلس بجوار القتيل، ينظر إليه وهو يلفظ روحه ويخال له أنه شاهد هلامات تنبعث من الأرض إلى السماء منطلقة من جسد الرجل المسجى على الأرض. جسد أعز الناس إليه ذات يوم مضى. قبل أسبوع أو أقل. جاره الغالي (بركات).

أمام ناظريه يبدو ما حدث في الأيام الماضية كفيلم سريع الاسترجاع، كشريط يجر بسرعة دون تمييز بيّن، وبتشوش عالٍ يصعب معه تحديد الفكرة أو الهدف من أي شيء.

رأى نفسه يقف أمام الصيدلية، يكلمه:

"ماذا قررت بشأن الموضوع الذي كلمتك فيه؟"

يصمت بركات لا يجيب رجلاً بائساً، فقيراً..

"الناس لا تبدي احتراما لأمثالك يا مجذوب"

يكلم نفسه بغضب..

ويثور مثل بركان خامد، ثم يأخذ طريقه إلى المستشفى ليمارس عمله في حقن المرضى، يفرغ في تلك الظهيرة كل غيظه بغضب مكتوم في النساء والرجال والأطفال.. بلا هوادة.. وبلا تفريق بين أحد وأحد..

تصيح امرأة تعودت على اختياره دون غيره من التمرجية من مساعدي الأطباء:

"اليوم حقنتك فيها شيء غير طبيعي يا مجذوب!"

لا يجيبها، يضغط بقوة على مكان الحقن فوق ردفها الكبير، لا يبدي اهتماما بالحجم كسابق المرات ولا يرى أمامه من ردف مهم في هذا العالم سوى ردفيها هي لا غير.. ميمونة ابنة بركات الطبيبة الشابة الناضجة، المميزة، حديثة التخرج، ذات المشية التي لا تكرر والنظرات الوقادة حتى لو فيها بعض من الغموض. الملائكي، السماوي.

يسمع المرأة تكرر:

"لا تضغط شديد يا مجذوب.. أنت اليوم لست أنت"

يلصق لها اللصقة الطبية لمنع تدفق الدم من مكان الحقن، يتركها تمضي دون أن يهاظرها كالعادة، يشير بأصبعه

أنه لن يستقبل مريضاً بعد الآن، رغم أن وقت نهاية الدوام لم يأت بعد.

لا يدخل على الطبيب (عمر)، مديره، ليستأذن بأدب، كما هي العادة.

يغادر من الباب الخلفي للغرفة الطبية، ومن ثم الباب الخلفي للمستشفى وفي رأسه شيء مشوش غير واضح.. إرادة قوية للانتقام.. يكلم نفسه:

"أيظنني سوف أسكت لا وألف لا.."

مرّ على السوق، جلس عند المقهى كالعادة في هذا الوقت، أو أقل بساعة.. من الزمن المعتاد.. لم يكلم أحداً، شرب كوباً من الشاي الساخن شطفه سريعاً يشوي به لسانه دون وعي، ثم خرج وقد تذكر في منتصف الطريق أنه لم يصطحب دراجته الهوائية التي يتجول بها في المدينة معزياً ومهنئاً في المناسبات الاجتماعية، وتأخذه يومياً إلى العمل وتعود به.

حاول أن يتذكر أين نساها بالضبط؟!

هل تركها في البيت صباحا ولم يذهب بها إلى المستشفى أم أنه نساها وراء غرفة عمليات النساء والولادة حيث يضعها دائما، ولأنه خرج من الباب الخلفي فقد أغفل أمرها.

أو أن ذلك جرى، لأنه مشغول بما قرر في ذهنه، ذلك الأمر الغامض؟!

في مشيته إلى البيت الذي وصله وابتعد عنه أكثر من مرة ثم عاد دون انتباهة أو تركيز، كان قد استعاد صورة ميمونة كثيرا، رآها وهي تسير بجواره في زفة العرس، وهي تمشط شعرها في البيت نهارا ونساء الحي يشربن القهوة الحبشية وهو يمازحهن بنكاته التي يخترعها يوميا، فقد كان بارعا في ابتكار الطرائف.

ومرة ثالثة يرى علوية والدة عروسته، أي نسيبته وجدة طفله القادم في الطريق وهي تخيط مجموعة من الملابس استعدادا لاستقبال المولود القادم، هي لا تعرف إن كان بنتا أو ولدا، وتكتفي بالقول:

"في الشهور الأولى لن يفرق الأمر"

يصطدم بحجر، يكاد يقع على الأرض، ينتبه أنه قد استطال في أحلام اليقظة، وبدا يفكر أين المشكلة بالضبط؟

هل كل ذنبه أنه فقير براتب مقطوع يستلمه أول الشهر؟!

يوم كلّم زميله في العمل مجدي، أحب الناس إليه، سمعه ينصحه:

"لا تفكر في الأمر.. أقل لك بوضوح أنسى"

أصر عليه، وهو يعلم العلة تماما أن يوضح له أكثر، أضاف مجدي:

"يا مجذوب البنت طبيبة وأنت مجرد تمرجي.. لا تكون خيالياً.. هناك شيء اسمه واقعية التفكير.. أنت لا تملك ولو شبر أرض"

لا يرد عليه، يشعر بالحقد نحوه، غير أنه ليس كذلك الغبن الذي يسكنه الآن قصاد بركات بالتحديد.. فقد تبددت المحبة بينهما.

بدأ يستعيد صورا متفرقة منذ سنوات، كيف أنه كان يُعِين جاره في عمله بالصيدلية بل يتجاوز القانون لأجله. كانت صيدلية بركات الوحيدة التي تُباع بها الأدوية النادرة التي لا تصرف إلا بمشقة عالية، يقوم مجذوب بعلاقاته في المستشفى وأحيانا بالسرقة في تدبير الأمر، وأمامه هدف واحد لا غير. الآن تبخرت كل هذا الأعمال التي قام بها، لم يجن سوى السراب.

يسمع بركات يكلمه من وراء البترينة الزجاجية في الصيدلية، وهو مشغول بزبائنه، لم يعد يحفل به كسابق الأيام.. ربما هو الإلحاح المتكرر.

هو يعرف أن بركات يمكن أن يكون طيبا وإنسانا ورجلا. لكن قصة ميمونة هذه خربت كل شيء.. لم يعد من سبيل تستمر به العلاقة كسابق عهدها:

"أسمع يا مجذوب.. ربنا عرفوه بالعقل"

"أعرف قصدك.. أن أغلق هذا الموضوع؟"

"والبنت رأيها؟"

يشعر مجذوب بالخزي الصريح لأول مرة، فثمة صرخة مكتومة تخرج من فم جاره ممتزجة بضحكة غير مرغوبة وبصاق يتطاير في الهواء.

يضيف الجار:

"خَلْصَّنا.. وخِلِصّنا"

كانت إشارة تعني الانصراف ونسيان الموضوع برمته..

ولكن هل سيكون قادرا على النسيان؟

هل سيتغافل بسهولة ميمونة وهي تقيس معايير الدواء في غرفة الاستشفاء وهي تلبس كمامة التنفس النقي قبل دخول العملية وهو يقف بجوارها يجيب أوامرها.. هات المقص.. المشرط.. اللاصق.. هي السيدة وهو العبد المطيع؟.. ثم يغفل عن المكان يكاد يشتمها أو يعانقها أمام بطن المريض المفتوحة

في الغرفة تحت الضوء المركز على الزائدة الدودية التي تقطعها بحرفية وترمي بها في صندوق الزبالة البلاستيكي يمده مجذوب بكل محبة، يتخيله علبة خاتم الخطوبة.

يغلق صندوق الأسى والذكريات.. يتقدم من الباب المفتوح لبيت الجار، يسمعه مكبرا في صلاة العصر.. الله أكبر.. يخفي السكين وراء ظهره، وراء البنطال الأبيض، يكون قد نسي الله وأحب الشيطان.. أفكار مشتتة تتداخل في دماغه غير القادر على الهدوء..

"أين الله؟ وأين العدالة؟ وأين الشيطان؟"

يكاد يصرخ ثم يكتم صرخته حتى لا يخرب هدفه.. يقترب من الرجل.. في لحظة سجوده، ليس مهما أن هذه الصلاة مقبولة أم لا.

ولماذا يفكر في ذلك الآن؟

ليس مهما أيضا!!

ثم يهوي بها من علٍ.. السكين التي استلها من مطبخ أمه.. الحاجة نفيسة التي كانت تنتظر يوم سعده وهي الآن تبكي صريعة تنظر إليه وهم يقودونه بثياب بيضاء أخرى غير تلك التي كان يذهب بها إلى المستشفى. ثياب السجن ومن ثم إلى الإصلاحية والمستشفى النفسي.

تقرير طبي أمام القاضي، يفيد كالعادة..

"يعاني مجذوب حسين بلال من حالة عصابية.. أدت به إلى ارتكاب هذا الجرم.."

تنهار نفيسة في المحكمة وهي تسمع القاضي يتلو التقرير بصوت جهور، الجميع يسمعها تصرخ بآخر عباراتها الهادرة وسط هدوء القاعة المكتظة بالأهل والأصدقاء والمتطفلين..

"لا ابني ليس مجنونا يا حضرة القاضي"

الحثالة

يقف الصبي كالعادة في منتصف الطريق تماما، وفي رأسه نية واحدة لا غير، إعاقة حركة السيارات.. وهو يدرك أنه لا يقوم بفكرة أصيلة ناتجة عن ذهنه الذي تعود أن لا يستخدمه، إلا في تنفيذ أفكار الآخرين. إنما هي فكرة ذلك الرجل البدين الجالس هناك عند النهر مع سيجارته العجيبة، يدخنها أول الفجر الباكر وفي نهاية اليوم قبل حلول الشفق الأحمر.

"لكن هذه المرة قد يكون ثمة نوايا أخرى"

كلم الصبي نفسه بهمس مسموع للصبية الذين يقفون على مقربة منه.

الجميع هناك متواطئون.. يعرفون أن هناك رجل أقلق الجميع، يقطع حركة السير في الطريق البري ليأخذ أموال الناس ومن ثم يطلق سراح المركبة بمن فيها، وقد درّب صبيته على هذا العمل شبه اليومي.

قبل يوم كانت حافلة قد تعرضت للنهب، وانتهت مناوشات بين اثنين من الركاب الشجعان وصبية الشيخ المسطول، أو الزعيم كما يلقبونه، بعدد من الجرحى الذين تم أخذهم

للمستشفى وعولجوا على عجل دون أي تقرير من الشرطة يفيد أن هناك عراك. وكان الطبيب المناوب مضطرا للاستجابة تحت تهديد مطاوي وسكاكين الصبية.

قال الزعيم لأكثر صبيته طاعة:

"سوف نهاجم اليوم الطريق الثاني"

أراد أن يسأله عن السبب، فهو يعرف أن سيده لا يخاف، ولا يمكن أن يهدد وجوده أحد. فالسلسلة التي تبدأ بالزعيم وآخرين، كل يأخذ نصيبه فما المشكلة إذن؟.. وصمت. في حين قرأ الزعيم ما بعقله فأوضح له:

"هناك أخبار غير جيدة عن مدير جديد لمركز البوليس"

تمتم الصبي.. وهو في الأصل يتمتم في كل الأحيان والظروف. ابتسم ببلاهة قبل أن ينصرف لتنفيذ المهمة الموكلة له.

في الطريق وإلى أن وصل الموقع المحدد لم يشغل باله أي شيء. أي شيء مطلقا. حتى لو شذرات من طفولته البائسة، وكيف أنه ترك المدرسة رغم تفوقه لكي يكسب المال ولكن بأوقح الطرق كما يسمع من جيرانهم. وهذا الأمور قد تؤلمه، وليس من فرار.

"المرء لا يهرب من قدره"

أعجبته هذه العبارة التي كان أبوه يرددها دائما، فكان هو الآخر قد أدمنها في الرد على القوّالين. وقد مات أبوه منذ ثلاث سنوات ليترك الأمور سيئة جدا، وإلا لماذا يحدث ما يحدث. أحيانا يقول لو أنه كان حياً لما تغير أي شيء. فهو كان سببا مباشرا بخنوعه، في هذا العذاب، بإصراره على أننا عبيد ولسنا سادة.

دائما يتفتق الذهن عن أفكار مشوشة وذكريات غامضة عن عذابات أبيه، وعائلتهم. يسمع قصصا كثيرة عن كيف أن جده جيء به من مكان بعيد ليعمل في خدمة أحد الشيوخ هنا، من علية القوم. كان قد بيع له ضمن صفقة شملت أغراض أخرى منها النساء المسترقات وريش النعام وبقايا من سن الفيل (العاج) وخشب الأبنوس القوي الذي يستخدمه الشيخ في صناعة أثاث بيته.

في المدرسة التي أنفك من عقدتها بسبب زملائه وهم يطاردونه ويزفونه نهاية اليوم كيداً في تفوقه عليهم وحصوله على المركز الأول كل فصل دراسي.. في ذلك الجحيم، كانت اللعنات تدق رأسه العنيدة وهو يسمع الجوقة، هؤلاء الحثالة يصرخون:

"العبد الشين ماشي وين؟" (يعنون القبيح... في حين كان الصبي بهي الطلة)..

يسرع للاحتماء بحضن أمه، يراها وهي تحدّر الدموع من مقلتيها وتمسح بثوبها المزركش على العرق في جو حار، في بيت ليس فيه من مقومات الحياة سوى غرفة بلا أبواب ولا نوافذ يسكنها الذباب كما البعوض، لأن الحي لا تنقصه القذارة. ولأن أباه يأتي بسيارة نقل المجاري التي يعمل سائقها، ويوقفها في آخر الليل أمام المنزل فتكون قد أتت بكل حشرات وهوام المدينة ليسكنوا هنا في هذه البقعة من الحي التافه كما يسميه أبوه دون أن يكون قادرا على التلفظ بذلك أمام أحد. دائما ظل صامتا يتحاشى الوضوح والصراحة، يصلي في المسجد ويسبح الله ويشكره على نعمة العافية وينام مبكرا ويستيقظ مبكرا، وفي بعض لحظات طربه الداخلي النادرة يغني وحيدا في المرحاض وهو يتغوط على عجل كأن ثمة من يطارده، دائما كان عجولا بلا تحقيق مكاسب.

يصل الصبي (دابي) كما يلقبه الشيخ المسطول، إلى الموقع المحدد يكون قد أفرغ الماضي وركز في اللحظة، يلعن أباه وأمه وجده وتاريخ العائلة، يقرر في تلك اللحظة أنه سوف يصطاد المركبة القادمة بكل ما أوتي من خبرة في هذا العمل الخطير. وقد كان الهدف محددا من ليلة الأمس:

"غدا سوف تمر سيارة البنك إلى المدينة يحملون مرتبات أربعة شهور كاملة"

كان الزعيم يشرح ذلك، ويستطرد بغضب:

"أربعة شهور والناس لا تأخذ مرتباتها.. هل هذه حكومة؟"

يكاد دابي يضحك، ويعرف أن الزعيم جاد فعندما يكون مع سيجارته يتخذ العالم شكلا مختلفا عن الوقائع الخارجية والمدركة.

يكمل الزعيم:

"المهم.. هذه المرة لك مكافأة كبيرة.. نريد أن نعطي درسا لهذا المدير الجديد، يقول إنه جاء ليعيد النظام"

وترتفع قهقهات الشيخ في الظلام، رائحة الدخان تعانق موج النهر الهادر في موسم ما قبل الخريف. ثمة قرى بعيدة منيرة بضياء نجوم باهتة. ينام الصبي قليلا، وينهض للمهمة، يكون قد جهز نفسه وأعوانه من الصبية الأقل سنا الذين ينطلقون قبله إلى الموقع.

كانت الخطة قد اختمرت في رأسه:

"هذه هي بدايتك وفرصتك يا دابي، فلا تضيعها.. بإمكان أي إنسان أن يكون زعيما.."

ويكمل بما سبق أن سمعه كثيرا.. الزعيم نفسه ألم ينحدر من سلالة العبيد؟.. غير أنه بات اليوم رجلا مهابا، الكل يعرفون ذلك.

عندما تصل إلى القمة، لا أحد يستطيع أن يواجهك..

قرر دابي الآن بإصرار.. المواجهة هي الحل. في كل الأحوال لن يخسر سوى أن يكسب معركة جديدة.. فالحياة ليست إلا سلسلة معارك مستمرة كما كان يقرأ في كتب التاريخ المدرسية.. لكن ثمة أمر ما يقلقه، يتحرك في باطنه، نظرات الزعيم الأخيرة تبدو غامضة ليست كعهدها، هل هذا متعلق بتغيير خارطة الطريق وتعيين المدير الجديد الذي يبدو أنه عنيد، أم أن هناك حكاية أخرى، مثلا قد يكون شكّ في نواياه. نوايا دابي.. لأن الزعيم لا يرمي بكل أسراره.. يظل ملتبساً حتى في أكثر لحظات صفائه مع حشيش البنقو.

أراد أن يتجاسر ويسأله، لكن الخير له أن يصمت.. لقد فعلها مرة ذات يوم وكانت ردة الفعل شريرة. لقد كلف الزعيم ثلاثة من الأعوان من ذوي المهام الغامضة بأن يغتصبوه يتناوبون عليه طوال الليل وهم سكارى.

ينسى ما وقع وقتذاك لأنه مؤلم، ويتغافل عن السؤال.. يكون أمام قراره الشجاع، التحدي.. يرتب مع الصبية المساعدين، يقنعهم على عجل بأن المال سيكون أكثر والفوز سيصبح أكبر.. وهم يثقون في عقله يعرفون تاريخ عبقريته التي سوف تصنع مجدها اليوم.

قبل أن يكمل المطلوب، ثرثروا مع بعضهم عن ظلم الزعيم لهم إنه لا يدفع لهم إلا القليل.. القليل جدا.. المستفيدون أناس آخرين.

وثرثروا بأمور أخرى لم يسمعها دابي قطعا.. وهو قد ابتعد عنهم لا يرى سوى ظلالهم المتماوجة أول الصباح.

تقترب السيارة المحددة، المغطاة بالشبك، يكون الهجوم مباغتا، يرمون بالسائق بعيدا على الأرض، واثنين من الحرس لا يبديان مقاومة رغم أنهم يحملان بندقيتين طويلتين معبأتين بالرصاص.. يبدوان خائفين ولا يقاومان، كأنهما متواطئان في اللعبة، ويبدو أن ثمة خيوط أخرى من ترتيب الزعيم أو القدر، لا يعرف دابي عنها شيئا ولا صبيته.

مع إحساسه بذلك يكلمهم وهو يمد سكينه في الهواء أمامهم بعد أن تم تجريدهم من البندقيتين:

"هل ستظلون طوال عمركم عبيدا للآخرين؟"

نظر إليه أحد حرس الخزنة المعبأة بالمال، نظرات غير محددة الملامح. ثم قفز في الهواء في اللحظة كانت فيها سيارة مسرعة تقترب، يتقافز منها عدد من رجال الشرطة ومعهم شخص ليس غريباً عن مخيلة دابي، إنه المدير الجديد كما يبدو من توصيف الزعيم.. رجل طويل ونحيل بوجه مستطيل

وفم صغير وعيني ثعلب والسمة الأكبر بروزا البرص الذي يغطي وجهه.

تم القبض على دابي والصبية، رموا بهم في السيارة.. انطلق الفوج باتجاه المركز.. فهم الصبي أن حياته ستظل نكداً لن يحدث جديدا على ما يبدو، بعد أن فشل..

قضي الليل وحيدا في الزنزانة يفكر في حيلة جديدة، إلى أن سمع خبط أرجل مع رذاذ المطر الخريفي في الخارج. كان الظلام مهيمنا بحيث لا يمكن رؤية من يقف أمامك. كما أن التعب قام بدوره في إضعاف البصر والبصيرة.

قال العسكري المكلف بالحراسة لدابي:

"لقد صدرت أوامر بإطلاق سراحكم"

بقدر ما شعر بالفرح إلا أن خوفا انتابه كيف سيواجه الزعيم وقد فشل في المهمة.. المرة الأولى التي يفشل فيها في عمل منذ أن صار مكلفا بالمهام الكبيرة ومسؤولا من فرقة الصبية.. حتى لو حاول الفرار إلى مكان آخر فهذا يعني حياة جديدة، والأفضل الاستمرار مع من تعرفه خير من أن تجرب آخرين، وقد لا تصل لأي نتيجة.

في الخارج وأمام إنارة العمود الكهربائي في الشارع المجاور للزنزانات الصغيرة شاهد المدير الأبرص، قائد مركز الشرطة، يقف وبجواره شخص لا يمكن للعين أن تجهله أبدا. إنه

الزعيم بشحمه ودمه. هذا المشهد جعله يمزج مشاعر الخوف بالفرح الداخلي، دون قدرة على حسم النتيجة، فهو لا يعلم ما الذي حدث أو يحدث بالضبط.

سمع الأبرص يقول للمسطول:

"كانت مهمة ناجحة.. دعهم ينتظرون أربعة شهور أخرى لأجل رواتبهم"

ضحكات الزعيم تتعالى مع رائحة دخانه في المكان، وهو يقول لمدير المركز الجديد:

"وأنت أيضا سوف تنتظر أربعة أشهر.. هل نسيت أنك موظف في الدولة؟"

خبط كل منهما على كف الآخر.. وهما يخبطان بأرجلهما على الأرض المبتلة بالمطر في الوقت نفسه، يطلقان كلمات بذيئة في الطقس المنعش.

كانت السماء شبه معتمة..

الرعد يهزم بقوة والبرق يصعق الذكريات.

جذب الزعيم نفثا عميقا من سيجارته قبل أن يمد الأبرص يده ويأخذها منه بطريقة تشير إلى صداقة قديمة،

يواصل جذب السيجارة إلى النهاية، يشفطها بصوت مرتفع وهو ينظر باتجاه دابي، كأن يراه لأول مرة.

الهمبول

عذراً يا صديقي.. ليس لك من شفاعة اليوم بعد أن سمحت لنفسك بأن تدخل في هذا الموقف الذي لا تحسد عليه. ليست هذه رسالة عزاء، هو تقريع شديد اللهجة احتراما لإنسان كنت أوقره في الماضي.

(أكتب هذه العبارة.. وأسأل نفسي عن حقيقتها!!)

اليوم ليس له من قيمة عندي أبداً. فهو محتال وجبان.

قل لي ماذا كسبت أنت الآن تعيش في بيتك وحيدا، مثل جرذ حائر أو ذبابة أو أرنب أو أي حشرة تافهة، مثل تلك التي خلقها كافكا.

دعنا منها أعرف أنك لا تقرأ الكتب الأدبية، وليس هذا شغلك الشاغل. أنت سياسي بإمتياز كما تحب أن يسموك، وقد سقطت في اختبار السياسة، ربما لأنك تجاهلت أن الأدب هو مفتاح فهم السياسة.

كنت تقف في قاعة المحاضرات بالجامعة الأم، في البلاد. تحاول أن تعلم أجيال الغد كيف يكونون سياسيين من خلال علوم نظرية. حدثتهم أن الخيال هو الذي ينقص السياسي في بلدنا:

"مهما حاولوا استيعاب الواقع أو المجتمع فهم لا يتمتعوا بالخيال الكافي لابتكار الحلول"

كوّنت نظريتك حول "السياسة والخيال"، وذهبت محاضرا في أرقى جامعات العالم، ثم عدت. وعندما خضت غمار السياسة كسياسي لا كمُنظِّر فشلت، لأن نظريتك كانت ناقصة تماما يا صديقي..

ذات يوم وجدتك في الممشى الرئيسي للجامعة قبالة الحرم الجامعي الكبير، كنت محتارا أو تمثّل عليّ، فخلال شهرين كنت قد تغيرت كثيرا يا صديقي. لم تعد ذلك الودود واللطيف والحكيم. ما الذي جرى معك؟ لم يكن لي من إجابة وأغفلت الموضوع عندما رأيتك ترفض التعبير عما يجيش بصدرك.

سمعتك عنك قصصا كثيرة، وأنت تغادر كرسي التدريس.. عندما ظهرت فجأة أمامي، في التلفزيون.. أمام الجميع بوصفك الناطق الرسمي.. الناطق.. ضحكت، والله يا صديقي القديم ضحكت أي ناطق؟! وأنا أعرف اللعبة كيف تدار، أعرف الحقيقة والخيال.. الشجرة والظل.

(أكتب ذلك.. وأنا مرتبك.. لأن ثمة أمر مقلق يخصني!!)

إلى اليوم أجهل كيف تم ما تم، ولا يهمني فالماضي قد مضى، والمهم هو الآن، هل ستكون قادرا على غسل قلبك والبداية من جديد، وهل سوف يتقبلك إنسان بعد الآن.

وكيف ستنجح في بناء حياتك في بلدك بعد أن حكمت على مستقبلك بالفشل، فصدور قرار إقالتك من قبل النائب العام، في شكل أمر قضائي وقعت عليه السلطات العليا في البلاد، كان يعني أنك أمام حبل المقصلة وقد أعدمت فعليا، وحتى لو أنك فكرت في الهجرة للخارج، لن تستطيع سبيلا لأنك دون شك موضوع في قوائم الممنوعين من السفر.

لا أريد أن أشقيك أكثر مما تعرفه جيدا وتعيشه، وربما أعدم هذه الرسالة، أمزقها بعد أن أنهيها، فلا تقرأها أصلا. وربما أغيّر بعضا ما كتبت كوصفي لك بالجبان، لأني ما زلت أنظر إلى الأيام التي قضيناها سويا في ممرات الجامعة، القاعات، في نادي الأساتذة تحت أشجار النيم ونحن نوجّه النقد اللاذع سويا للسياسة الرعناء، خطل المفاوضات التي تجري هنا وهناك لأجل صناعة السلام في البلاد، الحروب الدموية المدمرة، المجاعات، تدفق النفط وتوقفه واحتراق آباره بفعل فاعل، كل طرف يرمي المسؤولية في الآخر.

قلت لي:

"لو كنت مسؤولا في هذا البلد لفعلت.."

وتعرف تماما الفرق بين الواقع والتخيل، ويوم أخذوك إلى المزرعة، وجدت نفسك في دور الهمبول، الذي عليه أن يخيف الآخرين دون أن يقوم بدور فعلي أو يقدر على مغادرة المكان الذي غرس فيه..

نجحت في دورك وحققت لهم ما يريدون وفي النهاية رموا بك في المزبلة مثل منديل متسخ استنفد غرضه، ليس من جديد فهذا ما يحدث عادة.

أنت الآن أمامي على الشاشة، في برنامج اليوتيوب، أشاهد ذلك الفيديو الذي يوثق لك آخر يوم تقريبا. إذا كنت دقيقا في عملي كرجل متخصص يعتقد أنه أرشيف للوقائع السياسية المهمة. كنت تتكلم كروبوت، التعابير لا تظهر على وجهك والكلمات ليست من اختيارك.. تكلمت عن أن الغلاء غير موجود، وأن ثمة جواسيس ومندسين يتبعون لمنظمات أجنبية، تمولهم سفارات غربية، هم الذين يقومون بإشاعة الفوضى والبلبلة من خلال مثل هذه الشائعات المقرضة.

يا صديقي.. عيب والله.. حتى قاموسك لم يعد رائقا وناصعا، فقدت ذلك الرونق.. كيف كنت تختار المفردات بعناية. أصبحت بلا خيال.. صرت جهاز تسجيل يعيد ما سجله..

ثم حاولت أن تجيب على أسئلة الصحفيين، وكنت بارعا هذه المرة بخلاف الارتجال الأول المحفوظ.. الجميع يعرفون أنها براعة مفتعلة.. وكل ذلك لم يشفع لك، ففي المساء صدر القرار.. مشيت منكسرا حزينا، إلى سجنك، منزلك القديم في البلدة المهجورة، بعد أن جردوك من كل شيء.. منزل الدولة.. سيارة الحكومة.. المرتب الكبير.. الامتيازات اللانهائية.. حتى

زوجتك لا تعرف أين هي الآن، وهي التي مفترض أنها بجوارك. ربما هي نائمة في أحضان واحد منهم، أولئك الذين كانوا يوجهونك بـ "الريموت كنترول".

والآن سأختم رسالتي إليك.. لدي أخبار غير سارة لك.. لا أريد أن أعقّد أمرك، إنما انطلاقا من واجب الصداقة العتيقة المتهالكة، أنقل لك ما يتردد وربما لم تسمع به في تلك البلدة، حيث انت بعيد عن مركز صناعة القرارات ونسج الاحتيالات.. يقولون إنهم قد يقدمونك لمحاكمة خلال أيام.. البلد تتحدث بذلك.. وقد تصل عقوبتك إلى الإعدام.. فهل أنت مستعد للتضحية، أيها الهمبول؟ التضحية باسم هذا الهباء والوجع.. هذا الفراغ الذي يسكنك.

عندما تشرق شمس اليوم التالي، ربما تقف أمام القاضي.. فكن حليما.. لا تنطق بكلمة.. رويدك.. لا تكن منفعلا.. لدي يقين أنك ستعود إلى بعض طباعك القديمة بعد أن فات الأوان.. كان وقتها الانفعال من صفاتك، حيث لا ترضى الضيم ولا الاضطهاد.. كنت باحثا عن العدالة والإنسانية والحب الحقيقي بين البشر..

(أكتب ذلك.. وأشك في الحقائق.. هذا العالم لا يمكن القبض فيه على أي معنى أو قيمة ثابتة!!)

من الخير لك أن تسكت تماما فهم في كل الأحوال لن يسمعوا لك، إذا قرروا من أمر بشأنك فسوف يقومون على الفور بتنفيذه بعد أن حلّ مكانك همبول جديد..

قلت أنني سأختم رسالتي ولكنني استطردت.. أعذرني على ذلك..

الآن، بل أخيرا دعني أخبرك بالسر.. لماذا أكتب، ما أكتب؟

قلت لك الصداقة.. القديمة.. التليدة.. الذكريات..

وتعرضت لأيام خلت بمودة..

صدقني..

كل ذلك افتراء وكذب مني، فأنا لا أحبك.. أكرهك جدا.. ولم أكن جريئا ذات يوم لكي أواجهك بالحقيقة المرة، وأنت ربما تعرف ذلك في قرارة نفسك دون أن تكون سيئا بأن تتطاول عليّ. كما أن ذلك لو كان حاصلا فدعني أوجه لك الشكر على أنك صبرت على تفاهاتي طوال سنين عددا.

يحدث ذلك عاديا بين الأصدقاء، فنحن مجتمع زيف، كل حياتنا قائمة على التمثيل.. البراعة في إتقان الكذب.. كذب مستمر إلى الأبد.

قلت أخيرا ولم آت على السبب بعد.. سبب ما أكتب.

إنه القلق الذي يساورني منذ يومين.. بعد أن وصلني رجل غريب الأطوار، دخل مكتبي بالجامعة وهو يخبرني بأن السلطة العليا تريدني.. وأشار إلى رواية (1984) التي كانت في رف المكتب، بين مجموعة كتب، لا أدري كيف التقطها.. طبعا أنت غير مشغول بذلك كثيرا.. لأنك لم تقرأ هذه الرواية، ومرة قلت لي:

"جورج أورويل هذا معتوه.. يقول إنه يكتب ويده تتحرك دون أن تدري ماذا تكتب بالضبط. ثم يكتشف أنه كتب الروائع"

كنت تعني أيامه الأخيرة في المشفى قبل أن يموت. وأيضا.. عموما، ما قلته.. هذا كلام مجتزأ ولا قيمة له. ثمة خلل ما فيك، عجزت أن أعيده أو أُشكّله معك، فأنت لم تكن تهمني ذات يوم..

رغم ذلك ظللت تسافر وتحاضر وتدافع عن نظرية "الخيال السياسي".. وكان ذلك يقلقني أن ترهاتك مستمرة.. لكنه ليس كالقلق الراهن.. في هذه اللحظة، فالرجل يطالبني بأن اتخذ قرارا سريعا، إما بالرفض أو القبول.. قال لي باختصار، وهو يغادرني:

"الـBIG BROTHER ينتظرك ليعرف ماذا قررت!"

كان يعني ذلك الشخص الذي يدير كل شيء في البلاد، دون من أحد قادر على معرفة من يكون هو بالضبط. فالحياة هنا مليئة بالهمابيل التي تمثل أدوراها، في حين أن الشخص الحقيقي "الأخ الأكبر" لا أحد يكتشف هويته..

نظرت إليه، وأنت خائف. أعني أنا من نظرت قلت له:

"غدا أقرر"

نعم اليوم لابد أن اتخذ قراري.. وقد زاد قلقي مع سماعي ما نقله لي من أخبار سيئة بشأنك.. المحاكمة المنتظرة.. كأنّ في إفادته هذه تغليف لتحذيرات مسبقة موجهة لي، تعني مباشرة، إن رفضك يعني موتك أيها الأستاذ الجامعي الذي يظن أنه كل شيء..

أنا يا صديقي ذاهب.. الآن فقد اتخذت القرار أثناء كتابة هذه الرسالة.. بل أنها ربما كانت تمريناً لاتخاذ القرار.. اكتشاف قدر الخوف والجبن الذي يسكنني.. نحن كائنات لا هوية لها وليس لها من مشيئة أمام "الأخ الكبير".

دعني أخبرك صديقي، العزيز، اللدود..

دعني أخبر نفسي المرتبكة..

أنا ذاهب إليهم وليكن ما يكن.. سوف أداهن وأتملق وأحملق في الفراغ.. سوف أجعل الطيور البريئة تفر من

أمامي.. وسوف استعد من الآن للخذلان المبين.. ثمة دور يجب أن أقوم به شئت أم أبيت. لا حيلة لي..

أنا خائف. أنا جبان.. لست وحدك ذلك التافه.

أنا ذلك الأستاذ.. الدكتور جيكل والمستر هايد. أنا منشطر على نفسي، أحاول أن أعثر على مركبي الحقيقي فأفشل.

أنظر للمرآة أتذكر كلمات محمود درويش "أأنت، أنا"، ثم أمسح على جبيني المتعرق.. دون قدرة مني على الإمساك بالزمن، كأنني داخل كابوس أو حلم تعس. أو لكأن الحياة في مجملها عصاب ذهني عميق يصعب علاجه.

أعيد قراءة ما كتبت من الأول للنهاية.. أحاول أن أتذكر من يكون ذلك الصديق الذي عاش هذا الدور، هل أتذكره فعلا، أم أنني هو!!.. ليس لي من إشارة واضحة سوى القلق.. الخوف.. الانتظار المقيت للغموض الذي يغلق باقي أيامي..

ثمة طرقات على الباب.. أفتحه، أجد أمامي الرجل الذي جاءني بالمكتب، يقول لي:

"تفضل سيد مازن.. الأخ الكبير في انتظارك"

ألوح بيدي لصورتي المعلقة على الحائط كأنني شخص آخر.

السمكة

تقع بلدتي بجوار النهر، وليس في ذلك سر! السر الوحيد أنني لا أجيد السباحة. بل لا أفهم فيها مطلقا.. كانت أمي تخاف علي فمنعتني بوصفي الابن البكر من الاقتراب من بوابات الموت. وقد كان الماء المندفع من الجنوب سببا للموت.

الآن وأنا أعيش في بلدة محاطة بالمياه من الجهات الأربع تقريبا. أرى نساء ورجالا يسبحون بكل سهولة بما فيهم ابني، يقلبون أجسادهم شبه العارية في الماء.. تمتلكني حسرة كبيرة. بوصفي رجل على أعتاب الأربعين لا يفهم لغة الماء.

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة ليلا، وثمة شخوص يتحركون من بعيد في المكان. على الشاطئ. وسفن تقترب من بعيد تذكرني برواية "السفينة البيضاء" للأديب القيرغيزي جنكيز ايتماتوف والتي قرأتها في سنوات المراهقة، وأنا أحلم وقتها أن أصبح طفلا على شاكلة بطل تلك الرواية، قادرا على عبور البحر لكي أصل إلى سفينة قادمة من بعيد تحملني إلى مكان آخر في هذا العالم. غير ذلك الذي ولدت فيه. غير هذا الذي أعرفه. مكان ليس بالضرورة أن يكون هادئا. فلا هدوء في العالم. ولكن بالضرورة . لابد أن يكون مسرحا لمغامرات أخرى غير التي آلفتها. فالأشياء هنا مملة. اقصد أنها مملة في

تلك الفترة. وهي بالمناسبة مملة الآن. فالملل مفردة قاموس حياتي المرهونة للغموض دائما. غموض كهذا الماء الذي كشفت السفينة عورته الليلية، فتدلى منها رجل بنزق إلى الماء وهو يصيح.. ربما كان ضاحكا.. ليس بإمكاني أن أميز شيئا من على البعد. يكفيني أن أمارس هوايتي في التأمل وفي التخيل المستغرق في وضع الأحداث الواقعية في سياقات جديدة. غالبا ما يكون ذهني هو موجدها. غالبا ما تستغرقني لدرجة أنني أصدقها.

هل هذه اللحظة العابرة من حياتي... وأنا بجوار البحر ليلا.. هي لحظة صحيحة... واقعية... حادثة فعليا؟ أم أنني أتخيلها؟ فلربما ما زلت ذلك المراهق الذي يقرأ رواية "السفينة البيضاء" والذي توقف فجأة. ربما وضع الكتاب أسفل السرير.. أو على صدره.. أو ذهب ليتوضأ فيصلي أو نادته جدته لمساعدتها في الامساك بالدجاج حتى لا يفلت من القفص.

أتوقف فجأة. أتذكر أنها واقعية.. هذه اللحظة.. نعم أنا هنا.. وذاك ابني يقفز في الماء.. وتلك زوجتي تمصّ قصب السكر علامة على الحنين لوطن فقدناه قبل عشر سنوات.. ربما أكثر... بقليل.. تذكرت واقعية اللحظة لأن جدتي كانت لا تؤمن بالأقفاص ولم تكن تسجن الديوك والدجاج.. كانت امرأة من قبيلة جان جاك روسو وغرامشي أولئك الباحثين عن حرية كل شيء.. حتى الحيوانات الأليفة.. لهذا كانت

نظريتها في الحياة: "دع كل شيء في مكانه الطبيعي وسوف يكون سعيدا، لا تسجنوا الطيور"..

الآن فقط وأنا أسترجع عباراتها هذه.. كأنني أشعر بأنني لست في مكاني الطبيعي.. رغم سعادة ابني وربما احساسه بالغرور انه يستطيع العيش في بلد لم يألفه أجداده من قبل.. هو في الثامنة من عمره ويستطيع أن يتحدث الهندية بطلاقة... ويفهم في مضامين أخلاقيات غاندي، وآخر ما تبثه الفضائيات من أفلام بوليوود.. كذلك يفهم في الفرق بين الهندوسية والبوذية.. وتعاليم كريشنا.

نحن إذن في الهند العظمى..

عذرا نحن هناك منذ عشر سنوات.. لكن في هذه اللحظة أنا وابني وزوجتي في رحلة خارجية... إلى قبرص.. لأن امرأة خرجت من الماء بنصف جسد حورية ذكرتني أنني جئت إلى هنا قبل سبع سنوات لأنشر كتابي الأول عن "فلسفة كريشنا".... وهو الموضوع الذي شغلني لفترة طويلة قبل أن انجزه كرسالة دكتوراه في جامعة السوربون قبل أن أشق طريقي عائدا إلى بومبي..

بومبي.. كريشنا.. غاندي.. السوربون.. السودان.. النيل... مفردات تعبر في ذهني دون أن أقدر على تحديد علاقتي بأي منها.. وكأنني أعيش خارج اللحظة.. وفي كثير من الأحيان أفقد بوصلة علاقتي بالزمن، بالحضور فيه. متخيلا نفسي أعيش

بروح حيوان أليف تم اغتياله على يدي في حياة غير هذه. تأخذني الفكرة لأن ثقافة الهند كانت قد تغلغلت في تفاصيل كثيرة من طريقة نظرتي للحياة، وإيمان بأفكار على شاكلة أن من يقتل حيوانا أو نباتا يعاقب بولادته من جديد على هيئة الكائن الذي قتله.

مرة قالت لي زوجتي بعد خلاف بسيط حول أين نسهر في الليل؟... بغض النظر عن الخلفيات وما انتهى إليه الليل.. فقد سمعتها تناديني وأنا أتقمص روح سمكة:

"أين أنت شارد الذهن؟... تأمل وجهك كم يبدوا غريبا هذه الليلة.. أعرف أنك ترغب في النوم المبكر.. لكن تذكر أن السمك لا ينام؟!"

أدرك أنها كانت مخطئة فالسمك ينام.. ولكن لأنه ليس له جفون فيبدو كما لو كان مستيقظا، له فقط غشاء رقيق يحافظ على عينيه، لكنه إذا نام في قاع البحر ظل مفتوح العينين.

اختارت زوجتي ميرامار مجاز السمكة.. لأنها سمعتني أحدثها كثيرا: أنني أتمنى لو أنني خلقت سمكة.

***

لن يمنعني صراخ الرجل الذي هوى إلى الماء من السفينة، من الاستغراق في فكرة كوني سمكة.. وأنني وقعت في شباك

صياد عظيم كذلك الرجل العجوز في رواية "الشيخ والبحر" لأرنست همنغواي.. لكن هذا الصياد كان عطوفا وطيبا – هكذا تخيلته في البداية - فآثر أن يحررني ويصنع خلاصي قبل أن أموت في اليابسة.. بعد أن عرف أو تذكر أنه سوف يتحول لسمكة ساعة يموت.. وربما وقع في شبكة كالتي وقعت فيها.. فكّر في العقاب فرمى بي في الماء مرة أخرى..

وسبحت.. سبحت كما لم أسبح من قبل.. وأنا في غاية السعادة... أنني سمكة حرة تسبح..

أنقذني ابني من تخيلاتي، وهو يقول لي:

"أنظر أنهم يحاولون إنقاذه"

كان الضوء شحيحا، في حين بدت قبرص في الليل مغلفة بالصمت إلا صراخ ذلك الرجل الذي كان يحاول الانتحار.

أخيرا أخرجوه بملابس مبللة ووضعوه عاريا على الشاطئ وهم يتناوبون على تفريغ الماء من بطنه وهو يتنفس بصوت عال. غير قادر على الكلام.. وأخيرا نطق:

"دعوني أموت!"

اقتربت منهم.. وكم كانت دهشتي عندما رأيت الرجل. حتما في الدنيا صدف وغرائب. ولكن أن تصل إلى هذه الدرجة فهذا

عجيب جدا. إنه أخي، شقيقي. بلال الذي لم أره منذ غادرت السودان قبل تلك السنوات.

في البداية لم أصدق.. وتخيلت أنني أنا الذي انتحر بدلا عنه.

وصرخت:

"أي حياة هذه وأي وطن ذلك الذي يفرقنا لنجتمع على شاطئ بلد بعيد، في لحظة موت!"

عندما فتح عينيه الصغيرتين كعيني كجرذ، كنت (أنا السمكة) قد قررت العودة إلى موطني (الماء).. للحظة لم أفكر فيها جيدا.. ولم أتذكر أنني لا أجيد السباحة.. أو أن ثمة ما يخفيني.. فقد كان قراري الموت... فبلال كان شاحب الوجه، نحيلا، غادر ضحكته المكتومة وأنفاسه المشرقة بعبير صباحي كذلك الذي نشتمه على ضفاف النيل في أوان الخريف... ورأيته يتمشى تحت ظلال الأشجار البائسة في بلدي في سنوات طفولتنا.. كأنه أخي الأكبر.. رغم أنه أصغر مني.. كان يقول لي:

"لا تمشي من هنا.. تعال.. لف يميناً.."....

تتناثر الكلمات في دماغي وأنا أشعر بالضيق... في حين اقتربت من الماء تماما... وفي حين أمسكت بعدد من الأيادي، من بينها يدي بلال نفسه، لتجرني إلى الرمل.

صرخ:

"يا أخي لا تغرق.. فالحياة لم تكتمل بعد.. ثمة خيارات أخرى"

شعرت براحة نفسية وأنا أضمه إلى صدري.. كلانا مبللين بالماء.. كلانا غارقين في الأمس لا شيء يرهننا للحظة سوى جسدين متعانقين.. في حين كانت زوجتي وابني وكل الحضور قد اعترتهم الدهشة...

تداخل الأمس مع اليوم مع أزمنة لم تولد بعد... أحسست أنني سمكة فعليا قادرة على الطيران. رأيت أبي يسير في أزقة البلد عائدا من دكانته في آخر الليل.. سمعت صوت مذيع الـ بي بي سي يعلو من وراء الحائط الذي يفصل بيتنا عن بيت جارنا منصور التكروني الذي كان يترك المذياع مفتوحا إلى الفجر... وهو يحلم بالعودة إلى بلاد الهوسا في غرب أفريقيا... لكن الدنيا تظل مجرد أحلام.. ورأيت جدتي تسرح بغنمها في بضع أعشاب نمت وراء النهر الذي آثر أن يستحي من ضجيجه ويعود إلى مجراه.. ورأيت حمد العربي يطارد صبية الحي بعصا غليظة من شجر المسكيت يحاول أن يحشرها في مؤخرة أحدهم.. لشيء في نفسه.. وكما لو أنني رأيت بلال يكلمني في لحظة كانت حقيقة مائة بالمائة:

"هل ستفرقنا الحياة ذات يوم؟"

كانت أمي تقول: "الدنيا مجرد حلم".. ولم أدرك معنى هذه العبارة إلا الآن.. الآن فقط تعمقت فلسفتي بأن الحياة حلم كبير وعلينا أن نعيشه، نتمزق، نفرح، نتألم، نضحك، نبكي، نتوجع، ندور، نعود... نكون نحن كل شيء.. كل الكائنات.. جرذان.. أسماك.. عصافير.. ضفادع ليلية.. خراف .. عقارب.. سحالي.. قطط.. ثعالب مُهلّوسة.. أشجار على هيئة المسكيت، النيم، اللبخ، السمر، النخيل، الدوم، الطلح... ياه....

لساعة كاملة ونحن عائدون إلى الفندق الذي نقيم فيه يصحبنا بلال، لم يتكلم أحد.. ميرامار وطاهري ابني أدركا السبب.. لم أقل لهما غير كلمة واحدة: "إنه أخي".. فهما لم يرغبا في إثارة المزيد من الجرح.. أما بلال فكان كمن يبكي لكن لا أثر للدموع..

وأنا أقود السيارة التفت إليه من دقيقة لأخرى لأراه ساهما في مكان بعيد.. كأنه ليس هنا..

أخيرا نطق قائلا بحرقة وألم:

"لم تحضر جنازة الوالد.."

لم أتكلم.. كان عيبا كبيرا... ولكن ماذا أقول...

وأردف بحرقة أشد:

"الوالدة كانت تنتظرك بفارغ الصبر.. قبل أن تجن"..

"جنت والدتي.............!!!"

استحيت أن أساله..

"وهل ماتت أم لا ؟!"..

لكنه لم يتركني استرسل في فكري، قال لي:

"اشباهك لا قيمة لهم، مهما فعلوا.. تظن أنك بروفيسور محترم...."

لم أتكلم.. ولم أفكر.. واحتسبت دموعي في محاجرها غير قادر على أي قرار تجاه أي فعل في الحياة.. وكدت أن أنحرف بالسيارة فجأة عن الطريق... لأسمع ميرامار تصرخ في بلال:

"أيها الغبي كفى... عندما نصل إلى الفندق قل كل شيء... الذي يموت لن يعود مرة أخرى"...

هل كانت ميرامار طوال سنوات زواجنا بكل هذه القسوة؟!... لم أفكر في ذلك إلا الآن، خاصة بعد أن صرخت مجدداً:

"وأنت أيها الغبي... فكر في حياة ابنك إذا كانت حياتك لا تهمك"...

أوقفت السيارة على حافة الطريق.. رغم أنه مكتوب أن المنطقة يحظر فيها الوقوف فالشارع ضيق من الجانبين..

وفتحت الباب بعصبية، ودون أدنى تفكير... كنت قد اندفعت في بكاء حار... ومن جديد كان بلال يحتضنني... احتضنه.. في حين ظلت ميرامار في السيارة تصرخ.. وطاهري كان غير مشغول بما يجري ... فخور بثقافته الهندية.

الموز

انطلق قطار الغرب يحمل جثث موتى المجاعة التي ضربت البلاد، في رحلة ليلية. تم الترتيب للأمر على عجل وفي صمت. بما يشبه ترحيل اليهود الفلاشا عبر مطار الخرطوم إلى إسرائيل في أواخر سنوات النميري. الاختلاف أن القطار كان يحمل موتى، في حين حملت شاحنات الموز القادمة من الشرق إلى العاصمة، أحياء، تم زجّهم تحت أكوام الموز.

في واقعة الفلاشا، تمّ كشف الأمر عبر وسائل الإعلام الخارجية. فمحلياً لا توجد جرأة على القول، كما أن الصحافة في بلدان العالم الثالث متخلفة جداً. ففي السودان تصدر صحف يومية بالكيلو شأنها شأن الموز، لكنها غير جديرة بالاحترام.

في القطار كان هناك جائعون، ما يزالون أحياء. هم الكتيبة السرية المكلفة بحمل الجثث والتخلص منها في صحراء العتمور شمال البلاد، بعد أن يكون قطار الإكسبرس الليلي، قد تجاوز مدينة أبوحمد النقطة التي يفترق فيها خط السكة الحديد إلى وجهتين مع انحناء النهر، وجهة إلى الشمال باتجاه حدود مصر ووجهة غربا إلى دنقلا.

يتجه القطار، إلى أقصى نقطة في الشمال تصلها العربات غير الخاضعة للتفتيش والمحروسة بشكل مشدد غير مرئي. من هذه النقطة، سيدخل القطار في صحراء جرداء. لا حياة فيها. صحراء جائعة. ليتم إخراج الجثث المتعفنة وقذفها داخل حفر عميقة تم إعدادها سلفاً.

كان لابد من دفن الفضيحة..

صحيفة أمريكية تنشر على صفحتها الأولى أخبار المجاعة..

صورة بالحجم الكبير لطفل لا يكاد يظهر منه سوى عظامه التقطها مصور ها جاء به القدر لهذه الأرض البعيدة.. كان هناك نسر جارح ينتظر موت الطفل ليصبح وجبته في الظهيرة.

***

كان القطار يتوقف في محطات، ويعبر بآخريات دون أن يتوقف.

يتوقف ليتزود بالوقود. يراجع "السدنة" (رجالات النميري وأتباعه) الماكينة العملاقة.

تصدر الأوامر من قائد المؤامرة السرية في القطار:

"كل شيء على ما يرام.. واصلوا الرحلة".

يصفّر القطار، حتى ينذر البشر والدواب.

ثمة قطار قادم.

تراجعوا حتى لا تموتوا.

يصفّر حتى لا يشك أحد في الخديعة.

"رائحة القطارات عفنة"

يقول شخص منزوي في الركن، لنفسه سراً..

الآن يكاد يشتم الرائحة، قبل أن يرى الكمساري يقف أمامه بالتحديد، يسأله عن التذكرة. كانت معه تذكرة اشتراها قبل أن يصعد. كان قد وقف في الصف ووصل إلى الشباك الصغير. قدّم ما تبقى معه من نقود واستلم الورقة التي يبحث عنها الآن. لا يجدها.

قال للكمساري:

"كانت معي.. لكن يبدو أن أحدهم سرقها"

نظر إليه الكمساري الطويل. الطويل جداً مثل نخلة تسلقها في طفولته في حوش بيتهم. نظراته مخيفة. كأنه واحد من كتيبة الرعب السرية في القطار. قال له:

"أنت كذاب.. إذا كان الواحد منكم شجاعاً بالصعود إلى القطار دون تذكرة، فعليه أن يتحمل تبعات ذلك"

فهم ماذا يعني الرجل النخلة. فقد اعتبره في عداد المسافرين الهاربين من دفع ثمن الرحلة، في قطار كان من المفترض أن يدفع لمسافريه ثمن صبرهم على بطئه، عرباته المظلمة. تعثراته المتكررة. سائقه قليل الذوق. مراحيضه الغارقة بالبراز المتحجر.

كان الذين يعتصرهم البول من الرجال يتبولون بجرأة عند الباب. يقف الواحد منهم، يعطي ظهره للركاب مرسلاً البول إلى الخلاء. يكون الهواء قوياً في الخارج. لكل فعل ردة فعل. يعود البول مجدداً في شكل قطرات مالحة، تستقبلُ باللعنات في وجوه الركاب المتكومين قريباً من الباب، جوار المرحاض، في ردهة لا تتجاوز مساحتها (متر x متر).

يستقبل طفل رضيع في حضن أمه قطرة من تلك القطرات. يتذوقها. عمره شهران وأيام. يكتشف طعم الملح لأول مرة في حياته القصيرة. يراه لذيذاً. ينظر إلى الرجل الذي تبول واقفاً، بابتسامة مشرقة، تُفسّرها والدة الطفل على أنها مُوجهة لأحد الملائكة المتخفين في مكان ما في القطار.. لا يراهم غير رضيعها.. الذي كان في الواقع، يبتسم متمنياً أن يعاود الرجل الكَرة مرة أخرى. أن يتبول.

ثمة سيدة متقدمة السن، اعتصرها البول. لكنها امرأة.. كيف لها أن تتبول؟ وأين؟

لا سبيل إلى المرحاض، فالدخول إليه مغامرة لا تحمد عقباها.

كانت عنيدة. قررت التجريب. التجريب فعل "حداثوي"، حتى لو قامت به عجوز تنتمي لجيل ما قبل الحداثة. انتهت المغامرة المرهقة بتلطيخ قديمها بما لا يمكن وصفه.

لم يتابع ما جرى بعدها للسيدة، وهي تستعد لاستقبال الشتائم، وهي تطأ الناس بقدمين مقززتين. فقد سارع الكمساري لمناداة الشرطي الذي كان يقف وراءه تماماً، قائلاً:

"خذه إلى الكركون (سجن مؤقت بالقطار).. إنه هارب من القانون.. النظام".

في تلك اللحظات، كان هناك العشرات ممن سافروا بلا تذاكر. ينتظرون دخول القطار، المحطة القادمة، لينزلوا سراعاً من سطوح العربات التي كانت تسير باهتزاز شديد كأنها فوق بحر هائج.

هؤلاء "الهاربون من القانون" - أيضا - عليهم أن يعجّلوا هروبهم، قبل أن تقبض الكلبشات على أياديهم المرتجفة من قبل رجال البوليس.

رائحة الجثث العفنة تفوح بشدة.. مع انقلاب القطار ربما بقدر أو مؤامرة من المعارضين، أو جهة أجنبية لها أغراض دنيئة كما قالت وسائل الإعلام.. دون أن يأتي أحد على ذكر عدد الموتى، عندما اختلطت جثث موتى المجاعة – الفضيحة – مع جثث موتى القطار الجدد.

كان طفل رضيع ما يزال مبتسما يوجه ابتسامته للملائكة التي منت عليه بالنجاة، ينظر إلى السماء كأنه يدعو الله شاكرا.

في عقد الثالث الآن من العمر لا يتذكر ذلك الطفل أي شيء.. طبعا.

لكنه يفكر في أن يكتب روايته الأولى عن أمه التي ماتت في حادثة القطار..

القنبلة

بعد عدة ساعات من تطويق الشرطة الألمانية، لمحطة مدينة كيل للقطارات، الميناء الواقع على بحر البلطيق، وعاصمة ولاية (شليزفيج هولشتاين). كان أن استؤنفت حركة القطارات.

صوّرت كاميرات الأمن رجلا في العشرينات من عمره. أسمر البشرة بشعر أسود مجعد. لم يتعرف المحققون على هويته في البداية. هو كان يعرف أنه سوداني جاء إلى هنا، قبل عدة سنوات باحثاً عن عمل. وصل (كيل) بعد رحلة استغرقت خمس سنوات بدأها من مدينة مغمورة في شمال السودان، في مغامرة تشبه رحلة بطل رواية (مدن بلا نخيل) لطارق الطيب. "زول" يحلم بأن يكون كاتباً معروفاً ذات يوم. حلمه لم يتحقق إلى اللحظة، التي قبض عليه فيها بتهمة الشروع في عمل إرهابي.. فالكاميرا لا تخطيء.

جلس أمام المحقق الألماني، يتذكر الفتاة السمراء الجالسة بجواره في الانتظار بالمحطة، لو كان يعلم أنها كانت تنوي تفجير القطار. هل كان سيثيره جمالها، جسدها البضّ، أناقتها، حجاب رأسها الذي يعطي لمسة جمالية لروحها؟

فشلت العملية لأن القنابل التي كانت تحملها، رديئة الصنع.

قالت الشرطة:

"إن السبب وراء عدم انفجار القنابل، هو خطأ قام به صانعها"

هي.. في اليوم التالي، كانت تطالع الصحف بشيء من الاستهزاء. تتأمل صورة الشاب الأسمر التي وضعت على الصفحة الأولى من الجرائد الألمانية، وفي أغلب جرائد العالم.

استطاعت أن تقرأ وهي تقف أمام بائع الصحف، أكثر من مانشيت:

"القبض على مدبر عميلة تفجير القطارات في (كيل)"

"إرهابي سوداني أراد تفجير القطارات"

"الإرهاب السوداني يصل إلى بحر البلطيق"

صرح مسئول في الشرطة الاتحادية الألمانية لأكثر من جريدة:

"إن احتمالات وجود خلية إرهابية وراء المجرم، تفوق احتمالات عدم وجودها"

هو.. لم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه أمام المحققين. ليس لديه المنطق الكافي لإقناعهم بأن الكاميرا أخطأت.. في حياته لم يجرب أن يحمل قنبلة.. لم يسبق له أن التقى بأي واحد من هؤلاء الذين يُطلق عليهم الإرهابيين.

رد عليه المحقق الألماني بغضب:

"لا تحاول إقناعنا بأنك بريئ.. أنت جئت من بلد لا يمكن تبرئة أهله أبداً"

سأله:

"أين كنت في النصف الأول من التسعينات في القرن الماضي؟"

ردّ:

"في السودان.. كنت طالباً بجامعة الخرطوم أدرس الهندسة"

سأله مرة أخرى:

"يعني في ذات الفترة التي كان بها أسامة بن لادن بالخرطوم.. كنت أنت هناك؟"

حاول أن يقنع المحقق أن هناك أكثر من سبعة مليون شخص كانوا موجودين في الخرطوم، في تلك الفترة، الآن تزايد

الرقم إلى حوالي 10 مليون، هل كان هؤلاء السبعة ملايين، كلهم، يعرفون أسامة بن لادن؟!

ضحك المحقق، أجابه بسخرية:

"لكن لا أحد منهم حاول تفجير القطارات في كيل، غيرك!"

ماذا لو كان القدر قد أخطأ، وقتذاك. وبدلاً من أن يكون هو في الخرطوم، يكون في مكان آخر. أي مكان. المهم ألا يكون هناك؟. أو ماذا لو حدث العكس.. ألا يكون أسامة في الخرطوم؟. لكن القدر لم يخطئ. أخطأ اليوم بتصنيفه كمجرم، سيحاكم عمّا قريب، بعد أن تم تحويل أوراق القضية إلى المحكمة، وبات الأمر واقعاً بما يشبه الحلم.

الفتاة التي كانت تحمل القنابل، برعت في تنفيذ المخطط بدقة واحتراف، فقط خانتها القنابل المغشوشة. لم تكن خائفة من الموت. فالموت يعني لها محطة كهذه التي تقف على رصيفها. قطار تسافر به من الدنيا إلى الدار الثانية، حيث النعيم والجنة، كانت تفكر في الشهادة، أن تهب نفسها من أجل الخالق.

تتلخص قضيتها في خطوة تقوم بها ضد "الكفار". أن يشعروا بالخذلان المبين. أن المسلمين قادرين على تهديدهم في عقر ديارهم. نموذجها الذي تعتز به مجموعة من الشباب الذين استطاعوا أن ينهوا حياة أكثر من ستة آلاف شخص في

أقل من ثوان. وهم يتسوقون، يمارسون حياتهم الطبيعية، يحلمون، يقلقون، داخل بروج مشيدة. لقد كانوا شجعان بما يكفي لينالوا رضا الله. حتما ستلتقي بهم هناك في الجنة، بعد أن تنهي العملية المكلفة بها.

قبيل ساعات من دخولها محطة القطارات. كانت قناة الجزيرة الفضائية، تذيع شريطاً للظواهري الرجل الثاني في تنظيم القاعدة، يتوعد فيه بالمزيد من الويلات للكفار، خاصة في الغرب. في الولايات المتحدة، بريطانيا. لم يذكر ألمانيا. هل أغفل ذكر ألمانيا عمداً، حتى لا يثير الشكوك حول الفتاة؟ أم أنه لم يكن يعلم بما ستقوم به؟

كانت متأكدة أنه لا أحد يحركها، سوى وازعها الديني. رغبتها في أن ترى نور الله يشرق في الأرض الغربية. في ماضيها لم تكن تتخيل أنها ذات يوم ستحمل قنابل لتفجر قطاراً.

عاشت في ألمانيا مع والدها المهاجر منذ سنين بعيدة، بعد أن ترك بلاده وجاء إلى برلين. كان يسارياً متخفياً، فقيهاً في الماركسية. وكان يعيش تناقضاً حاداً فيما يتعلق بمفهوم الحرية، ما بين الفكرة الشيوعية والفكرة الرأسمالية. حاضر في جامعات متفرقة في الغرب عن السياسة والعلوم والإنسان الجديد من وجهة نظر لم يكن هو نفسه يفهمهما جيداً. ابنته كانت تراقب هذه التناقضات. كانت تتعلم منها بحذر. إلى أن أنهت دراسة الطب.

وهي تتدرب على جراحة العظام في مستشفى صغير في هامبورج. لم تكن متأكدة من مستقبلها. عقيدتها. شريك حياتها القادم. كانت غربية في الطباع والصفات. لكن عندما التقت الطبيب الشاب المهاجر من بلدهم، والذي يكبرها بعشرين سنة، تغيرت أفكار كثيرة في عقلها. كان ذلك بعد شهرين من أحداث سبتمبر بالولايات المتحدة.

إلى اللحظة التي أطمأنت فيها أن كل شيء تمّ على ما يرام. وهي تظن أنها على بعد متر من بوابة الجنة. لم تكن تدرك جيداً الطريقة التي ساقتها لكي تتغير على هذا النحو، أن تنقلب حياتها فكرياً، تصبح جزءاً من الخلية السرية التي كان الطبيب عضواً نشطاً فيها. أيضا، لم تكن تدرك كيف سيتقبل والدها العجوز الخبر.

هل سيبكي عليها؟ أم سيفخر بما قامت به؟!.

إنه على أية حال رجل متناقض، هلامي، ضبابي، بلا هوية. ليس من السهل معرفة ما سيحدث معه، بعد أن يكون القطار قد تحول بركابه إلى أشلاء.

عندما سمع البروفيسور بالخبر، لم يكن - بكل تأكيد - يعلم أن ابنته الوحيدة، كانت وراء ما جرى. لم يكن يهتم بمشاهدة التلفزيون، يكتفي بتصفح الصحف في الصباح. قراءة عابرة. دائما كانت علاقته مع الأشياء عابرة. حتى مع

ابنته. حتى لو أنها لم تكن تعلم بطبيعة مشاعره الحقيقة تجاهها.

دخل عليه البروفيسور الألماني صديقه، قدم له الجريدة، وهو يقول له بسخرية:

"أنظر ما الذي يفعله المسلمون؟"

قرأ المانشيت بسرعة. وضع الجريدة جانباً. خلع نظارته السوداء الكبيرة. قبل أن يرفع أصابعه من على لوحة المفاتيح في الكومبيوتر الشخصي أمامه على المكتب، ردّ على صديقه قائلاً:

"المسلمون.. المسلمون.. لقد سمعت هذه الكلمة كثيراً جداً منك.. أنت الوحيد الذي يفهم أن الإسلام شيء. والممارسات التي يقوم بها بعض المتهورين شيء آخر"

"نعم أفهم ذلك بدقة.. لكن هنالك من لا يعرفون ذلك؟"

"اعتقد أن كتابك القادم سيكون مهماً في شرح جزء من الصورة المختزلة عن الإسلام"

بتناقضه الغريب. أحكامه المتضاربة. نفسيته التي من الصعب تحليلها. مضى البروفيسور السوداني في شرح الأسباب التي تدعو بعض الشباب المسلم لتفجير قطارات، اختطاف طائرات، تفجير مطاعم واقتلاعها من الأرض، تفجير

سيارات بأحزمة ناسفة. ساق دفاعاً قوياً عن الإسلام بوصفه دين سلام ومحبة. شن هجوماً على علماء الدين في العالم الإسلامي. وصفهم بشذاذ الآفاق. اختصر رؤيته حولهم بقوله:

"يبحثون عن شهوانية ذاتية.. مصالح آنية.. الإسلام ليس هدفهم الرئيسي ولم يكن كذلك أبداً"

استمع البروفيسور الألماني بإصغاء تام لثرثرة صديقه. عيناه كأنهما تقولان له: "عفوا لا استطيع أن أفهمك جيداً أيها الرجل، أنت ماركسي، رأسمالي أم إسلامي؟!".

في كتابه الذي انتهى منه قبل أيام. وأطلع صديقه على نسخة منه لم تنقح بعد، كتب البروفيسور الألماني، عن نموذج لشخصيات تكاد تكون كلها مستعارة من صورة البروفيسور السوداني. شخصيات مليئة بالتناقض. غياب الهوية. الرؤى الضبابية. القدرة على الإقناع بكل فكرة، وضدها في وقت لاحق. رأى أن هذا النموذج أسوأ من الإرهابيين. رؤية غريبة ومزعجة للوسط الأكاديمي في ألمانيا والغرب.

يمتلك البروفيسور الألماني الذي يجيد اللغة العربية، والذي يقرأ القرآن دون تعتعة - قدرة على الإقناع. كاريزما تؤهله لمقارعة خصمه مهما كانت قدراته، خصوصا في الموضوعات المتعلقة بالإسلام. قضى أكثر من خمسة

وعشرين عاماً في دراسة الثقافة الإسلامية، حركة الإسلام الجديد، كما يسميها. ليست تجربة بسيطة، يحاول أن يلخصها في الكتاب، بأسلوب سهل ومبسط، يجعله ساذجاً في نظر البعض. لكنه لا يهتم. فمشروعه يقوم على خط ظل يؤمن به دائما. لكي تصل إلى عامة الناس يجب أن تقول أشياء معقدة بأسلوب بسيط.

البروفيسور السوداني وبإدعاء مفتعل. وبعد أن أعاد النسخة لصديقه الألماني. اختصر رأيه في الكتاب بالعبارة التالية:

"لن تفهم الإسلام ذات يوم.. لأنك لم تعيش تجربة أن تكون مسلماً!"

لا بأس من التذكر أنه قال قبل قليل لصديقه "اعتقد أن كتابك القادم سيكون مهماً في شرح جزء من الصورة المختزلة عن الإسلام"..

ردّ الألماني:

"لكنني عشتها."

قاطعه:

"أين؟.. في الكتب؟"

استطرد:

"الكتب لا تقول أي مشهد يصور الواقع.. أنت تتحدث في كتابك عن نماذج لا وجود لها اليوم.. ابن رشد، أبوحيان التوحيدي، ابن عربي"

"لكن هناك فصل عن الواقع.. لقد حللت الذهنية والمبررات العقلانية التي تحرك شبابا صغار السن ليلقوا بأيديهم إلى التهلكة"

"تحليل باهت من شخص سيوصف بالجهل"

كانت لغة البروفيسور والد الفتاة جارحة. لكن صديقه لم يتأثر، فقد كان يفهم أنه، ليس كل ما يقال مقصوداً. لاسيما مع شخص كصاحبه هذا. رجل كان يحاول إقناعه قبل قليل بأن هؤلاء الذين يرمون بأنفسهم في الجحيم، هم صادقون قبل كل حكم آخر. صادقون لأن هناك علماء دين يكذبون في المقابل. يصورون من على مقاعدهم الوثيرة في بيوتهم ذات الأثاث الفخم والسجاجيد الراقية، أن قمة المتعة للمسلم أن يموت شهيداً. أن ينعم بلقاء الله مباشرة بمجرد انتهائه من العملية التي نفذها. أقصر طريق للموت وأسرع طريق لكسب السعادة في الدار الثانية، والهروب من دنيا لا نعمة فيها أبداً.

ذات الأفكار هي ما يقولها الكتاب بشكل آخر. لكن البروفيسور الأسمر متناقض. ليس له ظل بمساحة ثابتة.

يتحرك تحت شمس متوترة. قصة رحلته من بلده. معاناته منذ الطفولة. رؤيته لأبيه وهو يموت أمامه مذبوحاً على يد قناص من جيش التحرير في جنوب البلاد في حرب طويلة ضحاياها أكثر من مليوني شخص.. جملة أحداث مؤلمة، جعلته يعيش حياة متوترة، لا مجال فيها لعقل مستقر.

هذا الجانب الخفي والمؤثر في رسم حياة الأكاديمي المهاجر، لم يكن غائباً عن صديقه الألماني. حاول مواجهته به أكثر من مرة. لكن لا سبيل لقول الحقائق أمام رجل تربى على الخديعة منذ الصغر، لم تساهم قراءاته ولا "أفكاره المتنورة" ولا محاضراته الرصينة عن عن (الإنسان الجديد) في نقله إلى صيغة أن يكون مهذباً وجاداً، حتى لو أدعى ذلك.

ليس أمام الصديق الألماني إذن إلا الاعتذار. الصمت. وتلخيص الحالة التي أمامه بمفردات لن ينطق بها:

"ليس المشكلة في الإسلام.. أي دين كفيل بأن يخرّج كوادر صالحة للحياة ولرفد التجربة الإنسانية.. لا يوجد دين سيء.. والإسلام أكثر الأديان التي يمكن أن تخدم البشرية لو أعيدت قراءته على نحو عصري.. بشكل جديد يتماشى مع أطروحات الحداثة والإنسانية الصاعدة.. هذا النموذج الذي أمامي أسوأ من الإرهابيين لأنه يمارس إرهابه المستتر، في حين أن الإرهابي شجاع، مقدام. لو استطعنا أن نمنحه (الحقيقة)

لكان شجاعاً في تغيير العالم بجرأة وسرعة وبطريقة أفضل من طريقة هذا البروفيسور التائه!!"

ينظر الألماني إلى صديقه، يشعر بأن جرحه كبير. لكن هذا الجرح كان من المفترض أن يشفى منذ سنوات بعيدة. يقول سراً:

"إذا لم يكن الإنسان قادراً على استغلال عقله الإيجابي لإعادة بناء علاقته بالعالم، فليس أمامه من سبيل سوى الاستمرار في خديعة الذات، حتى لو لم يكن منتبهاً لما يقوم به"

المشكلة أن هذا النموذج.. يتكرر أمام البروفيسور الألماني. أصدقاء كثر قابلهم. من مصر، السودان، الخليج، العراق، المغرب.. كانوا يفكرون بذات الشكل الذي يفكر به صاحبه هذا. هم غير متأكدين من قناعاتهم، هل هم مسلمون فعلاً أم لا؟ يدافعون عن الإرهابيين الصغار تارة ومرة أخرى يشنون هجوماً عليهم مبالغاً فيه. إنه النموذج الذي كتب عنه بكل صدق:

"إذا استمر سيزداد الإرهاب.. سيفرّخ العالم الإسلامي المزيد من الشباب المتعطشين للموت على نحو دراماتيكي.. ما حدث في سبتمبر ليس إلا مشهدا مصغرا لما يمكن أن يكون أسوأ.. يحتاج العالم الإسلامي إلى الصدق مع الذات. ولن يتأتى هذا الصدق من إنتلجنسيا تضلل ذاتها، قبل الآخرين.

علماء كذابون. أكاديميون منافقون. إعلاميون ينفخون أبواق الزيف. علماء دين منافقون أيضا. سياسيون جهلة.. هؤلاء هم الذين يشكلون المشهد المظلم.. لو كنت شاباً في العالم الإسلامي.. لما فعلت غير الذي فعله الشباب الذين فجروا برجي التجارة في نيويورك!!.. هل ثمة احتمال آخر أمامي؟.. لا أدري".

المصارع

اليوم سنتصارع، نعم أنا وهو سوف نتصارع، ولابد أن أحدنا سوف يهزم الآخر. لابد من ذلك. لابد من فائز، هذا هو قانون اللعبة، لم يحدث أن انتهت مباراة مصارعة بالتعادل مثلما يحدث في كرة القدم، تلك اللعبة "الغبية" التي تحاول أن تكون إنسانية، ولهذا فعندنا في القرية لا أحد يحبها، بل لا أحد أهتم بها.. وفي حقيقة الأمر كما يقال دائما لا أحد يلعب الكرة عندنا، نحن مصارعون فحسب، نحن جماعة وأهل توارثنا المصارعة كفن ورياضة وحياة أباً عن جد، وظلت كل أسرة تحتفظ بالأسرار والفنون التي تقرّبها من الفوز بأي شكل كان، نتوارث ذلك ولا نسمح لأي امرئ كان بأن يسرق جهد الآباء والأجداد، أبدا لا نسمح بذلك.

لكل بيت وعائلة طقوسها قبل المصارعة، ففي عائلتنا لابد أن يتمسح المتصارع أولاً بالزيت، تحديدا زيت الخردل، تدعك أخته جسده كاملاً وهو عاري بالزيت الحار بعد أن تكون قد غلته شر غلية في النار الجهنمية فوق الحطب بالتحديد.. وأي حطب، السدر بالتحديد.. ولماذا السدر رغم وفرة أشجار البامبو بالمنطقة؟ فأنا لا أفهم السبب، لا أحد يفهم ولا أحد يسأل، فقط ما نفعله، أننا نفعل ما وجدنا عليه آباؤنا، ما ورثناه... فقط لا غير..

ولكي لا أخوض كثيرا في أسرارنا التي يجب ألا يعلم بها أحد فسوف أحكي لكم فقط الجانب المهم من الحكاية، ذلك المتعلق بالمصارعة التي يجب أن تجري اليوم، أو التي جرت فعلا.. فاليوم الجمعة الرابع من شهر يناير / كانون الثاني من عام المصارعة، هو التاريخ المحدد لتلك المصارعة الموعودة والمبشر بها من قبل الأجداد، جد عن جد، الكل هنا يعلم أن هذا اليوم هو الذي سوف ينتصر فيه أحد بأن لا يهزم غريمه فحسب، بل يقتله بطريقة بشعة جداً، ويمزقه إرباً.. وأذكرِّكم بان قانون المصلحة عندنا لا سقف له، لا تحده حدود، فالمصارع يفعل كل شيء، كل شيء، وليس مسموحاً لأحد أن يتدخل أو يتعاطف باسم القرابة أو الدم أو أي حماقة أخرى، فأن تتدخل يعني إنك تهزم شرف العائلة، فالشرف الحقيقي أن يموت أخوك، أن يقال أنه مات في المصارعة، لا أن يقال أنهم حاولوا انقاذه.. افهموا ذلك جيدا..

من الغباء أن يظن، أن المصارعة عندنا مجرد تسلية، أكرر من الغباء.. فهي قد ترقى لأن تكون عقيدة مقدسة تقوم على القتل واللذة والتشفي بل والجنون "الأحمق"، وعذرا للكلمة الأخيرة.. لأن أي من أقاربي أو أهل القرية لو سمع انني اتفوه بهذه الكلمة في وصف فعل المصارعة فسوف يخبر الآخرين أنني لا احترم التقاليد ولا أصون الأعراف أو أنني على الأقل إن صار الأمر دون صخب، إنسان منبوذ، نعم منبوذ بحق.. بل ملعون ومطرود من الرحمة، ومن صلة الدم ومن

الحقوق التي أتمتع بها كمواطن في هذه القرية، وأبسط هذه الحقوق أن أمنع من "حقي التاريخي" والمسجل في نواميس الأزل لهذا المكان من العالم، بأن تجرى المصارعة الموعودة اليوم..

فهم يقولون كما أنا أقول لكم، وأروي لكم، ما هو مسطور عندنا ومتناقل، أن المصارع الذي سوف ينتصر اليوم هو سليل تلك العائلة التي لم تشكك في قداسة فعل التصارع ذات يوم في التاريخ، ولم تر في الدم سوى نقاء وطهارة، لو أن جسد أحد أبنائها خُدِش أو فصد في المصارعة، ولهم أن يفرحوا بذلك.. ولو مات فإن روحه دون أدنى شك سوف ترتفع إلى الجنة في الفراديس العلية، هناك حيث ستجري مصارعة جديدة، بل مصارعات لذيذة ولكن دونما دماء كما يقولون لنا في كتاب "المصارعة المقدس" عندنا.. فالمصارعات هناك بحضور الملائكة وزمرة من الصالحين وأهل الأعراف هي للمتعة والتسلية والإحساس بالخلاص النهائي من رهق العالم الارضي في القرية التي كنا فيها ذات يوم.

***

لن أبوح بسرّ ساعة أخبركم بأن المصارعة بينه وبيني التي ستجري اليوم، سوف تكون تاريخية، لأسباب عديدة.. أوضحها أنها المصارعة التي ظلت القرية تنتظرها منذ أن جاءت.. منذ ان كانت.. وهو تاريخ بعيد غارق في البعد لا أحد

قادر على معرفته بالضبط.. والمهم أنها سوف تكون استثنائية لأنها سوف تنقل على الهواء مباشرة، كما يقال.. لم يحدث أن جرى هذا من قبل.. أبداً.. فغالبا ما تجري مباريات المصارعة في حيز القرية ولا يسمح لأناس من خارجها بأن يشاركوا بالحضور، هذا ما تقوله نواميسنا هنا.. فالمصارعة هي لنا ولأجلنا فحسب.. وإذا حدث أن تدخل أحدهم بأن تلصص ولو بعين واحدة، فسوف تفقأ كلتي عينيه في الحال.. وسوف يصبح أعمى ينزف؛ يسير هكذا إلى أي جهة غير معلومة إلى أن يلقى حتفه، لا أحد يعينه أو يهتم به.. كم نحن قاسون.. نحن ورثة المصارعون الكبار..

إذاً اليوم، هو اليوم الموعود المسطور والمنتظر بأن يحضر الجميع وأنتم مدعوون للحضور ولا تخافوا فلا أحد سوف يناله شر منّا اليوم.. لو أن دعوتي لا قيمة لها، لأن الحدث قد انتهى فعليا. الكل مرحب به.. فقد حضرت قنوات فضائية وصحفيون ومغامرون منذ ليلة الخميس.. وهم الآن في القرية، في الميدان المجاور للمقابر يحضرون كاميراتهم وينصبون خيامهم، ويجهزون الاستديوهات المتحركة لنقل هذا الحدث الكوني..

***

قلت لكم.. بأن المصارع لابد ان يدعك جسده بالزيت.. واخبرتكم عندنا يكون زيت الخردل هو المطلوب.. ولابد ان

تكون عارياً.. والمباريات تجري هكذا.. لابد ان يكون المصارع عارياً تماما.. لا أحد يخجل من ذلك.. فالمصارعة كفعل مقدس عندنا، تشبه صلاة أو عبادة علينا أن نحترم طقوسها وقوانينها اقتنعنا بها أم لا.. لا أحد يناقش ذلك.. فنحن نتلو ما هو مسطور في كتابها المقدس عندنا في القرية. نتلو وننفذ لا غير..

ولعل البعض قد يسأل، لماذا أنا الذي سوف أتصارع مع خصمي دون غيري من العائلة، فهناك أخواني العشرة وأبناء عمومتي وهناك ابناء خالاتي وسرب كبير من الأقارب.. كلهم يمكن أن يتصارعوا، بل هم أمهر مني كما يتهامس الناس سرا.. لماذا أنا؟ ولماذا هو ايضا؟..

سأخبركم بالسبب.. ببساطة فالوصف الذي يقول به كتاب "المصارعة المقدس" ينطبق عليه هو وعلي أنا.. نعم هناك صفات محددة مسطورة منذ قدم التاريخ بأن تجرى المصارعة اليوم وأن يكون طرفاها هو وأنا... شخصين تم اختيارهما بعناية من قبل الوهاب.. وهاب المصارعة الذي جعلها رحمة للعالمين في هذه القرية التي لولاها لهلكت. كما يزعم الآباء والأجداد، ولا أحد يناقش ذلك.

لن أدس مشاعري.. وعلى من أدسها.. فالواقع أنه لا أحد معي ليسمعني.. فأنا أكلم نفسي الضعيفة، المنتهبة بالخوف والترهات.. آه.. هذا اليوم ليته لم يأت أبداً، وليته ما كان.. حتى

أكون أمام هذه المهزلة.. ولما أنا يا إله المصارعة، لما أنا؟.. لماذا أخترتني دون عبادك لهذا اليوم؟.. وأنت تعرف أنني قليل الحيلة وهزيل الإرادة ولا حول لي.. لكنني بعزمك سوف استعين على السير في الدرب حتى المبتغى.. حتى لا أهزم زمرتي وأهلي وعشيرتي.. وحتى لا يقال أنني جبنت ورعبت.. يا وهاب المصارعة فأنصرني.. وألهمني التزمل حتى لا أفضح نفسي..

***

قبل أن أصرخ أو اتقيأ أوجاعي كانت أختي قد طمأنتني وقالت لي:

"لا تخف فأنك لاريب منتصر، وسوف يعلو أمرك على كل مصارع جبار.."

أعرف انها تعينني على الصبر وتحمل أذى خصمي، الذي هو أقوى مني واشد بأساً بشهادة الجميع الذي رأوه، وأنا لم أره بعد، لكن أختي كانت مؤمنة بأن إله المصارعة قادر على ابتكار العجائب.. وكم من قصص تروى في هذا الشأن في تاريخ القرية.. كم من مصارع لا حول له ولا قوة حقق الانتصار المذهل والفوز العجيب.. وهذا ما يجعلني اطمئن بعض الشيء..

***

مكتوب منذ الأزل.. في هذا اليوم الرابع من يناير يحدث الأمر العجيب.. ويكون الحسم بميلاد المصارع المتوج على العرش، الذي على اثره سوف تسير الأجيال ومنه تستلهم العبر.. وبعد هذا اليوم فسوف تتغير تقاليد المصارعة وفنونها تماما إلى الأبد.. إلى الساعة المحتومة.. ستتغير القوانين والقيم والقصص التي تروى، كل شيء سوف يتغير، بعد أن تكون المباراة النهائية قد أنجزت الوعد التاريخي بأن يعلن عن الفائز، وهو الذي سوف يحدد القيم الجديدة والتشريعات المستقبلية للمنافسات.. لكن ثمة خطوط عريضة وبشائر مشار إليها في كتاب "المصارعة المقدس".. من ضمن هذه الشرائع وأولها أن المصارعة لن تكون لأجل دمّ بعد اليوم.. لن تكون إلا للمتعة فحسب.. فالمصارعة التاريخية أترعت الدم النهائي وقررت الخلاص.. وعلى الآباء أن يعلموا الأبناء والأحفاد أن كل ما كان في الماضي يجب أن ينتهي ليبدأ عهد جديد، يجب أن يعلم الجميع بذلك.. ولكن علينا ألا نتعجل الأمر، لنرى من الفائز الذي سوف يصوغ سفر المصارعة الجديد في تاريخ القرية.

***

على مدار التاريخ الإنساني لقرية متخمة بالصراعات والمصائب والأتراح والأفراح في بعض الأحيان، ولمن شاءتهم العناية.. فقد برز مصارعون كثر.. يصعب حصرهم.. لكن

عوائل قليلة فقط هي التي اختصت بأن ترث الانتصار المتوالي، وحفرت اسمها في ذاكرة القرية.. ومكتوب في الأزل أنه مهما علا مجد مصارع أو شأن عائلة أو تشرفت بأن تكون راعية لمصارع ما، فإن يوم الجمعة الموعود سوف يخرج إلى العالم المصارع الذي سوف يبقى أثره خالدا.. فهل أكون أنا؟

اقول لكم ذلك وأخبر نفسي ولا أعلم إلى الآن شكل خصمي ولا حجمه، أعلم ضعفي نعم، أما قوته فلا أعلمها.. أو ضعفه.. ليس لدي أي معلومات سوى ما يقوله الناس ولا أعرف دقته تماما.. فمن شروط المصارعة النهائية أن المتصارعين لن يريا بعضهما البعض إلا ساعة المواجهة، ربما يعرفان بعضهما من قبل لكنهما لا يعرفان أبدا أنهما سوف يتواجهان أمام الجمهور وأن أحدهما سوف يقتل الآخر ويقضي عليه تماما، وأن الدم الذي سوف يسيل من أحدهما سوف يغسل درن الأمس وينير الطريق إلى المستقبل في طقس يشبه الصلب، لا أعرف هل هذه الطقوس والإفادات الواردة في كتاب "المصارعة المقدس" مأخوذة من كتب مقدسة أم لا، لكنني أرى كثيراً من التشابه بين أديان أعرفها وأُلمُّ بها وما يدين به أهلنا وأدين به أنا من تقديس وميراث هائل وكبير ومهول عن المصارعة.

أهلنا بالطبع هنا يدينون للرب الذي تعرفونه جميعاً.. لكنهم يعشقون المصارعة لدرجة أنها تكاد تكون الدين السري لهم.. الدين الذي لا يتحدثون عنه إلا ساعة تبرز الحاجة

إليه، يوم المصارعة، وغالباً ما تجري المصارعات يوم الجمعة.. واليوم ستجري المصارعة المنتظرة، هذا اليوم المعرف في كتاب "المصارعة المقدس" باسم "يوم المصارعة الأعظم" الذي سوف ينجب المصارع الأعظم الذي سوف يغير كما أخبرتكم قوانين اللعبة.

***

اليوم باكراً في الصباح ناداني عمي جبريل وأخبرني ان علي ان استعد.. وقال لي:

"يا ولدي يا عماد الدين.. نحن ديننا المصارعة فلا تخذلنا"

قلت له:

"يا عمي يا جبريل أنا لا أفهم في المصارعة وأنا ضعيف البنية وليس لدي قوى على هذا الشيء"

رد غاضباً:

"ماذا سنفعل إذا كان وهاب المصارعة قد اختارك أنت دون غيرك من العشيرة لتشرفنا في هذا اليوم الأعظم"

وقلت لنفسي: أين سأهرب.. يا أيها الاله العظيم إله المصارعة ساعدني على النجاة ببدني من هذا الهول وهذه الفظاعة..

وكأن عمي سمع ما أقوله لنفسي.. كأنه رأي الخوف في.. فقال لي:

"لا تفكر كثيرا حتى لا تحزن.. نحن موعودون بالنصر الكبير يا ولدي.. الاله العظيم يعرف اين يضع سره"

وسألته:

"يا عمي من أين لك بهذا الخبر؟.. وكيف عرفت أنني الموعود بهذا الشرف المخيف؟"

كنت أقول وأسال، وأنا مرتعب أتعرق في هذا اليوم البارد في القرية.. وكنت على عجلة من أمرى، فقد فوضت هذا اليوم منذ ليلة أمس لفعل أمور كثيرة.. منها أن اقرأ كتابا اشتريته بالأمس ومن شدة رعبي فقد نسيت اسمه أو موضوعه الآن والسبب الذي دفعني لشرائه أصلاً من باعة متجولين في القرية يدقون أبواب المنازل يبيعون الكتب أو يستبدلونها بأدوات قديمة لم يعد أهل البيت يرغبون فيها.

وهأنذا أتذكر الآن.. فأنا لم اشتر الكتاب أصلاً، إنما استبدلته بحذاء قديم بعد أن أهدى لي أحد أصدقائي واحداً آخر.. دعاني لأن ألبسه غداً (اليوم) لكي نذهب به إلى الساحة الكبيرة ونشاهد أحد مباريات المصارعة..

قال لي ذلك ولم أكن - ولا هو كان - يتصور أن المصارعة التي سوف نشاهدها هي مصارعتي أنا.. أنا الخائف.. الـ ج ب ا

ن.. أما من طريقة فأهرب من هذه الأساطير التي تعيش بها قريتنا.. ولكن إلى أين؟!.. وهل سيتركوني أفر بهذه البساطة وقد عرف أهلي جميعاً ووضعوا فيّ آمالهم بأن أكون لهم شرفاً وأحمل اسمهم إلى يوم الدين.

***

أخبرتكم أننا سوف نتصارع يوم الجمعة، ونسجت تخيلات كثيرة في رأسي حول ذلك الحدث الذي مر كأمر عادي.. ليس توهماً مني بل حقيقة عشتها، لأنني بساطة ومنذ أن أخبروني باختياري للمنافسة في الصباح الباكر، أحسست بحالة من دوران الرأس القوية، جعلتني غير قادر على التركيز أو عارف لما أنا فاعله.

أخبرني عمي بأن المصارعة ستجري بين عائلتنا وعائلة أخرى ولم يحدد لي اسم العائلة، وهذه أحد القواعد كما تعلمون، وقال لي:

"استعد سريعا لان الوقت يمضي"

وأنا ارقد على اللحاف في الحوش الكبير بالبيت، تحديداً عند الصالة الصغيرة الشرقية من بيتنا المعروشة بالبامبو (الخيزران)، كانت أختي قد بدأت مهمتها في تدليك جسدي الطري، وأحسست لأول مرة بنعومة أصابعها وهي تمررها على ظهري وتمسح بالزيت الحار، ويبدو أو أن ذلك حدث فعلاً

أنني نمت.. لا أدري.. أو أن تأثير الزيت المشتعل قد خدر أعصابي فدخلت في نفق من الضوء الآثر، بحيث وجدت نفسي أؤهل نفسي لهذا اليوم التاريخي.. هذه المصارعة الأبدية التي تنتظرها البشرية.. كم أنا موهوم.. ويمكن أن تقرأ أيضا بالمقلوب (م و هـ و م) .. لتعطي نفس الكلمة.. فالوهم هو الوهم.. موهوم بأنني عبر هذه المصارعة الموعودة سوف أصبح بطلاً في التاريخ الإنساني، في قريتنا على الأقل وسيشار لي بالبنان.. هذا ما أحسست به في عوالم الضوء الآثر.

لا أعلم كم مضى من الوقت قبل أن أعود إلى الواقع وأكون أنا الذي أعرف نفسي بأن أرى أختي أمامي وقد انتهت من مهمتها.. وأن رزمة من أهلي واقفون أمامي يصفقون تشجيعاً لي وهم يهتفون:

"البطل .. البطل.. المصارع الأعظم"..

نعم قالوا "المصارع الأعظم"، أنا متأكد أنني سمعتها منهم تماما، وهذا يعني مسؤولية مضاعفة.. وكان في الصف الأمامي قد وقف أولاد العائلة من البنات والبنين، ووقف ولديّ عبد الله وعبد الرحمن وهما طفلان، ينتظران ان يشهدا اليوم على بطولة والدهما المصارع الذي اختارته العناية الإلهية أو إله المصارعة.. ومن ثم العائلة، تحديدا عمي، الذي هو المفوض باختيار المصارعين عندنا.

كنت اعتقد وانا في تلك اللحظات التي غاب فيها الوعي او تغيّب، ان حياتي سوف تتغير إلى الأبد هي الأخرى، على شاكلة رجل عظيم في التاريخ، فالمصارع الجبار الذي سوف يخرج مني سوف يجعل حياتي مختلفة عن الماضي.. كم أنا مشتاق لذلك الحدث الكبير..

كان إحساسي في اللحظات الأخيرة يخبرني بتحقيق الانتصار المبكر، يأتي مصحوبا بخوف وهلع مهيب، وكنت اعتقد ان جسدي الصغير وبنيتي الهزيلة سوف تحول دون فوزي على خصمي الذي لم أره بعد لكن عقلي جبار وسوف يحقق المعجزات.. خاصة وأنا أسمع أختي تشجعني على المضي إلى النهاية بروح التفاؤل والشجاعة.. تقول لي:

"المصارعة الحقيقية تقوم على قوة العقل لا قوة البدن"

ولكني هزمت.. هزمت وتدفق الدم مني..

وقلت لنفسي: "كيف فات علي ذلك.. كيف نسيته، كيف خذلني عقلي؟!"

"هل كان لابد لي أن أهزم، وأعيش بقية حياتي صريعاً جثة هامدة!!.."

السد

فوجئ الأهالي بجحافل العاملين وهدير الآليات يهبطون كما الغزاة. فقبل أن تشرق الشمس من الضفة الثانية للنهر، الضفة الشرقية بالطبع، كان العمال الصينيون قد وصلوا إلى القرى المنتشرة على ضفاف النهر. تماماً كما يأجوج ومأجوج، كانوا قد غطوا المكان بأجسادهم الممتلئة القصيرة وقبعاتهم الواقية من حرارة الصيف القاسية في الصحراء الشمالية، وهم في غاية النشاط لبدء العمل فوراً، فلا مجال للتأخير وفق التوجيهات التي تلقوها من مدير المشروع، ذلك الرجل الطويل، صاحب العمامة الكبيرة جداً، والأسنان المدوخة بالتمباك.

هو ليس صينياً، فهو من أبناء البلد، من نفس المنطقة التي سوف يشيد فيها السد الذي قاوم الأهالي فكرته من الأساس، ولكن دون جدوى فها هي الدولة قد مضت في قرارها.

كان (مُرسِي) قد عاد متأخراً من حقله على ضفاف النيل، إلى البيت القائم ما وراء المزارع الممتدة على ضفتي النهر قريباً من الصحراء. ولأنه كان متعباً من سهرة العمل التي امتدت إلى ما قبيل الفجر، فقد أخذه النوم دونما سابق إنذار.

نام على حصيرة مفروشة على الأرض الجافة. حصيرة صنعها بنفسه في سنوات طفولته، بعد أن رتب لها ما شاء من جريد النخل، واستطاع بفراغه من عملها أن يفاخر بها أقرانه من الأهل بأنه يمكن أن يكون في المستقبل القريب أمهر صانع حصائر في عموم القرى الواقعة جنوب أسوان إلى مدينة دنقلا في الجنوب. ما تزال الحصيرة حية، هاهو ينام عليها، لكن ما مات، أو بالأحرى تبدد حلم مرسي، بأن يكون صانع حصائر مميز، مميزة.

في هذه الرقدة التي لن تطول، حيث ستوقظه أصوات المعدات العاوية، سيرى أحلاماً كثيرة، مثلما هي عادته أنه يبدأ في اجترار الأحلام بمجرد أن يدخل غابة النوم. ولكل يوم حلمه الجديد. أحلام مشتقة من استعارات الحياة الممتدة من الطفولة، إلى اللحظة، مع تداخلات لأزمنة غريبة وغامضة، لا يدرك مرسي أي شيء عنها. أزمنة كأنها لا تنتمي لهذا الكوكب المدلس بالخوف والخنوع والعذابات. فتلك هي خلاصة تعريف الشيخ المنهك لشكل الحياة على الأرض، وهي خلاصة لا تخلو من تفسير ذاتي مترتب عن علاقته مع العالم من خلال المكان الذي يعيش فيه منذ سبعين سنة وأكثر من ذلك بعامين أو ثلاثة. فلا دقة ولا تحديد، لأنه عندما جاء إلى الدنيا، لم يسرع به والده إلى مكتب السجلات الحكومية ليستخرج له شهادة ميلاد، مثله مثل مئات وآلاف الذين ولدوا

هنا في تلك السنوات البعيدة، جميعهم لا يعرفون متى ولدوا بالضبط!.

دخل البيت المكون من حوش كبير واسع، ببوابة قديمة من الحديد طليت بالأزرق، ونقشت على جوانبها عبارة (حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً)، تُذكِّره برحلته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة في سنوات شبابه، مع عدد من أهل بلده، بعد عامين فقط من إتمامه نصف دينه، بزواجه من بنت عمه عائشة بنت عثمان.

في هذا اليوم بالتحديد وهو يقرأ العبارة بعينين شبه مغمضتين، أحس بوخز في قلبه، وصوت ما يحدثه من مكان مجهول في جسده، روحه بأن هذه العبارة سوف يتم محوها إلى الأبد. ولن يكون المحو من نصيب العبارة التي تعيده لأيام جميلة قضّاها في رحاب المصطفى حبيبه، فحسب، بل من نصيب هذا البيت بأكمله، فحتماً سوف تنهار الغرف الثلاث التي بناها استعداداً لزواجه، والتي قضى بين ربوعها أحلى سنوات العمر، حيث يظل الأمس في تقديره جميلاً رغم كل الجراحات والأحزان. رغم أنه فقد ثلاثة من أطفاله غرقاً في النهر، ورغم أن عائشة تمردت عليه إلى أن طلقها، فهربت إلى حبيب جديد من أولئك الذين يأتون من بلاد الغربة، يسرقون النساء الجميلات ويهربون.

ورغم أنه فقد أخوته جميعاً وقبل ذلك وهو صبي فقد والده، ولم يبق له في هذا المكان حبيب أو عزيز سوى رائحة الأرض. جنونها وهفواتها. وغبار أمشير الذي يغسل وجهه ساعة يستيقظ على صوت الرياح تضرب النوافذ القديمة في الحجرات الثلاثة، فيجد أن الوحشة تحاصره، والخوف يعبئ قلبه، لكنه ظل شجاعاً لأن قدميه تستطيعان أن تذرعا المسافة الفاصلة ما بين البيت والحقول بكل ثقة، بثبات، وبمحبة.

***

بدأ ذلك الصوت الخفي يزن في أذنيه من الداخل، منذ شهور، لكنه في هذا الفجر كان قد أصبح ضجيجاً مدمراً، قادراً على منعه من النوم، لولا أنه متعب. متعب جداً، فقد بذل نشاطه في متابعة حركة المياه من الترمبات إلى الجداول إلى الأحواض، إلى سنابل الفول المصري والفاصوليا التي نمت للتوّ. ينظر إليها كما لو أنها جنين الأرض، جنينه. ويستعين بمرآها تحت ضوء القمر المنزلق غرباً، على تلمس جرحه الغائر في الحياة. أحزانه. مقترحاً عليها بأن تحنو عليه، حيث لا عاطفة في العالم، ولا أمل. وحيث الناس هنا تعيش على حواف الزمن، لقد كانت للحياة هنا، في الماضي البعيد، اقتراحات مثمرة، حتى لو لم تؤد لهدف، أما اليوم فلا ثمرة ولا حلم يتحقق.

لم يضحك من خيبته كعجوز حالم، ولم يشعر بالندم على التعلق بالدنيا، إلى آخر رمق، لقناعته بأن على الإنسان أن يطاحن ويراهن إلى أن يأتي الأجل المحتوم، إلى أن يبرز ملك الموت فيختطف الروح ويهرب بها إلى السماء، إلى الجحيم أو الفردوس. وبالنسبة له، فالفردوس أقرب من النار، لأنه لم يظلم أحداً، ولم يتعد على حق أحد، ولم يكن ضميره ذات يوم سيء النوايا. أبداً لم يحدث ذلك. هو متأكد من هذا بجدية صارمة مع روحه التي ما تزال معلقة بآمال الشباب، بقدرة فائقة على مزج أحلام المعاش والعالم السفلي بأحلام العالم الآخر، العالم الفوقي حيث الخلود والفرح الأزلي.

قاوم ضجيج الروح، وقلقها بأن نهاية الحياة في هذه الأرض قد دنت. نهاية الحياة هنا، فقط. لأن عمره سيكون طويلاً جداً. ليس لديه أدنى شك، فهاهو بكامل عافيته، وصحته موفورة. وقلبه ينبض بقوة.

***

استلقى على الحصيرة ليدخل عالم الأحلام اللذيذة التي سوف تنسيه أي حسرات أو دموع. وتمنى أن يحلم في هذا الفجر بقوة خارقة توقف ما يردده الناس هنا، أن الصينيين قادمون لبناء السد، لأنه لو صدق ذلك الخبر المزعج، فسوف يكون إجبارياً عليه وعلى جميع الأهالي في القرى الممتدة لمسافة مائة كيلومتر على ضفتي النهر، مغادرة ديارهم فوراً. إلى أين؟.

الله أعلم. ثمة كلام كثير يقال ووعود لا حصر لها. لكن في هذا الزمن الأغبر لا أحد يتحدث صادقاً ولو صدق فأعلم أن لديه مصلحة وراء ذلك.

ولكي ينام بهدوء ويدخل حلمه بالقوة الخارقة التي لم يحدد لها شكلاً، فقد قرر أن يغادر الوساوس، ويدخر خياله لعالمه الثاني داخل النوم. حيث لا عزاء لمثله كما يتصور سوى هذا العالم الغائب الذي تمكن من اكتشافه منذ سنوات، ليعمل به على كسر حدة الحزن والخوف من الغد، لدرجة أن بات يؤمن بشكل قاطع بأن الأحلام هي حقيقة الوجود المنسية. يؤمن بهذا الشيء دون أن يخبر به أي إنسان، حتى لا تتبدد قناعته، فهو يرى أن الإنسان وبمجرد أن يتفوه بالسر، يكون ذلك السر قد مات، بأقاويل الناس وحسدهم وقدراتهم الغريبة على تفتيت اللحظات الجميلة في الحياة.

لكن على ما يبدو أن ما يشعره بالخوف، سوف يقع. فالعادة أن ينام إلى شروق الشمس، ليقوم بعدها من الحصيرة إلى إحدى الغرف، يواصل النوم، إلى العاشرة صباحاً، ثم يصلي الصبح قضاء، فالنائم معذور، ثم إذا كان في الجسد قوة مشى إلى السوق ليسمع فيضاً جديداً من الأحاديث والأخبار حول قصة السد الذي يشغل الناس هذه الأيام، منذ أن وصل المسؤول الحكومي قبل عدة أشهر وأطلق قولته المشهورة: "ستغادرون المكان وإلا غمرناكم بالماء".

الجسد قوي ولذا سيصل السوق. لكن هذا لن يحدث اليوم، لأن هذا الصباح حتماً جاء ليكون مختلفاً، ولأن مرسي سوف توقظه صرخات الأهالي، بكاء الأطفال الممزوج مع أنات المعدات كما تخيلها العجوز باكية، غير راضية عن الجريمة التي تحدث. ولم يكن في حاجة لمن يفسر له أو يشرح ما يدور بالخارج، فحتماً قد وصل الصينيون أو يأجوج ومأجوج كما أطلق الأهالي عليهم قبل مجيئهم، بمجرد أن عرفوا أن سكان ما وراء السد الكبير، سور الصين، هم الذين سوف يأتون لهدم القرى وغمر الحقول بالماء.

نهض مرسي من على الحصيرة، مقاوماً بقايا النعاس. مسح عينيه بطرف ثوبه. في لحظة بدت له كما لو أنها استمرار للحلم الذي كان يراه في نومه، فقد رأى تلك القوة الجبارة، الخارقة التي تخيلها قبل نومه. وكما بدأ التخيل مفتقداً لشكل تلك القوة. انتهى الأمر ما بعد هذه اليقظة المفاجئة إلى ما قبله، فقد تعثر عليه أن يتذكر شكل القوة الخارقة، فقط رآها قادرة على تدمير كل العبث الذي يسود العالم، بما فيه عبث بناء سد سوف تكون نتيجته الحكم عليه بأن يغادر الأرض التي أحبها طوال حياته ورفض أن يغادرها لأي سبب كان. فإذا كانت ثمة أكثر من مليون شخص غادروا المكان لأسباب كثيرة ومنذ عقود، بعضهم إلى العاصمة وبعضهم إلى خارج البلاد، فقد ظل مرسي يقاوم، ويعتقد بأنه لا مكان سوى مسقط الرأس يمنح الإنسان الدفء والمحبة

والحنان، وأن ظلم أولو القربى أخف من ظلم الغرباء الذين يهاجر إليهم الإنسان ليحتمل زلاتهم وعثراتهم وقرفهم.

لم ينتبه كيف مضى الوقت، ولا كيف حملته قدماه ليقف أمام المعدات الهائلة والرجال القصار الذين وقفوا بجوارها يتحدثون مع بعضهم بلغة تشبه وشوشة الأشجار أيام العواصف الترابية. أراد أن يكلمهم لكن لن يفهموا له. وبذل ما بوسعه من استعمال يديه ليشرح لهم مبتغاه، وبعد عنت فهموا أنه يريد مقابلة مدير المشروع فأشاروا إلى بيت صغير محمول على ألواح من الخشب، يدوي منه صوت مكيف هواء. وصله مرسي وطرق الباب بقوة وبغضب، ففتحه ذلك الرجل الطويل، صاحب العمامة الكبيرة جداً، والأسنان المدوخة بالتمباك، بانزعاج وانفعال، قائلاً:

"ماذا هناك أيها العجوز؟"

غضب مرسي بأن يرى نفسه عجوزاً في نظر مدير المشروع، وتحكم في مشاعره، بحكمته في الحياة أن يتريث المرء فهو أن غضب لن يعاند إلا ذاته.

لم يُرد على الرجل الطويل الذي كان يقف أصلع الرأس، دون عمامة بالطبع، حيث قرر إدامة النظر فيه إلى أن يجعله يشعر بالحياء، فيتنازل عن عنجهيته. لكن المدير قليل ذوق، وقليل أدب، فمرسي يعرفه جيداً، منذ أن كان طفلاً يتنطط في أزقة البلد عارياً. لم يكن متفوقاً في تعليمه، ولا جاء أول

المدرسة ذات يوم، لكنه بقدرة قادر وصل إلى الجامعة، وأصبح مهندساً مدنياً. يقولون أنه درس في بلد بعيد، لكن لا أحد يعرف اسم ذلك البلد أو يقدر على تحديد موقعه في الكرة الأرضية. شرقاً كان أم غرباً.

كرر المدير، سؤاله، فاستمر مرسي في تركيز نظره، تماماً في عينين كبيرتين برموش كثيفة فوق أنف مدبب كبير، في وجه طولي بفم غليظ الشفتين. غير أن التركيز لم يُجدِ، فالرجل أسرع لإطلاق مجموعة من الشتائم، الأمر الذي عجّل بالمعركة بين الطرفين، حيث أمسك مرسي بعنق طويلة بقوة خارقة لا يمكن تصورها لعجوز سبعيني، وفي ثوان كان قد أردى بخصمه طريحاً على الأرض يتأوه، وهو يصيح:

"أيها العجوز العفن سوف تدفع ثمن هذا الغباء!"

ضحك مرسي كما لم يضحك من قبل في أي يوم من حياته العريضة، قبل أن يحمل المدير الأصلع من جديد إلى أعلى بطوله الفارع، ويرمي به مجدداً على الأرض، ثم داس عليه بنعليه المحملتين بالطين.

تدخل العمال الصينيون لفض الاشتباك، وحملوا مرسي بعيداً عن مديرهم السوداني، في حين استمر المدير في إطلاق الشتائم، قبل أن يقوم من على الأرض، لينفض ثوبه من آثار الطين الجاف، وهو يلعن اليوم الذي وُلد فيه في أرض أنجبت أمثال هذا العجوز الوقح، فطوال السنوات السابقة لم

يتعرض المهندس سليمان الأزرق لأي (وقاحة) من هذا النوع الجريء، حيث دائماً كانت كلمته الأولى والنهائية، وكان المُطاع الذي لا يُعصى، والذي يخاف الناس منه بمجرد سماع اسمه. لكنه تذكّر مع نفسه، أنه إذا كان خصمك يعرف تاريخك فهي مصيبة. وتذكر أن هؤلاء الذين كانوا لا يتجرأون عليه كانوا في مناطق أخرى بالبلاد، لا تعرف عنه أي شيء، أما هنا فالماضي مكشوف.

على الفور توجه المهندس سليمان إلى نقطة البوليس القائمة في طرف البلد من جهة الشمال، والتي يدخلها لأول مرة في حياته، وقد سبق له أن مرّ من أمامها كثيراً، في أزمنة بعيدة، ساعة كان للشرطة صيت وسمعة طيبة، لكنه لا يهتم بهذا، فما يهمه الآن هو الانتقام من هذا العجوز غريب الأطوار، والذي ربما يكون مجنوناً وهو لا يعلم. لم يكمل الفكرة الأخيرة، ووقف أمام طاولة من الخشب القديم، باهتة الطلاء، يجلس وراءها العريف بابكر الزين، المعروف في عموم المديرية الشمالية لأدواره البطولية في قيادة حملات نارية ضد مهربي السلع من جنوب مصر إلى داخل حدود السودان هرباً من الضرائب والجمارك.

وقف العريف بابكر مستقبلاً المهندس سليمان.. خرج من وراء الطاولة إلى أمامها ليسلم على ضيفه بترحاب شديد المبالغة، وهو يقول:

"خيراً إنشاء الله، عرفنا أنكم وصلتم بالأمس"

لم يدعه سليمان يكمل، قال:

"وصلنا نعم، لكن يبدو أن الجهل ما يزال سيد الحال هنا في هذه الأرض.. والله لولا هذا الغباء والحماقات لعمرت هذه البقعة المباركة"

"مباركة!"، وسوس العريف بابكر لنفسه، ولم يفصح بما أملاه عقله لروحه من سؤال: "ماذا يقصد هذا المهندس الغبي هو الآخر؟!"، لكن المهندس استطرد موضحاً:

"مباركة لأن الله هيأ لها أن تحتضن هذا السد العظيم، وهذا يعني خيراً كبيراً للأجيال القادمة.. صدقني لولا جهودي ومرافعاتي من أجل أهلي أمام الوزراء في الخرطوم، لما كان هذا المشروع هنا، كان سيذهب إلى أي مكان آخر على النيل لينعموا به"

صمت قليلاً، وانفعل قائلاً:

"رغم هذا، فلا أحد يعرف ما نقوم به من خير وفعل طيب، والمسألة باختصار نريد تأميناً لمواقع العمل والعمال الأجانب، فقد تعرضت شخصياً لهجوم من أحد عجائز البلد قبل قليل"

"من هو؟"

في البداية تظاهر بأنه لا يعرف، أو كأنه يتذكر، ثم ردّ:

"هذا المدعو مرسي شيخ الدين"

"ياه.. هذا رجل طيب!"

"طيب!.. لقد حاول خنقي وإزهاق روحي"

"عموماً لا تنشغل بالأمر، القوة التأمينية ستكون معكم خلال نصف ساعة.. وهذا واجب فالناس هنا يا سعادة المهندس متذمرون جداً من قيام السد، ويرفضون مغادرة الأرض.. وبخصوص مرسي فسوف نقبض عليه وسينال عقابه"

فجأة وكما يحدث في مثل هذه الظروف، فقد مثّل المهندس سليمان دور الرجل الشهم، وقال للعريف بابكر وهو يحلف:

"أطلق زوجتي بالثلاثة، لا تسألوه، فعلا هو رجل طيب كما قلت"

ومضى مرسي محمولاً على كتف المهندس.. لا يعرف أحد من الناس كيف حدث ذلك.. لكنهم همساً كانوا يقولون إنها السياسة تفعل ما لا يفعله جن سليمان..

أما مرسي فلم يكن يحفل بأي شيء مطلقاً سوى الاستسلام لقدره وتأمل بقايا بيته الذي ذهب تحت المياه. وهو يهرول وحيداً يصيح رافعاً يديه للسماء:

"أما كان من خيار آخر يا رب العالمين"

الهمبول الثاني

أرواح.. وجماجم

الروح الجديدة

انقضت سنوات عمري في البحث عن كنز قديم، قالت عمتي، أن جديّ دفنه في الفناء الخلفي لبيتنا، قبل شهور قليلة من رحلة غيابه التي لم تنته. كان قد خرج ذات صباح ماطر من مزرعته إلى الصحراء المجاورة لمدينتنا، كما تعود الخروج والعودة، متأملاً في أحوال الذات والعالم. في هذه المرة لم يعد، بل تلاشى في ذرات الرمل. ودائما كنت أعتقد أن جدي حي يرزق، قائم في مكان ما، قريب من هنا، على عتبات قلبي، وحتما سوف يعود في صباح جديد مشرق، كما خرج.

وراء كل خروج في هذه الدنيا، انتظار طويل، وفي تاريخ البشرية، هنالك الكثير من القصص عن شخصيات غادرت ديارها فجأة، دون أن يعلم من حولهم إلى أين ذهبوا.. وهل سيعودون أم لا!

كما أن وراء كل خروج تكمن رغبات مختلفة. هناك من يخرج لأجل أن يحسن من حال معاشه، وهناك من يبحث عن أرض تجعله يشعر بالرضا عن الذات. أما الخروج الذي كان يحلم به جدي فقد تعلق برغبة لازمته منذ طفولته: إثبات أن الإنسان يمكن أن يولد أكثر من مرة في هذه الدنيا.

مع الميلاد الجديد تنسلخ الروح القديمة، ويدخل الإنسان في الثياب التي يرغبها، يعتمد الأمر على نظافة قلبه وهدفه في الحياة.

ونحن نعبر المسافة من بيتنا إلى المقبرة لزيارة الموتى، كما تعودنا في مواسم الأعياد الدينية، قالت عمتي:

"لقد أراد جدك أن يجعل قبره بحجم الكون"

توقفنا عند أحد القبور، قرأنا الفاتحة على أرواح الأموات قبل أن يفرغ المصلون من صلاة العيد.

أدركت أنها تعني أن غياب جدي الطويل والغامض، يعني أنه ببساطة اختار له قبر لا تسعه عقولنا جميعاً.. لم يحكم على نفسه بأن يرقد على هذا الشبر المحدود في اللحد.

***

مضت السنوات.. كنت قد أنفقت جهدا خارقاً، ضاع بلا فائدة. لم يكن هناك كنز، وربما لو كان موجوداً، فهو ليس من نصيبي. كنت أقول ذلك. وأعزي نفسي:

"الحياة نصيب.. أنت لا تأكل غير رزقك"

كأن الأشياء من حولي صرخت بهذه الحكمة، عندما وضعت المعول تحت ضوء القمر، داخل غرفة صغيرة تجاور بيت البهائم. هل كنت ألعن لهثي وراء الفراغ وشهوات الدنيا التي لا تخلص، أن أجد مالا كثيراً، يغير أحوالي مع الأيام؟

فكرت في مصائر الناس في هذه الحياة، كلّ منّا يمشي في طريقه لا ينال إلا قسمته فلو قدر له الله أن يمشي فوق الشوك ويصل سالماً لهدفه، لمشى ووصل.

قطع عليّ التفكير رهقي، ودخلت في حالة كائن يحوم فوق المكان، كأنني طائر فوق أرض محفورة، وكأنّ الكنز تحتي، أحاول أن ألمسه فأعجز. اقترب، يبتعد. ابتعد، يقترب.

استيقظت في الصباح على صوت المعزة في بيتنا. كانت عمتي العجوز قادرة على تدبير شؤون البيت بمحبة كبيرة. رتبت الأرض وأعادت تسويتها، رشت ماء البئر في كل شبر، ثم جلست على حجر صغير أمام إحدى النخلات، تكلم نفسها والأقدار وتكلمني:

"خبأ جدك الكنز حتى لا تشغله الدنيا"

***

لو أسعفت الذاكرة عجوز مثلي، لحكى رحلة الشظف والعناد، حتى استطاع أن يقرر حلمه في الحياة. وقد كان من الصعب عليّ، ما بعد عجزي في الحصول على الكنز، أن استمر في الأحلام، بعد أن قيّدت كل دنياي بالذهب المخبأ في باطن الأرض، دون أن أصل إليه. وزاد من حزني أن الأيام التي جاءت بعد إخفاقي، شهدت مزيداً من الحزن، فقد ماتت عمتي، آخر من تبقى من أفراد عائلتي التي أجهل تاريخها.

***

قبل دخول الخريف حفر جدي حفرة عميقة في ليلة غاب بدرها، ومن صندوق صغير داخل غرفته القائمة في ركن من الحوش، أخرج الكنز، الذي غاب تحت الأرض إلى الأبد، دون أن يعثر عليه أحد. وإلى زمن قريب كان الناس يسمعون القصة مني، فيسارعون لتقليب التراب، علهم يجدون الكنز، فتتغير أحوالهم.

ثم جاء الولي نصر الدين، من جهة ما، يعملها الله، فحدث الناس في نهار تجمعوا فيه بالحوش، وكنت قادرا على تمييز ملامح الانتظار على وجوههم:

"لا كنز في هذا العالم إلا القلب الصادق.. كونوا صادقين تفوزون بالرضا وحبّ الناس"

سمعت سيدة يقارب عمرها عمري، تزحف على ركبتيها، وهي تصرخ مغالطة الولي نصر الدين:

"القلب الصادق لا يجني المال"

نظر إليها الولي بعينين معبأتين بالشفقة، وابتسم ابتسامة صغيرة محفوفة بالحب الكبير للعالم، وقال:

"أيتها العجوز.. لقد تعفن قلبك"

***

وأنا على أعتاب جبل الموت، أتسلقه ببطء، عرفت ما كان يجب عليّ أن أجهله منذ صبايّ، أن الكنز الذي خبأه جدي، ليس ذهباً ولا مالاً، بل قطعة صخر توارثها أجدادي، نُقش عليها خاتم السعادة الأبدية.. السعادة التي قد لا يكون لها أي علاقة بالمال والسلطان.

ما كان لي أن أدرك ذلك، لولا أن قلبي نسي زخرف الدنيا وانشغل بالحياة القادمة، بعد أن لبست روحي الجديدة الطاهرة.

قبل أن يشد الولي نصر الدين، الرحال إلى جهة ثانية في رحلاته المستمرة من بلد لبلد بحثا عن حقائق العالم.. أخبرني وأنا أودعه:

"لقد غاب خاتم السعادة بنقوشه النادرة هنا، تحت هذه الأرض. لقد أراد جدك أن تتعلم أن السعادة يصنعها الإنسان بنفسه ولنفسه، ليكسب الصفاء وراحة البال والضمير"

كنّا جالسين على كثيب رملي، أمام الدار التي شهدت ميلادي، قبل ثمانين خريفاً. وكنت ما أزال قوي البنية، قادراً على تمييز الأشياء من مسافة بعيدة، محتفظاً بسمع مرهف وأيادٍ مشغولة بالثبات، وطوال عمري لم أدخن أو أشرب كأس خمر، رغم أنني لم أكن متديناً إلى المدى البعيد، لكنني كنت أتلمس دربي في الحياة على طريقتي الخاصة، وما بعد إخفاقي في العثور على كنز الجد، فهمت جداً أن حياتي يجب أن

تندفع إلى الأمام، أن أنشد راحتي من خلال راحة ضميري وصدقي تجاه العالم والوجود.

سألني نصر الدين:

"هل تدرك لو أنك حصلت على الكنز، كيف سيكون شكل حياتك؟"

دون أن أفكر وتحت نجوم غائرة في وجه السماء الأسود، أجبت:

"لا"

حرك الولي مسبحته المصنوعة من خشب الأبنوس، ونظر إليّ مخترقاً قلبي بعينيه إلى بؤرة سوداء داخل القلب، لم أقدر على محوها طوال رحلتي في الحياة، وقال:

"إنس الماضي. أنت الآن ترسم دربك نحو أن تكون أنت.. لا غير"

"وهل تستغرق الرحلة كل هذا العمر؟"

"وأكثر.. فقط عليك أن تخلص للقلب"

مع تقدم الليل غادرنا نصر الدين، رافضا تلبية دعوتي بالبقاء معي ضيفاً إلى فجر ليلته الأخيرة في البلد. اتخذ طريقه داخل شوارع وأزقة ضيقة، حتى توارى في الظلام. في حين جرجرت قدميّ المتعبتين إلى داخل الدار.

قبل أن استغرق في النوم العميق، كعادتي، سمعت طرقات على الباب الخشبي الخارجي للبيت. نهضت مسرعاً، وفتحت الباب، لأجد رجلا غريبا ليس من أهل الديار، يقف أمامي. قال لي:

"جدك أرسلني لك.. وهذه وصيته لك.. كنزك"

هل كنت أحلم؟.. أبداً.. فالصندوق الصغير الذي قدمه لي، دون أن ينطق بكلمة، كان تحت سريري في الفجر.

فتحت الصندوق بعد أن صليت، لتبرق عيناي مع لمعان النقوش المذهبة في حجر مكعب مثقوب الجانبين، من أعلى وأسفل، يبدو لونه أقرب للفضة مع نصف الضوء، قبل أن تشرق الشمس.

احترت في أمر جدي، وأمر الرجل الغريب، وقلت لو كان نصرالدين هنا لربما فسّر لي الأمر، لكنه غاب ولم أعد اسمع عنه خبراً. وبدت لي مجريات الأحداث، مثل الخيال أو الحلم، لكنها الحقائق التي بدخولها يدرك المرء أن الحياة أعمق بكثير من إدراك حواسنا.

لدقائق ظللت أتأمل الحجر وأقلبه، علّي أفهم ما يجري حولي، لكنني لم افهم شيئاً. ولم يكن بمقدوري أن استوعب في الحال علاقة حجر منقوش بأسرار الوجود وسعادة الإنسان، وقررت في سري أن جدي ربما أراد أن يعلمني بأن أنقل الوصية لأحفادي، حتى لا يتوهون في رحلة الحياة، وهم

يبحثون عن سعادتهم وتحقيق ملذاتهم الخاصة، وقلت لنفسي أخاطب الجد الغائب:

"لقد تأخرت كثيرا.. كثيرا جداً يا جدي، فأنا لا أحفاد لي"

ثم استدركت بأن الجد الذي يعلم أنني حي، لابد أنه يدرك حقيقة أنني بلا أحفاد.

استغرقت أفكر: "ما الحكمة وراء منالي للكنز وأنا على بوابة الموت، بعد أن انتهى كل شيء، ومات كل أمل، وبعد أن أنفقت شبابي بحثاً تحت الأرض التي كنت أظن أن الكنز مدفونا فيها".

تذكرت كم من البشر حفروا وحفروا في فناء الدار آملين في العثور على الكنز، لكنهم لم ينجحوا، وحدثت نفسي مرة أخرى: "لقد أختار الجد حفيده العجوز ليأخذ الكنز ويدفنه معه في قبره، فلا وريث في العائلة".

وجاءني خاطر يقول: "لكي يتم ذلك يجب ألا يدرك أحد من العالمين بخبر الكنز".

لكن جرت الأحوال على عكس توقعاتي وخطتي، ففي الصباح كان الجميع قد أدركوا أن الكنز معي. وكيف أدركوا ذلك! لم اجتهد كثيراً في معرفة السبب، لأن الذين فكروا في الكنز من قبل وتعبوا من أجله يحفرون الأرض، ناموا ليلتهم بعد أن ودّع كل واحد منهم نصر الدين، وحدثه الولي بسر يجب - حسب الوصية - ألا يقال لأحد:

"الكنز سيكون في الصباح مع الحفيد العجوز"

وحيث لا أسرار في العالم، جاء الصباح فعرفت البلد كلها بالخبر، والجميع يردد:

"احترت في شأن نصر الدين، الذي كنت أظنه يحدثني بسر، فإذا بسره ملك لكل الناس مع مطلع الشمس"

حروب الفكي "ذاتو"

انتهت الحرب، قام الفكي (ذاتو) – من ذات وقد سمى نفسه بهذا الاسم تمجيداً - وهو يلملم ما تبقى من أشلاء جسده المتناثر، ليبنيه من جديد، بل بصورة أفضل وأقوى مما كان.

كيف فعل ذلك؟.

لا يملك إجابة محددة. ولا يستطيع أن يعود بذاكرته إلى لحظة معينة جعلته يرى نفسه ميتاً، ميت قادر على مراقبة ما جرى بتفاصيل مملة: الجنود الذين قبضوا عليه، بعد أن أصابوه برصاصتين في ساقه الأيمن، تركوه ليومين ينزف دماً، وبعد ذلك قرروا قتله بناء على أوامر القائد.

قتلوه، ولم يدفنوه، فقد هجمت الجنود من الطرف الآخر الذي ينتمي له (ذاتو)، بل يقود جيشه، لتقضي على الأعداء. أبادتهم وفرت بسرعة لأن الغنائم يجب أن تقتسم قبل حلول الفجر، حيث لا أحد يملك متسعاً من الصدر للصبر، وحيث الحياة يجب أن تمضي من أجل جني المزيد من المال.

بقيت الجثة في مكانها أكثر من ثلاثة أشهر، تشرق الشمس عليها وتغرب. كانت كلاب ضالة قد أكلت جزءاً من الرأس، وقطط نهشت الكبد والطوحال. وجزارون سفلة أخذوا اللحم حول العظام العريضة، كعظام الكتف، ليبيعوها للبشر على أنها لحم ضأن مستورد من بلاد بعيدة، وباعوه بالفعل في متاجر المدينة المجاورة للموقع الذي شهد المعركة بين جيش الغرباء، والجيش الذي قاده (ذاتو) لتحرير الأرض.

قاد الفكي حرباً طويلة الأجل، لم يكن أحد يحلم، أنها سوف تخلص/ تنتهي ذات يوم، ليرسمُ فجرٌ جديدٌ من التسويات المُرضية. فالانتصار الذي حققه أعوان الفكي كان مؤقتاً لأن جيش الغرباء هبّ من جديد، وبقوة ضرب نارية، وكانت النتيجة أن قرر الطرفان إعلان الهدنة ومن ثم الجلوس، فالوصول لحل، يقضي بتقسيم الأرض بين الطرفين. شمال المدينة للغرباء، وجنوبها لأهل الأرض، وتقاسم موارد الرزق والماء والكلأ والنار.

مثل هذه الحروب، كانت تحدث كثيراً في الماضي، الله أعلم كم كانت تستغرق حتى تنتهي، وغالباً ما تنتهي بالطريقة ذاتها التي انتهت بها الحرب الأخيرة: هزيمة جيش الغرباء، ومن ثم هبّة الغرباء واستنفارهم بقوة، فالتسوية.

لكن الوضع لا يستمر، لأنه ما أن يدور الزمن مجرد سنوات لا تتعدى الخمس أو العشر على الأكثر، حتى يدور التاريخ، مع تعديلات طفيفة، حيث يتغير من يقود الغرباء، وبالطبع من يقود أهل الأرض.

يسمون أنفسهم أهل الأرض، لأنها ملك لهم منذ قرون طويلة، فهم لا يعرفون أرضاً غيرها، أما الغرباء الذين التي كانوا يبسطون نفوذهم على أراضي أخرى، من ضمنها هذه الأرض، فلا أحد يعرف شأنهم، خبرهم؛ يقال أنهم يسكنون في مكان قريب من هنا، لكن لا أحد من (أهل الأرض) أو أتباع (ذاتو) وصلوا إلى هذا المكان، الذي ظل لغزاً على مدار التاريخ. لغز بإمكانهم فكّ عقدته، لكنهم لم يجربوا، فقد كانت شجاعتهم قصيرة الأجل، لا تتعدى الحفاظ على الأرض المتوارثة، التي باعوا نصفها للغريب! لأن الحيلة قاصرة.

***

"في الحرب الأخيرة، مات القائد".. كان هذا محور الحديث في المدينة، عاصمة أهل الأرض، والتي حملت أكثر من اسم، فكل قائد جديد كان يغيّر الاسم. شهوة لابد منها يعلن من

خلالها سطوته، رغباته المكبوتة منذ الطفولة. لو عددنا الأسماء لعبأت صفحات كثيرة، دون أن نصل إلى الحكاية.

سنكتفي بالاسم الأخير. (زرقاء). أطلقه الفكي ذاتو على العاصمة، في إشارة إلى لون البشرة، التي هي أساساً سمراء حنطية أو سوداء بالأحرى، لكن ذاتو استلطف أن يقال أن لونهم أزرق.

لكن هذا الاسم ذاته، يجري الآن النظر بشأنه، لأن ثمة قائد جديد سيتولى الحكم، أو تولاه فعلاً، فهاهو قد خرج من المعبد الكبير سائراً بوقار مفتعل وخشية من أتباعه بعد اختياره في اجتماع سري للغاية، تمّ بإشراف الكاهن الكبير للمعبد، الذي لا تتجزأ كلمته إلى كلمتين.

هناك طقوس لاختيار الحاكم الجديد، هي طقوس متوارثة، والتوارث لا يعني أن الحكم كان متوارثاً. فقد كان الحاكم يُختار بعد نهاية كل حرب وموت القائد، ليكون اختياره مفاجأة للجميع. وإلا فمن يتوقع قبل عشر سنوات أن (الفكي ذاتو) سيكون الرجل الأول في المدينة، السيد الأوحد لأهل الأرض؟

ومن كان يتوقع أن يكون (سرور) حاكماً، وهو الرجل الذي حكم قبل (ذاتو) وهو إنسان لا يملك أي قيمة بمعنى الكلمة سوى أنه محظوظ..

وهكذا تمضي الأسئلة بشأن الحكام، وحده الكاهن الأكبر يدرك السر، ذلك العجوز المشحون بشباب جمّ، والذي لا يقدر أحد على تحديد عمره، يقال أنه وُجِد هنا منذ الأزل، منذ أن كان النهر الذي تعيش المدينة على ضفافه، ويقال أنه كان قبل النهر. والبعض يصدق ذلك وأكثرهم يصدقون.

إنه رجل غريب الأطوار، لأن خبراته في العالم قديمة، ومعارفه غريبة، وطقوسه نادرة المثال، كل شيء ممكن وغير ممكن بشأنه، لكن لا أحد يتعلم منه شيئاً.

***

بارك الكاهن الكبير، الحاكم الجديد، ودعاه لاختيار اسماً جديداً للمدينة.

فكّر الحاكم، قليلاً جداً فكّر، وردّ على الكاهن:

"زرقاء"..

قالها هكذا دون أن يُبدي أي مشاعر أو يحرك جفني عينيه الصغيرتين. دون أن يخاف من اختيار ذات الاسم الذي كان من ذي قبل، ودون أن يفكر في العواقب أو يتأكد ممّا سيترتب على هذا الاختيار السيئ. وكانت تلك هي أول مرة يحدث فيها أن يتكرر الاسم. هذا لو سمح الكاهن بذلك، فالقرار الأخير له.

عادة يتم الاختيار في احتفال عام، يحضره شعب المدينة، الذين لا يتجاوز عددهم عشرة آلاف. كل شيء يكون مكشوفاً. يقف الحاكم الجديد، في البداية يهمس بالاسم للكاهن، ومن ثم ينطق به بصوت عالٍ جداً، يصرخ.

فهل سيسمع الشعب صرخة تجلجل في المكان، تنادي "زرقاء"؟!..

كان السؤال يدور بذهن الحاكم الشاب، ومعه ولجزء من الدقيقة شعر بالخوف يسري في خلايا جسده الممتلئ صحة وعافية. بدأت اليدان في الارتجاف فالساقان، فالرأس، في انتظار ما سيكون من ردة فعل الكاهن الكبير.

ما حدث أن الأمور جرت بهدوء، فالكاهن نظر إلى الحاكم قائلاً بإشارة من عينيه فقط:

"أصرخ.. قل زرقاء"..

وصرخ..

"زرقاء.. زرقاء.. زرقاءءءءء..".

في اللحظة التي عبأ فيها الاستغراب عيون شعب زرقاء، من اختيار الاسم ذاته.. سمع الجميع صوت ينطلق من السماء، صوت قوي لا يشبه ارتطام سحابة بسحابة، ليكون رعداً، ولا بركان قوي يتفجر من الجبل الساكن وراء المدينة.

ذلك الصوت جعلهم يرتجفون جميعاً، والبعض ظنّ أن (الغرباء) قد عادوا من جديد، لم ينتظروا هذه المرة عشر سنوات لتكون حرباً أخرى. وما عقّد المشاعر أن الصوت جاء مصحوباً بضوء قوي، باهر، أقوى من نور الشمس في ذلك النهار الصيفي الحار، لكأنما شمس ثانية ولدت للتوّ.

"قفوا"..

سمعوا من ينادي بعد نهاية الصوت، وخفوض الضوء القوي، فالتفتوا إلى جهة الغرب، فإذا برجل يمشي بهدوء، يطيّرُ من على البعد، من محجري عينيه ناراً، كانت قد بدأت في التراجع لتندس في المحجرين، ويبدو أنها هي التي عبأت السماء بالنور الباهر.

أما الصوت القوي فممّا لا شك فيه أنه صوته، ذلك القادم كالوحش، بُنية جبارة، جسد صلب، أطراف ممتدة رهيبة المنظر. مشهد مخيف، لا يملك أي شجاع أن يكرر النظر إليه أكثر من مرة، ربما إلا الكاهن الكبير، الذي استجمع خبراته القديمة ليفهم ما يحدث، ففي ذاكرته قبل عقود عديدة يعلم عددها (هو) وحده، كان قد حدث مثل هذا الشيء.

لا يمكن تصديق أن الكائن حضر ذلك اليوم القديم في التاريخ، ويمكن فهم أنه مستوعب لكل ما جرى في سالف الأزمان بشكل جيد ويستخدمه لصالحه الذي هو الصالح

العام بعرف الناس هنا. لكن هذا اليوم سيكون مختلفاً فالهلع سيطر على الكاهن والعرق تحدر من كل مسامات جلده.

***

قبل سنين بعيدة، كان هناك ملك عظيم يحكم هذه الأرض، حكم عشر سنوات، ثم جاءت الحرب، عندما دخل الغرباء المدينة لأول مرة، وعاثوا فيها فساداً، وكان أن لقي الملك مقتله على يد جنود الغرباء، وحدث معه ذات ما حدث مع الفكي (ذاتو)، فقد تشتت جسده، تناثر، وأكلت الكلاب ما أكلت، والقطط، وباع الجزارون ما باعوا. كل شيء يتكرر بطريقة سمجة ومملة. ثم لسبب مجهول، كان أن رأى نفسه تلملم الجسد تعيد بناؤه، ليكون حياً من جديد، ليعود إلى الوجود بقوة خارقة ومعرفة جبارة، وسطوة لا تضاهى. لكن عودته كانت تعني أنه لن يكون ملكاً. فقط سيصبح كاهناً مكلفاً باختيار الملوك، وهذا أخطر شيء.

تلك قصة طويلة، أسرارها قابعة في ذهن الكاهن، لذا ليس بمقدور أي فرد من الشعب أن يفهم، فأكبر سكان "زرقاء" سناً والذي تعدى المائة عام بعشرين سنة، لا يملك من الخبرات ما يكفي ليفك لغز تلك الوقائع الغابرة. فمن أين يعلم، والمعرفة مكتنزة في ذهن الكاهن، لا يطلع عليها أحد، وليس بإمكانه أن يفعل.

لكن قد دنت النهاية. فعندما يتكرر التاريخ بحذافيره يصبح الخوف هو المهيمن.. وشعر الكاهن بالرجفة أن عهده قد انتهى، فهذا القادم الآن يبدو أقوى، يبدو وحشاً حقيقاً، يبدو عالماً بالأسرار الخالدة.

بات الكاهن يوسوس لنفسه بذلك، وقد بدأ يشعر بالخوف مثله من سائر الشعب المرتعب لعودة رجل ميت، خوف جعله يحس كما لو أنه ذبابة أمام تلك القوة القادمة، الهادرة، حيث لا سبيل لمقاومتها ولا صدّها.

ما أن وقف الفكي ذاتو، أمام الكاهن، كان الشعب قد فرّ، فالناس غادرت إلى بيوتها تمارس حيل الاندساس من ذلك الوحش، والحاكم الجديد اختفى داخل القصر بجوار النهر، كيف قطع المسافة، وهي ليست بالقصيرة، لم يكن يعلم، ولم يسأل نفسه.. فالخوف كفيل بمحو الزمن وسحق السؤال سحقاً.

فقط الكاهن هو من بقي، رغم الرعب الذي سرى فيه، بقي للمواجهة ولكي يناضل حتى اللحظة الأخيرة، فربما يتغير درس التاريخ. وكلم نفسه بأن عليه ألا يخذل روحه، عليه أن يقاتل إلى آخر رمق حتى يغير النواميس بإصراره.

***

قال الفكي ذاتو للكاهن الكبير، وهو غير مدرك لمنبع أفكاره وكلامه، فقد كان يتحدث دون أن يفكّر:

"لقد جاءت نهايتك.. آن أوان المبارزة بيننا.."

ولم يدخر الفكي وقتاً حيث أخرج من جرابه سيفاً طويلاً، أمسكه بيده اليسرى، وباليد اليمنى كان قد أخرج السيف الثاني، بذات الطول والمتانة، وقدمه للكاهن قائلاً:

"تفضل، هيا أرني قوتك أيها الجبان"

لم تمض سوى دقائق معدودات، حتى انهار عزم الكاهن ساقطاً على الأرض، مضرجاً بدمه، عيناه مفتوحتان معلقتان على آخر مشهد رآه في حياته الطويلة جداً، جداً.. صورة رجل جبار، فارع الطول، جسده لا ينهدّ بضربات السيف، كأنه من الصخر، وليس من لحم ودمّ.

رمى الفكي ذاتو بالسيف، وصرخ منادياً أهل زرقاء، فخرجوا من مخابئهم غير قادرين على رؤية مشهد الدمّ الذي فاض سيلاً متدفقاً إلى النهر، حيث اختلط الماء بالدمّ الفوّار الأسود، ولم يكونوا قادرين على النظر إلى وجه ذلك القاهر الذي جعل حياتهم ومنذ هذه الوهلة تتحول إلى استفهام كبير.

في الماضي كانت ثمة ألغاز وأسئلة، وكان الكاهن يمتلك القدرة على إقناع الناس بأن السؤال لا يوصل إلى علم بل يربك المعرفة، وبالتالي استكان الأغلبية من عاشقي التفكير، وتعودوا على الصمت.. والآن هم في حيرة لما حدث:

"كيف عاد هذا المُصرّم إلى الحياة من جديد؟"

قبل أن يسألوا كيف أصبح جسده قوي كالحجر، وكيف استطال، وكيف أصبحت نظراته نارية، وصوته مجلجل كالرعد؟

الواقع أن الفكي ذاتو مثله مثل الكاهن الكبير، لا يدري من أين جاءت تلك القوى السحرية التي ردت له الروح، وأعادته للحياة على هذه الهيئة القوية، هذا الجسد الصلب، والروح القادرة على اختراق جدر النفوس وسماع ما تتقوّل به.

لكن عليه ألا يستعجل ويفخر بذاته الجديدة، لأن المهارة الأخيرة المرتبطة بسماع ما يدور بالقلوب، سرعان ما سيفقدها بعد أن يمتلكه الغرور، ولهذا سوف يستوعب الدرس، حتى لا يفقد جسده الذي لا يمكن اختراقه بأي آلة حادة. فقد سمع نداء روحه الخفي يحدّثه:

"إياك والغرور.. تعلم كيف كان يعيش الكاهن الكبير، وكيف عاش سنيناً طويلة دون أن يمسه بشر، لأنه ببساطة لم يكن مغروراً.. الغرور هو الآفة التي تهلك الإنسان، وأمام القوى التي وهبتك التميّز يجب أن تكون شجاعاً بأن تكون متواضعاً"

***

عاد الفكي ذاتو ليكون كل شيء في المدينة، الحاكم ورجل الدين الأول، حارس المعبد، لكن ما كان يزعجه أن السنوات

سوف تمضي؛ سرعان ما ستكتمل عشر سنوات ليعود الغرباء ويبدؤون الحرب من جديد، هذا الحدث الذي لا مناص منه. وهنا مكمن الخوف والخطر.. سوء المآلات والنهاية المحتومة.

هاهم الغرباء الآن جالسون في الجزء الشمالي من المدينة، ولكن حتماً ساعة يحين الموعد سوف يخرجون إلى الجزء الجنوبي، وسوف تعلن الحرب، تدق طبولها، ويسيل الدم، ويموت الحاكم، ليأتي حاكم جديد.

وكلم نفسه:

"يا ليتك كنت كاهناً فحسب. فالكاهن يعيش طويلاً.. ولئن عدت مرة من الموت فقد لا تعود مرة أخرى"

وسريعا فكّر أنه يجب اتخاذ خطوة مهمة، وبالفعل قام الفكي بإذاعة نبأ هام لشعبه، يخبرهم فيه بأنه سيعين حاكماً على البلاد، وهذا يعني أن مهمة الفكي ذاتو ستقتصر على وظيفة الكاهن الكبير.

اتخذ القرار، بناء على ما رأى، وما تعلم، من تجربة الكاهن الذي ولى، لكنه كان غير واثق هل ستسير الأمور بناء على توقعاته أم لا؟، فربما يحدث ما لم يكن في الحسبان، ربما يتمرّد الحاكم عليه ويزيحه من الوظيفة، يرمي به بعيداً، ساعتها لن يفيده بناؤه القوي ولا جسده الفارع الطول، ولا نظراته النارية، ولا صوته المجلجل، فالذي يمتلك السلطة

قادر على فعل كل شيء، وهذا يعني أن الدائرة سوف تدور عليه.

كان الأمر ملتبساً، لكن النبأ سرى في المدينة، وأصبح تعيين الحاكم قاب قوسين. بإمكان الفكي أن يتراجع عن القرار، غير أن النداء الخفي ذاته، الذي منعه من ممارسة الغرور مارس دوره ليمنعه هذه المرة من التراجع، أكد له:

"خلودك مرهون بسلطتك الإلهية وليس بسلطتك السياسية، فالحاكم لن يكون خالداً.. لا تخف ما حدث معك لن يتكرر، إلا بعد سنين طويلة، ساعة تحين الساعة المعينة، ووقتذاك سوف تكون قد مللت وشبعت من الحياة"..

وكرر الصوت:

"لا تخف.. لا تخف".

استجاب الفكي لذلك الصوت الذي لا يعرف مصدره، لم يكن مقتنعاً بأن عقله هو الذي يفكّر، لأنه لو كان عقله، لما كان قد حسم الأمر بهذا الشكل. وظلّ يستفسر روحه، عن ذلك الشيء الغامض الذي يحدّثه:

"من تكون أنت.. أخبرني؟"

ولكن دون أن يصل لإجابة.

لم يكن يسمع سوى صوته يردد صداه في باطنه. وقد فرّق بشكل واضح بين طريقته في التفكير ساعة كان حاكماً في المرة

الأولى، والآن. في المرة الأولى كانت قراراته تتخذ بناء على تفكير عميق، حوار مع الذات، وكان يجزم بأنه هو الذي يصنع القرار النهائي، أما الآن فلا.. ثمة أمر غريب، يحرّكه. لم يكن ممكناً له تلمسه، أو تحديد موقعه. شيء يسري في الباطن ليكون كأنه جزء من دماغ الإنسان، بيد أنه ليس دماغه.

***

بعد أن أصبح قرار تعيين الحاكم الجديد حديث الشعب، كان أن جلس الفكي في المعبد، تاركاً فراغاً دستورياً في البلد، لساعات الليل. وهو على أية حال فراغ شكلي، لأن الجميع نائمون، وبمجرد استيقاظهم سيعبأ الفراغ، باختيار الحاكم المرتقب. والذي لا يعرف أي من السكان، من سيكون؟

نام السكان، كل منهم يحلم بأن يكون صاحب الحظ السعيد، فيما انتبه بعض الناس بعد أن شرعوا في الحلم، إلى أنه بمجرد أن يصبح حاكماً، فهذا يعني أن تاريخ موته قد اقترب، لن يعيش سوى سنين معدودة جدا، لأن الغرباء قادمون، قادمون لا ريب. ولكن زمرة أخرى من البشر كانوا يحلمون بمنصب الحاكم ويقنعون أنفسهم بأن ما حدث مع الفكي ذاتو قد يتكرر معهم، حيث أنهم حتى لو ماتوا، ربما سينعمون بالحياة مرة ثانية.

إلى أن دخل الفكي المعبد، لم يكن يعلم الكيفية التي سيختار بها الحاكم، فذلك إرث لا علم له به، ولم تنبهه تلك القوى الخفية التي باتت يؤمن بها، إلى كيفية الاختيار.

سار في ردهات المعبد السرية، متنقلاً من صالة إلى أخرى، ومن بهو إلى بهو، ومن فناء إلى فناء، يديم الفكر محاولاً حل الإشكال الذي وقع فيه، لدرجة أنه قرر التراجع عمّا أعلنه، لكن لا رجعة فالصوت الخفي كان يعلو في هذه اللحظات ليصرخ فيه:

"لا.. لا مجال للعودة إلى الوراء، على الزمن أن يمضي إلى الأمام دائماً"

في تلك اللحظات قريباً من النهر، قريباً من الصحراء. بالتحديد على الجانب المجاور للمعبد من النهر المندفع للشمال، كانت أصوات الجيوش وجيادهم قد هزت أرض "زرقاء".. وكان الفكي لا يعرف ما الذي يحدث.. كان سقف المعبد ينهار من فوقه وهو لا يجد فرصة للهروب، وسط المديات والسيوف التي قطعته إرباً.

الخلجان والبحار والمحيطات تحتل ثلثي عالمنا.. إنها عالم غامض ومليئ بالإثارة.. نطلق له عنان خيالنا، ولكن مهما بلغ بنا الخيال فلن نقدر على تصور الواقع.. لأنه شيء آخر مختلف تماما.. قد تكون حكايتي أنا "محمد علي يارو" ذات علاقة بهذه الرغبة الدفينة في اختراق هذا العالم الخيالي والدخول إليه، وقد يكون السبب مختلفا، يتعلق بفقري وخوفي من المستقبل فقد نشأت طفلاً يتيماً مات والدي في الحروب الأهلية التي قتلت الآلاف من أبناء بلدي.. حروب بلا نهاية وبلا هوادة.. أغلب ضحاياها أطفال كانوا في عمري يوم قررت الخروج مع عمي إلى سواحل الخليج المجاور لبلدتنا، وقتها لم أكن أفهم مقصدي ولا الهدف، فقط سمعته يقول لأمي:

"سنأخذه إلى مكان آمن وسيعود إليك بالمال الوفير"

لم تكن والدتي لتعترض لأن حكم الرجال فيصل ونهائي.. ولكن لسبب آخر أنها كانت تحب المال حباً جماً.. تحبه ككل النساء الفقيرات أمثالها اللائي يحلمن بحياة جديدة ذات يوم تتغير فيها أوضاعهن المأساوية.. لكن في بلد كله دماء ودمار لا يمكن لمثل هذه الأحلام أن تجد طريقها إلى التحقق أبداً.. ستظل أحلاماً فحسب..

ردت على عمي حسين يارو:

"خذه فمن غيرك سيهتم به إن كانت والده قد غاب عنا"

كان والدي علي يارو قد مات، بالأحرى قتل، وأنا بين الرابعة والخامسة من عمري، يمكنني أن أتذكره حتى لو كانت ذكرياتي تأتي كشريط متقطع ليس فيها قصص متصلة.. هو أشبه بقصة مصورة في فيلم اجتزأت الكثير من أجزائها ولم تبق سوى أجزاء في البداية والوسط والنهاية..

قبل أن تأتي النهاية يمكنني أن أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي وصلت فيه فرقة من الشباب الملثمين على سيارة دفع رباعي مرتفعة عن الأرض بشكل يثير الدهشة، وقاموا بحمل والدي عنوة، قاومهم دون أن يصرخ.. ولم يفلح.. فقد كانوا مسلحين في حين كان هو بلا سلاح.. فقط اعتمد على يديه القويتين فقد كان مصارعا جباراً.. انتهى المشهد المؤلم العالق بذاكرتي بأن رفعوه في السيارة السوداء وهم يهللون ويكبرون واختفوا وراء الأفق.. ولم نستيقظ إلا بعد عدة أيام لنرى جثته مرمية أمام بيتنا، كان وجهه طرياً وعيناه شبه مفتوحتين وسمرة جلده لم تتغير كثيرا بل زادت بهاء وإشراقاً.. قال عمي بحزم وهو يأمر الرجال في القرية بالتحضير للدفن:

"هو الآن في الجنة.. لا تكثروا النظر إليه.. هيا لنكرمه، فإكرام الميت في دفنه"

أتذكر جيداً.. أنه كان يرتدي الثياب نفسها التي خرج بها، جلباب رمادي اللون وطاقية مزخرفة بالأخضر والأحمر كانت

قد غابت.. يبدو أنهم أخذوها، فقد كانت من النوع النادر، اشتراها والدي كما يقول عمي من نيروبي قبل عدة سنوات ساعة ذهب إلى هناك في رحلة كان كثيراً ما يحكي لنا عنها.. هذا بشهادة أمي التي ومنذ أن فقدت أبي كانت تعيش في حالة قلق دائم وخوف على مصير ابنها الوحيد.. كيف ستكون قادرة على جعله يعيش حياة كريمة في بلد صار العيش الكريم فيه أمرا معقدا بكل المقاييس؟!

***

أخبر عمي والدتي أن مستقبلي سيكون مضموناً ولم يتكلم أكثر من ذلك.. لم يقدم لها ضمانات ولا شرح مطول لطبيعة عملي المقبل ولا كيف سنجني الأموال، ولم يركز على قضايا كثيراً ما يثيرها الناس كالحرام والحلال، "هذا يكسب رزقه من عرق بدنه ويديه بحلال طيب فيصون الله نعمته، وذاك يأكل من الحرام لهذا سرعان ما يبلى ما عنده ويذهب سريعا كما جاء".

لا أدري إن كانت أمي مطمئنة لعمي كما يبدو من كلامها وإيماءتها وتعابير وجهها أم لا، ولم أفكر في هذا الأمر كثيراً، كنت إلى حد بعيد مشغولاً بكوني أصبحت رجلاً الآن يمكن الاعتماد عليه، فمجرد أن يفكر عمي في أن يأخذني معه إلى عمق البحر فهذا يعني أنني قادر على فعل شيء مفيد، والإشارة الجلية على أنني كبرت أن هذا لم يحدث من قبل، كما أن عمي قال لأمي:

"هو الآن يعرف مصلحته جيدا.. فلا تخافي عليه"

كررت أمي ما أشار إلى ثقتها بعمي، كررته قولاً.. مذكرة بأن العم والوالد خرجا من رحم واحد وأن الدم لا يمكن أن يذهب هدراً..

كانت تتحدث بما يمكن أن يقوله أي إنسان في القرية.. لكن إلى أي حد يكون ذلك واقعيا، لم يكن لدي تصور في تلك الفترة المبكرة من حياتي.. الآن فسوف استطيع أن أقرر بعد ان اختبرت الحياة نوعا ما..

لن أقول إنني فهمتها كما ينبغي.. فأن تفهم الحياة هذا مستحيل.. لا أحد حتى لو عاش إلى الأبد يفهم كل ما يدور حوله، فالعالم معقد جدا.. هذه العبارة الأخيرة بالذات كنت أسمعها من عمي كثيراً. ونحن نتخذ طريقنا إلى الرجل الذي يسمونه الزعيم.. والذي أخبرني عمي أنه سيكون عبره الفرج والطريق إلى تحقيق أحلام والدتي بأن أكون غنياً وصاحب أموال كثيرة جداً.

***

أنا الآن في حدود الثالثة عشر وربما الرابعة عشر من عمري، وهذا يعني أنني ناضج نوعا ما.. أو هكذا كنت أتخيل.. وفي تلك الفترة يخال لي أيضا أنني بدأت أفهم في أمور الدنيا والصراعات والحروب والمال.. ذلك الأمر الساحر والغريب والذي قال عمي أنه سبب كل المصائب التي تحيط ببلادنا..

واستطيع أن أقول إنني في تلك الأيام كنت قد بدأت أفهم أيضا لماذا قتلوا والدي.. ذلك الأمر الذي كان بالنسبة لي غامضاً وغريباً في البداية، ساعة رأيت ما رأيت وقتذاك..

عندها أخذوني سريعاً ودسوني في غرفة قصية من البيت خشية أن أصاب بمكروه ما وأنا أرى جثة والدي. كان العالم بالنسبة لي مثل أحجية أو قصة صعبة التفسير، حكاية قد يكون الاستئناس بها ممكناً، لكنها مؤلمة متى ما انتهت. خاصة أن بكاء أمي كان يؤلمني، لم أرها تبكي مثلما بكت في ذلك اليوم، وهي تمسك بي وتجرني وراءها وتصرخ وتولول بطريقة بدت لي غير مفهومة، لم يكن في إمكاني أن أفهم ما هو الموت؟ وما هي الحياة في المقابل؟ ولماذا يحدث ذلك؟

***

لم أكن أعلم أن عمي نفسه لم ير الزعيم من قبل، وأنه مثلي تماما وربما مثل أمي يحلم بأن يمتلك مالاً وفيراً، لم يكن له أولاد ولا أدري إن كانت له أحلام في الحياة أم لا، فهو رجل بسيط للحد البعيد هذا يبدو من أول وهلة غير أن رحلتنا سويا في وسط الخليج والبحار جعلتنا نكتشف بعضنا بطريقة أفضل، وعرفتني أن عمي ليس بسيطا كما أتصور.. هو رجل مهذب ومتواضع ويحب الخير للناس.. لكن هذا لا يمنعه في أحيان كثيرة أن يتحول إلى كائن آخر شرس، خاصة إذا ما أحس بخطر يحدق به، ومعه استطعت أن أرى صورة

لوالدي الذي لم أتعرف عليه بالشكل الواضح، وكنت اعتمد على مقولة لأمي وأقاربي أن عمي ووالدي يتشابهان كثيرا. ربما كان الاختلاف الوحيد بينهما هو ميول والدي السياسية التي دفع حياته ثمنا لها. فقد كانت جماعات الجيش المعارض تنسبه للحكومة الموقتة التي تحكم إقليمنا ذا الاستقلال الذاتي عن البلد الكبير، في حين أن الرجال الذين كانوا في السلطة كانوا يعتبرونه معارضاً. السبب أنه كان يجهر بالحق أمام الكل.

في الواقع كان والدي كما أخبرني عمي يميل إلى رجال المعارضة الذين راح ضحية لهم، هذا الميول يرجع ببساطة إلى تدينه، فهو يحرص على الصلاة في المسجد حيث يذهب باكراً ليؤدي الصلوات الخمس، وكان أحيانا يؤم المصلين، وفي بعض الجمعات كان يخطب في الناس. لا أعرف إن كانت له قدرات حقيقية في الخطابة وإجادة اللغة العربية التي كانت لغة المنبر، وهي بخلاف اللغة المحلية التي نتكلم بها. ولم أكن لأتذكر الكثير عن أمور لم أكن أدركها جيداً وقتها.

كان الطريق إلى الزعيم محفوفا بالمخاطر، فقد أخبرونا بذلك.. والضمير هنا يرجع إليهم، هؤلاء الشباب الذين كانوا مختلفين عن كل الناس الذين رأيتهم في القرية، فهم يبدون أكثر راحة ودعة ويلبسون ملابس غالية الثمن يتضح ذلك من قماشها وبريقها الزاهي، وكان بعضهم يعلق أقراطاً في أذنيه أو يلبس سلسلاً ذهبياً ملوناً في أطرافه، وفي الغالب لكل منهم

سيارة قوية ذات دفع رباعي، بدت لي هذه السيارات إشارة غير موفقة للقادم من الأيام، لأنها ذكرتني بذلك الحدث الحزين، يوم خطف المسلحون والدي وهربوا به إلى مكان مجهول إلى أن جرى ما جرى.

كان كل من الشباب الذين نلتقي بهم يرشدنا إلى آخر في سلسلة من الإرشادات واللقاءات التي ظننت أنها لن تنته، وقد أخبرني عمي بأن أصبر لأنه في النهاية سوف يحدث الأمر العظيم وسوف يكون لنا مالاً مثلهم تماما. ولم أسال عمي عن طبيعة عملهم، وهل هو حلال أم حرام فهذه القضية تشغلني أحيانا.. أنا لا أفكر فيها كثيراً.. وإنما أتذكر أن أهلنا يقولون إنه لا أحد في هذا البلد معه مال كثير أو يبدو عليه أثر النعمة إلا وراءه مفسدة، يأكل أموال الناس بالباطل.

***

أخيرا وصلنا إلى بيت فخم له بوابة مصنوعة من الخشب القوي المستجلب من الغابات البعيدة، كانت تلك البوابة تفتح بطريقة آلية بمجرد أن وقفت السيارة التي كانت تقلنا أمامها، وولجت بنا إلى ساحة داخلية كبيرة تبدو كحديقة في جنة، حيث تفوح رائحة أشجار الجوافة والأناناس وبعض من فواكه أخرى لم أتبينها أو أتعود على رائحتها، وأمرنا الشاب الذي كان يقود السيارة الهمر العالية كسيارات الجيش بأن ننزل وننتظر في مقاعد خشبية موضوعة قريباً من كوخ

صغير، أخبرنا بأن الزعيم سوف يخرج منه بعد قليل، وعلينا فقط الانتظار.

مضت حوالي نصف ساعة، دون أن نرى الزعيم في حين كان هناك شباب يتجولون في المكان ويقومون بأعمال كثيرة في هذا البيت الواسع ذي الحديقة متعددة الأنشطة، ففي زاوية كان هناك حوش كبير يحتضن مجموعة من الحيوانات المنزلية منها الدجاج والبط ورأيت أيضا أرانب، وهناك مها عربي يبدو في زاوية أخرى، وهناك أيضا أوز وزرافات تبدو حديثة المولد، كأنهن صبيات بأعناق طويلة، وهن يحركن تلك الرقاب يمنة ويسرة في خفت وبعنجهية واضحة.

رأيت أيضا جمالا عربية طويلة بسنامين، لأول مرة أرى جملاً بسنامين كنت قد سمعت عنها كثيراً في قصص الأقارب ورسمت لها صورة في ذهني لا تختلف كثيرا عما أراه الآن.

مضى الوقت وأنا أتنقل ببصري في الحديقة الكبيرة، وأكاد أكون قد نسيت كم بقينا ننتظر من الوقت، إلى أن جاء ذلك الشاب السائق الذي صحبنا وأخبرنا:

"الزعيم قادم"

كررها مرتين..

كانت إشارته تعني أن نقف ممتثلين الطاعة والرضا إلى أن يهل الرجل ويجلس، وهي العادة المتبعة في تقديس الشيوخ والزعماء وكبار القوم من أصحاب الأموال في بلادنا.. فالناس

تقدس الرجل هنا لماله وهم أيضا يقولون إنهم يقدسون البعض لتدينه، لكنني أجزم بأنه لا متدين أو خلوق ينال الاحترام والوقار جدا إذا ما كان معدماً، وقد رأيت ذلك في عمي وقبله في أبي، كانا خلوقين وأحدهما كان إماماً ولكن دون فائدة تذكر. كانا يحظيان على الأكثر برد السلام وابتسامة لا يمكن أن تدرك مغزاها، ولا يمضي الأمر لأبعد من ذلك.

الآن سيطل الزعيم، الذي تخيلته شيخاً في منتصف الأربعين من عمره، له لحية بيضاء في منتصفها، يحمل مسبحة زرقاء وله نظارة سوداء الإطار شبه معتمة، وقد يكون ظهره بانحناءة قليلة، وهو يدلي غطاء أبيضا فوق رأسه، دون أن يلفه كعمامة..

لا أعلم إن كانت هذه الصورة التي صنعها خيالي قد انطبقت على زعماء رأيتهم من قبل أم لا.. فأنا لم أرى زعيماً يعيش في مثل هذا الرخاء والبذخ من قبل لأكون قادراً على تخيل هيئته. وعلى العكس تماما من تصوراتي فقد خرج إلينا شاب ربما لم يتجاوز الثلاثين من عمره، تقريباً في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين، له سن ذهبية بارزة كانت أول ما لفت نظري في ابتسامته المقتضبة وكان يلبس نظارة شفافة بإطار رمادي، وعيناه ثاقبتان. هو نحيل وأسمر وينظر إلى الأمام بقوة وهو يسلم على ضيفه يكاد يخترق بؤبؤي العين إلى داخلهما.

كانت قبضة يده قوية وهو يصافحني ويهز يديّ بشدة، وكذلك فعل قبلها مع عمي. كان يلبس ثوبا عربيا عبارة عن جلباب أبيض بإزرار راقية مدببة وتنتهي بإطار فضي، وعليه طاقية حمراء اللون تبدو غريبة مع لون الجلباب ولون جسده.

دعانا الزعيم الشاب للجلوس، وكنت مشغولاً بتأمله وتمنيت لو أنني أصبحت مثله، ولكن كيف سيكون لي ذلك.. وشعرت بقشعريرة تعبئ جسدي سببها الرهبة من الرجل وربما الخوف من المجهول والإحساس بالخيبة أنني أنتمي لعائلة فقيرة لا تملك شيئاً في هذا العالم سوى بيت صغيرة به غرفتين كثيراً ما تعرضتا للخراب مع العواصف والأمطار، ثم يعاد بناؤهما من جديد بعد جهد جهيد، أما طعامنا وشرابنا فقد كنا نحصل عليه بصعوبة لولا أنّ الله كريم يعين عباده، ودائما كانت أمي تردد "إن الله لن يضيع مخلوقاً أوجده في هذا العالم، فهو يرزق الطيور وهي لا تفهم فما بالك بالبشر".

كانت أحاديث أمي مستلة من مقولات متناقلة هنا.. الكل يسلي نفسه ويعزيها بالقوالب الجاهزة من الحكم والأحاديث المتناقلة التي تتحدث عن عظمة الصبر وأن الإنسان الذي له حظ في هذه الدنيا سوف يناله، وعلى المرء أن لا يكون جشعاً وأن يحب الخير للناس ويقتسم معهم رزقه حتى لو كان قليلاً.. كانوا يقولون كل ذلك لكن لا أحد تقريباً كان يفعله.

***

بعد مضي ثوان معدودات كنت قد سرحت فيها بخيالي بعيدا في تذكر حياتنا القاسية والعنيدة، عدت للمكان الذي أنا جالس فيه الآن بجوار الزعيم الذي كان يلقبونه بـ"سيدي"، بعد أن وضعوا أمامه دخان الشيشة ورتبوا له الجمر بطريقة أنيقة.. كل شيء يفعل هنا بدقة وبأناقة وبحزم.. وكل من يعمل هنا يجيد عمله باحتراف كبير ويؤديه بمحبة فائقة.. يبدو أنه المال يجعل كل شيء سهلاً ولذيذاً.. ورفعت رأسي إلى أعلى ساعة سمعته يناديني:

" ما شاء الله.. ها قد كبرت يا محمد"

شعرت بفرح يملأ قلبي، فالرجل يعرف أسمي وهذا شرف كبير لي، ويبدو أنه يعرفني من زمن بعيد وقد رآني ذات يوم.. ما من شك في ذلك.. فالعبارة التي قالها تدل على ذلك.. ولمحت عمي هو الآخر يشعر بالزهو لم أر عينيه تلتمعان كما هما في هذه اللحظة تكادان تشعان ضوءاً يفيض خارجهما في المكان، لولا أن كثافة الضياء في الخارج أكبر.

نظرت خلسة أخرى إلى أحد الشباب الذين يقومون على خدمة الزعيم فرأيت ثمة ابتسامة خبيثة، تكاد تنفجر ضحكة تخرج من فمه، ما أشعرني بالضيق..

كان إحساسي صادقاً بأن ثمة غموض ما في ردة فعل الخادم، لأنه لم تمض ثوانٍ إلا وضحك الزعيم بصوت عالٍ

وهو يشفط دخان الشيشة، ويبصق بطريقة لم تعجبني على يمينه، دون أن يعتذر، وقال:

"الكل هنا اسمه محمد.. والكل يكبر.. ها ها ها"

بالفعل كان اسم محمد من أكثر الأسماء المنتشرة في بلادنا.. تمزقت البلاد بفعل الحروب وتشرذمت وظل اسم محمد الشيء الوحيد الذي يتمسك به الناس، فالذين يحلمون السلاح في وجه بعضهم البعض هم محمد ومحمد. لكن لا غرابة فالحياة كما تعلمت من عمي صارت مجرد شكليات ومظاهر.. الأسماء والنعوت وغيرها ليست إلا محطات عابرة وفروضات متوارثة لا يفكر فيها الناس كثيراً.. فالرجل إذن يناديني محمداً ليس لأنه يعرفني بل لأنه يفترض أن اسمي محمد، وأنني كبرت ككل البشر يولدون صغاراً ثم يكبرون.

شعرت بمزيد من الضيق، كما رأيت التبرم في وجه عمي وتعابير جبينه المتقطب. وما علينا سوى السكوت. فقد جئنا في حاجة ولابد من قضائها، أي أن عمي لديه حاجة ولابد من نيلها من هذا الزعيم السخيف. فمزحته لم تعجبني أبداً.

***

أخرج عمي كيساً من القماش لا أدري أين كان يخبئه طوال رحلة البحث عن الزعيم، ووضعه أمام الرجل قائلاً:

"هذه هو المطلوب سيدي"

لم ينظر الزعيم إلى الكيس فقد أخذه الخادم ووضعه في طاولة صغيرة، ومن ثم بإشارة من سيده قام بفتح الكيس ليخرج منه رزمة من العملة الورقية شبه المهترئة، ويبدو أن عمي جمع هذه الأموال في سنين طويلة.

في الوقت الذي كان الخادم يحصي المبلغ كان الزعيم يخبر عمي:

"سوف تتدربان على كل شيء.. وستعودان بالخير الوفير.. المهم أنكما تملكان الشجاعة والجرأة والقدرة على تحدي القوانين"

ضحك بصوت عال.. وهو يذكر كلمة القوانين.. مضيفاً:

"القانون كلمة يتشبث بها الجميع هنا ولكن لا أحد يطيع القوانين"

كما لو أن عمي يريد أن يعلق.. لكنه سكت فالزعيم ثرثار لا يترك لضيفه أن يتكلم، استطرد:

"لو ظل المرء طوال عمره يتبع قوانين هذه البلد فلن يصبح شيئاً.. هم يضعونها لكي يعوقوا الناس ويحجبونهم عن التطور.. أن يصبحوا قادرين على الاعتماد على أنفسهم"

كان الزعيم نفسه كما يبدو أمامي نموذجاً للخروج على القوانين.. أنا لا أعرف عنه الكثير وليس لدي أدنى فكرة عن

المهمة التي سوف نتدرب عليها أنا وعمي.. فقط أعرف أننا سوف نقوم بعمل في الخليج الذي تطل عليه مقاطعتنا المستقلة.. فعمي ذكر البحر كثيراً في طريقنا إلى الزعيم ومنذ اللحظة التي قرر فيها أن يأخذني من أمي..

لم يمض وقت طويل استغرقه في التفكير حيث سمعت الخادم يقول لسيده:

"المبلغ ينقص قليلا.. سيدي"

لم يفكر الزعيم طويلاً، قال يضحك أيضا:

"ليس ثمة مشكلة.. لأجل محمد سوف نتنازل لعمه"

نظر نحوي بقوة، كانت سنه الذهبية تضيء مشعة وعيناه ترمقاني كأنهما تريدان أن تفهمان ردة فعلي.. ولم أجد بداً سوى أن أجاري الرجل وبادلته الابتسامة على مضض.. وأنا غير متأكد هل أدرك أنني أجاريه فحسب أم لا.. في ذلك الوقت كان الخادم قد أحضر صندوقاً خشبياً ووضع فيه المال ثم أغلقه بإحكام.. وقال لنا:

"هيا إلى العمل.. ستصبحان قرصنان كبيران"

***

قرصان.. ما أن سمعت الكلمة حتى شرد ذهني بعيداً.. فالكلمة ليست غريبة عني.. فهؤلاء الذين حولنا من الشباب وهذا الزعيم ليسوا إلا أولئك الذين يطلق عليهم القراصنة..

إنهم يتحدثون عنهم في القرية كثيراً.. يقولون إن لديهم مالاً كثيرا وسطوة وقوة.. وأن الحكومة لا تقدر على مقارعتهم فهم لهم مملكتهم الخاصة وسط الدولة الممزقة أصلاً. فهذا عمي جاء بي إليهم في عقر دارهم.. في رحلة لم تكن سهلة البتة.. فقد بذل عمي مالا كثيرا لكي نصل إلى الزعيم بالإضافة إلى ما دفعناه له شخصياً أتعاباً للمهمة القادمة التي لا يعلم بها إلا الله هل ستكون خيرا بالفعل أم بداية لشر لمستطير؟!.

انتابني شعور غريب تداخلت فيه الفرحة بالخوف والألم.. هل يمكنني أن أصبح قرصاناً كما أراد لي عمي واستطيع أن أجني المال الوفير وأعود لأبني بيتاً كبيرا على الأقل إن لم يكن قصراً كما هذا الزعيم..

رحت أتخيل نفسي زعيماً في القرية.. لكنني لو أصبحت زعيماً لن أكون ثرثاراً ولا سخيفاً كهذا الرجل، سأكون طيب القلب وسأساعد المساكين والمحتاجين، وسأحرص على إنشاء مدرسة لأبناء القرية فلا توجد مدرسة هناك، أنا تعلمت حتى السنة الخامسة في المدرسة البعيدة التي تقع في طرف البلدة كنت استيقظ قبل شروق الشمس بساعتين لكي أصل إليها مشياً على القدمين وأحياناً ساعة يكون لي حظ أجد أحد أصحاب العربات التي تجرها الحمير، ممن يعملون في حمل البضائع بالمدينة، فأذهب معه إلى هناك، هذا إذا كان ابن حلال ولم يطلب مالاً، وإلا سوف أمشي كما تعودت على قدمي.

لا أخفي على نفسي أنني شعرت أيضا بشيء من الخوف أن يكون هذا العمل حراماً، فما أعرفه أن القراصنة يجنون أموالهم من نهب السفن ومن طلب الفدية مقابل احتجاز السفن ومن هم على ظهرها.. كان هذا الأمر يقلقني جداً، وقلت لنفسي "إن عمي لا يمكن أن يجرني للحرام، أبدا"..

أغفلت التفكير عن الموضوع بأن لا أفكر في أمر لم يحدث بعد.. صحيح أن الخادم أطلق لقب "قرصان" لكن ربما كانت تلك مزحة.. وربما كان عملنا مختلفا.. عليّ ألا استعجل إذن في الحكم على أمر لم أفهمه بعد. كما عليّ أيضا ألا أسال عمي فهو لا يحب أن يسئل إلا أن يجيب هو بنفسه أو يخبرك بالأمر.. لهذا يجب أن أسكت طوال باقي الرحلة، حيث ركبنا السيارة الكبيرة مرة ثانية وأخذنا السائق الشاب الذي كان يتحدث معنا بأريحية هذه المرة بعكس المرة السابقة، وعزا السبب إلى أننا أصبحنا الآن بعد مباركة الزعيم جزءاً من جماعتهم حتى لو أننا لم نبدأ العمل بعد.

***

طوال الطريق بالسيارة إلى أن وصلنا نقطة معينة عند الشاطئ قريباً من تلة متوسطة الارتفاع محاطة بأشجار الموز، لم يكن أمامي سوى الصمت والانتظار، فليس مسموحاً للصغير بالكلام أمام الكبار، كما أنني كنت مشغولاً بتأمل حياتي الماضية وما سأصبح فيه من نعمة.. كنت أفكر في

الزعيم الذي سأكونه ذات يوم.. ويم تفرح أمي وهي تراني رجلاً مهاباً من الجميع ومطاع الكلمة.. ويوم يفتخر عمي بأنه السبب وراء كل ذلك العز والعظمة التي أعيش فيها.

استيقظ مرة أخرى بأن عليّ ألا أن اتعجل ما لم يحدث..

"فالحياة ليست مضمونة في كل الأحوال"..

سمعت الشاب يحدث عمي بهذه العبارة ما قطع علي تفكيري وخيالاتي.. كان يتكلم عن موضوع ما لم أتابعه منذ البدء لانشغالي.. وعلى ما يبدو كان يتحدث عن العمل القادم والمهمة.. عن مهنة القرصان.. كم هي ممتعة ومحفوفة بالمغامرة وفي الوقت نفسه هي مخيفة.. سمعته يخبر عمي:

"يحتاج القرصان إلى قلب شجاع وضمير لا يتزعزع"

بدأ عمي يسأله دون أن يبدو عليه أثر للمزاح:

"وماذا يفعلون بالضمير!؟"

كلمات عمي هذه أشعرتني بأن هناك أمر غير محمود.. فالإشارة إلى الضمير عندنا دائما ما ترتبط بالفعل الصواب والحلال والصحيح.. وما سواها هو غير ذلك.. ولم أفكر كثيرا مع رد الشاب قبل أن يوقف السيارة:

"الضمير هو ملح كل شيء في هذه الحياة.. كل أمر يخلو منه لا يتم بالطريقة المطلوبة ولا الوجه الأمثل"

لم يعلق عمي.. كان ينظر إلى البعيد.. في عمق البحر.. أو الخليج الذي أراه لأول مرة في حياتي.. أخبرني أنني جئت هنا وعمري سنتان وهو ما لا أقدر على تذكره أبداً..

أخبرني بذلك دون أن يشرح لي لماذا جئت إلى هنا ولأي سبب.. وكان أن سكت كالعادة، قبل أن يخبر عمي الرجل الذي نرافقه بأن والدي كان قد جاء بي معه هنا في إحدى رحلاته التفاوضية مع جماعات متمردة كان حكام المقاطعة يرغبون في التصالح معها وإشراكها في حكم المقاطعة لدرء شرهم. لم يكن والدي قد تم تكليفه من قبل أحد، كان قد تبرع بنفسه لهذه المهمة، مثلما سافر مرة ثانية إلى نيروبي في أحد وفود التفاوض أيضا.

هذه القصص والحكايات التي تتعلق به.. بوالدي لم أكن لأعرف الكثير من مغزاها أو موقع أبي الحقيقي منها. لكن إذا كان هو سياسي كما يقول البعض، فلما تركنا فقراء؟!.. فالمعروف في هذه البلاد أن أبناء الساسة مرفهون ويعيشون في نعيم كبير وأنهم يدرسون في أرقى مدارس وجامعات العالم خارج الوطن طبعا. وأنا لم تنطبق عليّ هذه الشروط فكيف يكون أبي سياسياً.

ظل عمي ينظر إلي وكأنه كان يقرأ ما يدور بذهني، فابتسم وهو يخاطبني:

"ليس كلهم يا محمد.. ليس كلهم"

السائق كان يفهم ما يدور، ولم يعلق، استمر في القيادة صامتاً، إلى أن أدركنا كوخا على الشاطئ عند تلة ثانية، محاطة بالحشائش الخضراء، حيث استقبلنا شاب يبدو أكبر سناً من الزعيم، كان صدره عارياً ويلبس فقط قطعة من القماش الملون يلفها حول خصره.. تغطي فقط منتصفه، بحيث تمنع رؤية عورته فحسب. أما باقي الجسم فبقي مكشوفاً. وسلم علينا الرجل وأخبرنا قائلاً:

"اسمي إسماعيل بيلي"

أوضح لنا مرافقنا السائق.. إنه هذا الرجل هو المكلف بأمن الجماعة والمشرف على التدريب في المقاطعة، وأن طاعته واجبة في كل أمر وإلا سوف نخسر مهمتنا.. وبالتالي الهدف الذي جئنا لأجله من البداية.. وكان يعني قطعا المال.. أخبرنا بذلك.. وكان الحديث أمام الرجل الذي لم يكن تبدو عليه أي مشاعر أو ردة فعل لما يقال سلبية كانت أم إيجابية.. كان يبدو كما لو أنه بلا أحاسيس مطلقاً.

***

سيبقى إسماعيل بيلي من الناس الذين لن تنساهم ذاكرتي أبداً.. وهو مثال على القول الشائع "يضع سره في أضعف خلقه". فالرجل رغم جسده الذي يبدو هزيلا وافتقاده للمشاعر الإنسانية كما تعكس تعابير وجهه، إلا أنه يتمتع بذكاء خارق. ولو كانت الأمور تجري على ما يرام في

الحياة.. وهو ما لا يحدث في الغالب.. حيث هناك أقدار وحظوظ وأشياء تتحكم في نصيب البشر، لو حدث ذلك.. لكان إسماعيل هو الزعيم الحقيقي للقراصنة في المقاطعة..

لاحقا فهمت أن المعيار الوحيد الذي يجعل بيلي يفلت من الزعامة هو زهده الخاص في أي شيء كان في الدنيا.. فهو مغامر كبير ورجل جسور، وهو الذي يقود القوارب لتحاصر السفن الأجنبية العابرة للخليج، يفعل ذلك بذكاء وعزيمة وإصرار ولا يخسر معاركه أبداً.. وبعد أن يقوم بكل هذا لا ينتظر أن يكون له نصيب، حيث غاية سعادته أن يصل كوخه عند التلة وينام بسلام في حين يعمل الآخرون على تقاسم الغنائم.

صحبت بيلي مع عمي إلى عمق البحر في أول رحلة لنا.. كانت للاستطلاع والتعود على عملنا الجديد، الذي تنازلت عن التفكير في تعريفه من الناحية الدينية والأخلاقية.. وكلام بيلي كان كفيلاً بأن يجعل المرء يفكر بطريقة مختلفة، فالرجل يؤمن بأن عمل القراصنة هو "جهاد حقيقي لرد الحقوق لأهلها".

أخبرنا أن السفن العابرة هذه تدر من خلال ما تحمله من بضائع وأحياناً أسلحة أو حتى نفايات.. الملايين من الدولارات لأصحابها الذين يغتنون.. وكان يسألنا:

"كيف يكون لهم ذلك الربح العظيم ونحن لا نجني شيئا؟! هم يعبرون سواحل مقاطعتنا دون أن يدفعوا لنا شيئاً.. فالمياه الإقليمية لبلدنا مباحة لأننا نفتقد للحكومة المنظمة والقوية التي يمكن أن تأخذنا حقوقنا.. لهذا علينا أن نقاتل بأنفسنا لكي نحصل على رزقنا"

وشدد الرجل على القول:

"ما نفعله طوال السنين الماضية ليس فيه أي نوع من التبشيع أو القتل.. القراصنة لا يقتلون أحداً إلا ساعة يواجههم بالخطر، أي يهدد حياتهم مصوباً بندقية أو أي أداة تؤدي للموت.. سوى ذلك فهم طيببون إلى أبعد حد بل يحتفون بالرهائن وغالبا ما يطلقون سراحهم بعد أن يأخذوا فدية مقابلهم هي ثمن الحياة.. فالحياة لا تقدر بثمن. وهم متأكدون تماما أن من هم بظهر السفن ليسوا ملاكها ولا ذنب لهم، هم مجرد عمال وعبيد لسادتهم الذين يقدمون لهم الفتات"

كان إسماعيل بيلي بهذه الطريقة في التفكير والكلام حكيماً بنظر عمي، وبنظري أيضا، فالرجل له تبرير ومنطق لأي فعل مهما بدا قبيحاً ومستهجناً ما يقنع المرء ويحبب له عمله المقبل، وقد فهمنا أنه منظِّر الجماعة وصاحب الفتاوى لكل ما تقوم به.. وكان الجميع يحبونه ربما لهذا السبب، حيث يصنع المبررات التي تشعر المرء بالرضا وتزيح غشاوة الخوف، أو ربما لأسباب أخرى سوف نعرفها لاحقا..

***

الحياة مع القراصنة لا تتكشف تفاصيلها بين نهار وليل، فهي تحتاج إلى شهور وغالباً سنوات. وهذه ما تعلمته من التجربة، فمع مرور الأيام كنت مع كل شمس جديدة أشعر بأنني أتفتح على معرفة جديدة، كما لو أنني لم أكن جزءاً من هذا العالم من قبل. وأعني بدقة تلك المعارف والخبرات المرتبطة بالبحر وعوالمه الغامضة المتعلقة بعملي الجديد، لأن عمي سوف يتركني بعد أيام من عمله معنا، حيث يعود إلى القرية، ليعلمني أن مهمته قد انتهت ويجب على أن أكون جسوراً لكي أعود لأمي بالمال الذي تنتظره..

قال لي وهو يودعني:

"هل ستكون رجلاً بحق.. هيا يا فتى"

تركني وحيداً مع الرجل الحكيم بيلي، والبحر والخطر.. وأنا أحدق بعيداً من فوق سفينة صغيرة تعبر بنا الأمواج المرتفعة. أراقب الموت ويراقبني وأظل شجاعاً كأبي. وأردد مع نفسي بصوت مسموع لي:

"لن أكون خائفاً وسأعود يوماً إلى بلدي زعيماً أليس لي من قلب وأمل"

الثورة والحنظل

أرادت القابلة العجوز رضينة أن تضع المولود في أناء من الماء، لتغسل جسده، فقفز إلى أعلى مبتسماً، عيناه صغيرتان جداً، تشبهان عيني والده الحاج مضوي الذي مات قبل يومين، وأنفه يبدو شامخاً لا يليق بأنف طفل عمره بضع دقائق.

تأملت رضينة وجه المولود ورسمت بسبابتها اليمنى على جبينه علامات، اعتادت رسمها على جبين كل مولد جديد، وبقيت هذه العلامات إلى أن دخل الطفل المدرسة الأولية، عندما انمحت من على جبينه بعد أصابته بجرح مكانها، أثناء مشاجرة وقعت بينه وأحد المدرسين عندما رآه يدخل رأسه في الزير ليشرب الماء، وكأنه معزة، رغم وجود أكواب من الصفيح بجوار الزير.

بقدر ما كانت زينب سعيدة بإنجاب ولدها البكر، إلا أن رحيل زوجها دون أن يفرح معها، جعلها تزداد حزناً وتشعر بالآم مخاضها، وقد بكت طويلاً وهي تقاوم لحظات الولادة الأخيرة تحت أيدي القابلة العجوز.

كان البيت لا يزال مشحوناً برائحة العزاء والحزن على رحيل مضوي الأب، في تلك الليلة التي ولد فيها مضوي الابن،

والذي لقب بالحاج مضوي من قبل عمته جوهرة، كان أن توقفت شاحنة كبيرة قادمة من مناطق الشمال أمام باب البيت، محملة بجوالات من التمر، جلس فوقها عدد من أقارب العائلة الذين جاءوا للعزاء، ومن داخل الغرفة التي كانت زينب تعاني فيها آلام ولادتها، كان صوت عويل النساء مسموعاً وأصوات الرجال وهم ينادون: الفاتحة.

انفض المعزون نهائياً بعد أربعة شهور، في حين تبقت آثارهم لأربعة شهور أخرى.

كان أن قلبت أواني الطعام واختلط الحابل بالنابل، لكن أحداً ما من الجيران لم يتبرع لوضع شيء في مكانه، ولم يكن باستطاعة زينب أن تقوم بترتيب الأمور وحدها، لا سيما أنها انشغلت مع مولودها البكر، والذي أخذته إلى الفقير عطا الله ليحلق له شعر رأسه ويغسله بماء ساخن فوّار من بئر البلد القديم.

انتهى الفقير عطا الله من غسل الرأس الصغير وتمسيده، ثم مسح فروة الرأس بمعجون مستحضر من دهن البقر، بعد أن قرأ آيات من كتاب الله على الطفل وأسرّ لأمه بكلمات في أذنها اليمنى أن تحرص على تمسيد جسد المولود كل فجر قبل أن تطلع الشمس، لكنه لم يحكي لزينب عن الحكمة من وراء هذا الفعل، فقط قال: "إنه يفيد الأولاد الأشقياء".

استغربت الأم من مقولة الفقير عطا الله، فقد كان الحاج مضوي وهو طفل رضيع، يتمتع بهدوء غير عادي، بل إن القابلة التي خبرت شؤون المواليد الجدد وفهمت كيف تحكم على مستقبل طفل من لحظات ميلاده الأولى، كانت قد ذكرت لزينب أن ولدها سيكون له شأن عظيم في الغد، لكنه سيخسر هذا الشأن بسبب بساطته وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه وحقوقه.

قالت القابلة للأم:

"ولدك هذا سيضيع حقوقه وحقوقك مع الأيام عندما يكبر، فلا تعتمدي عليه كثيراً"

كانت القابلة تعني ألا تضع الأم آمالاً على طفلها، فالعادة أن الأمهات يعلقن أشواقهن وأحلامهن للغد على رقاب أبنائهن.

كانت زينب كأمهات كثيرات ترغب في أن يكون ولدها طبيباً كبيراً، غير أنه لم يحقق لها هذا الحلم، فقد قرر مضوي بمحض إرادته ومنذ سن مبكرة أن يصبح ضابطاً في الجيش.

لم يكن في العائلة – عبر تاريخها - من تعلق قلبه بالجيش وحمل السلاح، بل ينتمي مضوي لعائلة عرفت بالجبن والخوف من الفئران والزواحف، وقد كان مضوي الأب مضرباً للمثل في الخوف من ظله في الليالي التي يصنع فيها القمر

ظلالاً باهتة للأشياء، وكان لا يتجرأ على السير وحده في الليالي المظلمة، فعندما يجنّ الليل، يدخل مضوي بيته باكراً قبل المغرب، ولا يغادره إلا في اليوم الثاني.

مما لا شك فيه أن مضوي الابن سمع بهذه الحكايات التي يرويها سكان البلد عن والده، وما لاشك فيه أنه اكتوى بهذه القصص التي لا سبيل لإنكارها، وكان غير راضٍ عن استفزاز والده في قبره، أن يوصف بالخوف والجبن، في قبيلة عرفت منذ سالف الأزمان بمقاومة المحتلين والمغتصبين للأرض.

في تفكيره الباطني، كان مضوي الابن متأثراً بالعبارات التي تقال في حق والده المقبور، لهذا كان يُحكِّم حركاته وأفعاله بما ينبئ لمشاهده أنه طفل بقلب شجاع، على الرغم من أن الإنسان مهما فعل لا يستطيع في مثل هذه البلاد من العالم أن يتخلص من آثار وظل عائلته، والذي سيظل يلاحقه حتى بعد موته.

ومثال على رغبته في أن يبدو شجاعاً، ما جرى له مع المعلم الذي وبخه على الشراب بطريقة غير مهذبة من الزير، فقد تصدى مضوي للمدرس.

قام أولاً برميه بحذائه الصغير، ومن ثم رمى به على الأرض، وقد شجّع ذلك زملاء مضوي على الصراخ والاندفاع بقوة نحو المدرس القادم من بلدة مجاورة والذي كان كثير الاستفزاز للتلاميذ.

انتهت المعركة بحمل مضوي للمستشفى الوحيد في البلدة المجاورة، على بعد عشر كيلومترات من موقع الحادثة، في حين نهض المدرس كأنه لم يتلق أي علقة، وأضمر في نفسه أشياء كثيرة، قرر أن يقوم بتنفيذها في الأيام القادمة بهدف تأديب الطلاب وعلى رأسهم مضوي.

قبل أن يعود مضوي مجدداً لمواصلة الدراسة، وقبل أن يتماثل للشفاء، كان المدرس صاحب المشكلة قد نُقِل إلى مدرسة أخرى بعيداً عن البلد، بعد أن تقدم الأهالي بعريضة شكوى ضده للمدير، خوفاً على مصائر أبنائهم، خاصة بعد أن سرت شائعة بأن المدرس مخبول.

حدث ذلك بعد أن تغيرت الكثير من تفاصيل الصدام بين الطلاب والمدرس، وتباينت روايات الحادثة، وبالطبع كان مضوي أكثر المستفيدين من رحيل المدرس، فقد اعتبر الحادثة إحدى نجاحاته المبكرة وأولى خطواته لإثبات أنه شجاع بخلاف والده الجبان.

لاحقاً فهم مضوي أن الشجاعة في هذا الزمان بالذات لا تتعلق بحمل السلاح، فهناك من يحملون السلاح بهدف الهرب من عوائلهم، فهم يذهبون للحرب لينتحروا بطريقة مهذبة، إزاء الحياة القاسية والعجز عن رعاية الأبناء، وهناك من يتدرعون بالأسلحة وهم ضعاف القلوب.

هذه المعارف الجديدة، لم تمنع مضوي من المضي قدما تجاه هدفه أن يكون ضابطاً في الجيش، لقد تبلور الحلم من فكرة نشأت مع الطفولة، ولا مجال الآن بعد أن اختمرت أن يتراجع عنها، خاصة أنه من العيب على الإنسان أن يجهر بشيء ويقول أنه سيفعل كذا، ثم يتراجع عنه، إنه الجبن بعينه، هذا ما فهمه مضوي وتأكد منه في قرارة نفسه.

ذات نهار بعد شهور من حادثة المدرس، كان مضوي جالساً على طرف العنقريب في الحوش، في الظل القائم عن اعتراض حائط المطبخ الصغير لضوء الشمس. كان يستمع لأغنية بثتها الإذاعة السودانية، انبعثت من الراديو الموضوع عند النافذة الصغيرة في المطبخ.

كانت الأغنية حزينة، معها تدفقت دموع مضوي، ودخل الطفل في حالة من الرعب الذاتي المدمر، دون أن يدرك السبب لهذه الحالة المفاجئة.

كانت زينب تغسل الملابس وتعلقها على الحبل في الحوش الكبير من البيت، هي الأخرى فاضت دموعها مع الأغنية.

تتحدث الأغنية عن صبي نشأ يتيماً وضاع في مهرجان الحياة عندما ضاعت أحلامه بفعل القسوة التي واجهته من البشر، وقال المُغني: "إن البشر كائنات جميلة لكنهم أحيانا يفسدون الحياة ويجعلونها مريرة كالحنظل".

رأت الأم الدموع التي غسلت وجه ولدها، فأسرعت إلى الحمام تحمل الإبريق، لتغسل الدموع وفي يدها آثاراً من بقايا الصابون النفاذ الرائحة.

تسرب جزءٌ من الصابون السائل في عين مضوي، فانهمرت دموعه أكثر، وبكى بكاء حاراً، وشعر بأنه في حاجة مُلِحّة للبكاء، ولو لم يسعفه الصابون لبكى أكثر، فقد شكل له السائل المؤذي للعينين سبباً لغسل روحه.

دائما كانت تشغله مسألة غسل الروح، فقد سمع أمه تردد بشكل متكرر وهي تؤدي واجباتها اليومية من طهي وغسيل ونظافة وترتيب لشؤون البيت:

"آه ما أعثر غسيل الروح"

وأخبرته ذات مرة أنها سمعت هذه العبارة من الفقير عطا الله قبل سنوات عندما ذهبت إليه ليغسل رأس ولدها الوحيد.

فهم مضوي أن الأمر يتعلق به، فأمه عندما تقول الأشياء، تعنيها تماماً، ولم يحدث أن حكت حكاية أو ذكرت عبارة ذات يوم، دون مغزى، فدائما كانت قصصها مرتبطة بمعانٍ ما، أشياء حاضرة أو غائبة أو ستكون اليوم أو غدا أو بعد غد.

تعلم مضوي هذه العادة، تعلمها هكذا والسلام، دون أن يفكر هل هي عادة سيئة أم قبيحة، لقد كان فخوراً على أية حال بوالدته التي لم يتجرأ أحد من الناس عليها بكلمة تأبى الأذن سماعها، بخلاف والده الذي أكلته البشر ميتاً، وأُكِل حيا قبل ميلاد ابنه الوحيد.

الآن وبعد سنوات يتذكر مضوي الابن ذلك النهار البعيد وكأنه حاضر في هذه اللحظة بالتحديد، كان جالساً على كرسي وثير أمام الحديقة الواسعة، أمامه نخلتان طويلتان تشبهان نخلتي البيت القديم، تفصله عنهما السنوات البعيدة.

يرى نفسه يتسلق إحدى النخلتين، وفجأة يسقط على الأرض لتحمله والدته إلى الفقير عطا الله ليحدثها أن هذا بشارة فأل حسن، فعندما يسقط الابن البكر الوحيد من النخلة، فهذا يعني أنه سيتسلق نخلة الحياة وسيجني الثمرة.

صدقت التوقعات، بعد أن أصبح مضوي الرجل الأول في البلاد، ولكن بعد أن ماتت والدته دون أن ترى نبوءة الفقير عطا الله ماثلة.

***

مع الرجوع لذلك النهار البعيد، عادت دموع مضوي للتدفق كنهر منهمر من منابع مجهولة، لأن الرجل الأول في الدولة لم يعرف كيف يتعرف على أسباب انهمار الدموع،

وهو الذي فقد أسباب الحزن منذ أزمنة غير قادر على تحديدها.

من كان يتخيل أن الولد البسيط الذي عاش يتيماً سوف يتحول إلى قاتل وسبب من أسباب فيضان الدماء في البلاد؟

هو نفسه غير قادر على معرفة الحيثيات التي قادته لهذا الشيء، فقد وجد الحياة تدخله من غير توقع في ظروف غامضة، وشخصية جديدة، يريد أن يرفضها، وأن ينزع جلده ليقول:

"ليس هذا مضوي، إذا كانت الشجاعة التي ظللت تبحث عنها طوال طفولتك وصباك قادتك لهذا الشيء فلتمض الشجاعة إلى الجحيم"

وسأل نفسه وهو ينهض من على الكرسي ويتمشى في الحديقة:

"هل من الممكن أن يفقد الإنسان في لحظة ما السيطرة على حياته ويدخل في هموم غريبة، يظن الناس أنه أصبح شيئا له قيمة وإن كان في غرارة نفسه يحس بأنه تحول لكائن لا قيمة له"

كان الصباح الجديد ينتظره بتوقعات كثيرة على كافة الأصعدة: الحرب المستمرة في جنوب البلاد.. المفاوضون الذين سيصلون في الغد إلى جيبوتي.. عقود لمشاريع بترولية جديدة

مع الشركات الآسيوية.. احتفالات العيد الرابع لاعتلاء السلطة بثورة سلمية لم يمت فيها غير كلبين عبرا أمام الدبابة التي حرست الجسر الذي يصل بين الخرطوم والخرطوم بحري.

أمام هذا الجدول المزعج، مزّق الرئيس الورقة التي أمامه، وفي تصرف مفاجئ قال لحارسه الشخصي برعي:

"قل لهم أن الرئيس يعاني من وعكة صحية"

لأن برعي يفهم حالات الرئيس تماما وتوتراته الانفعالية التي تطارده في بعض الأحيان، فقد أدار هاتفه الجوال وهاتف نائب الرئيس قائلا:

"سيدي.. الرئيس متوتر بعض الشيء ولا يرغب في أي جدول أعمال في الصباح"

كان الرئيس يعتقد أن الوعكة مجرد حالة مفتعلة منه، كما حدث وتكرر أكثر من مرة، لكن في هذه المرة تحول الافتعال لواقع، فالحمى حاصرت الجسد الذي بدأ في الامتلاء قبل ثلاث سنوات وأحد عشر شهراً.

في فراش النوم، داخل حجرة واسعة، لم يقدر مضوي على إزاحة صور الماضي، صورة والده الذي يخاف ظله في الليالي، وصورة والدته التي باعت ملابسها لكي يواصل ابنها تعليمه، وحاصره كابوس المدرس الذي تصارع معه، هذا

الرجل الذي ضاع بين سراب البشر في مدن البلاد المتباعدة الأطراف، تمنى لو أنه قابله في هذه اللحظة بالتحديد واعتذر له، وتمنى ثانية لو أنه قبض عليه بواسطة رجاله وضربه قبل أن يرشه بالرصاص، ويقتله كهر.

ومع تزاحم كوابيس حمى الملاريا، التي لم يصب بها مضوي منذ أيام عمله كضابط صغير في جنوب البلاد، كانت الذكريات المتباعدة تقترب، وتتداخل فكرة الحياة مع الموت مع الرغبة في أفعال متناقضة، مثل أن يعلن في احتفال العيد الرابع عن اعتزاله السلطة، لكن كيف سيكون ذلك وقد تورط تماما، كونه رئيس البلاد.

حتى لو رغب في التنازل عن السلطة فلن يتركه الزبانية الذين يحيطون به ويخيطون المؤامرات. هو متأكد من أن حبهم مزيف، يرتبط بمصالحهم الذاتية، وشهوانيتهم الحيوانية، لكن ماذا سيفعل.

قبل أن يستسلم للنوم، كان قد قرر أن كل شيء يجب أن يسير وفق إرادة الله وعزى نفسه بالحديث مع نفسه قائلاً:

"أنت يا مضوي لم تختر دربا من دروب حياتك. الحياة وحدها هي التي أوصلتك لهذا المكان، فلا تناكفها، ولا تكن جباناً مثل أبيك بعد أن ثبت وبالفعل القاطع أنك شجاع ابن شجاع. فهل يتجرأ أحد الآن ليقول أن والد الرئيس كان يخاف من ظله"

***

مع الفجر تنتهي هواجس المساء وتدخل الحمى في سراديب مندسة في الجسد.

ينهض مضوي، يدخل الحمام، يرش الذكريات برغبة محمومة في الاستلذاذ بمزيد من الحياة المرهونة للأقدار والتوقعات الإلهية.

يدخل مكتبه في القصر الجمهوري مبكراً، عكس العادة. لم يكن موظفو القصر قد داوموا بعد.

قام الرئيس بتحضير القهوة بنفسه، واتصل هاتفياً بنائبه:

"أعلنوا في وسائل الإعلام أن الرئيس سيلقي خطاباً مهماً اليوم على الشعب بمناسبة الذكرى الرابعة لعيد الثورة"

وضع سماعة الهاتف وترنم بأغنية شبابية سمعها قبل يومين في السيارة أثناء تفقده لأحد الأحياء العشوائية بأطراف الخرطوم، التي قامت البلدوزرات بطرحها أرضاً.

رأى أطفالاً نازحين من الحرب، يندسون وراء البلدوزر وهم يبتسمون أمام منازلهم المتواضعة التي انهارت كأعواد الكبريت.

دخل عليه عامل النظافة الحبشي بصحف الصباح، اكتفى بقراءة العناوين الرئيسية في الصفحات الأولى، أثناء تدخينه سيجارة ماركة بنسون، على عجل.

توقف أمام عنوان بجريدة معارضة يقول:

(المفاوضات في جيبوتي تصل لطريق مسدود)

قرأ الخبر مبتسماً، كأنما لا يهمه الأمر، أو كأن الذي جرى يتعلق ببلد ثان، غير البلد الذي يحكمه.

تحرك في المكتب يميناً ويساراً قبل أن يفتح النافذة لتداعبه نسمات هواء باردة في أوائل شهر ديسمبر مع مقدم الشتاء.

مع النسمات الباردة أعادته الذاكرة لذلك اليوم المشهود، الرابع من ديسمبر، عندما كان يستعد بين التوتر والارتباك لإذاعة بيانه الأول.

كانت التقارير الشفهية التي وصلته تفيد أن كل شيء على ما يرام.. سمع صوت رصاص على بعد خطوات منه.. ارتجف، لكنه ادعى التماسك حتى لا يتهم بالخوف أمام رفاقه من رجال مجلس الثورة الذين وقفوا مرتبكين حوله.

كان يوماً عصبياً، أطول من يوم القيامة، تأخرت فيه الشمس عن المغيب وصارعته فيه أفكار متشتتة ومتداخلة

واستعرض حياته كلها في لمح البصر وزرف دموعاً من قلبه، فطالما شعر بالحزن كلما رأى صورة والدته ماثلة أمامه وهي تجاهد من أجل إكمال تعليمه.

رآها يوم تخرج ضابطاً، كانت تقف وسط الحشود في ساحة الاحتفال بوسط الخرطوم، وزغردت بصوت عالٍ، ثم بكت، ورآها عند أول إجازة، بعد أن قبض راتب الشهر الثاني عشر وعاد لبلده حيث استقبلته باكية عند موقف الباصات القادمة من الخرطوم.

في البيت جلس على طرف العنقريب، امتلأ الحوش بالجيران يهنئون زينب بعودة ابنها من الخرطوم.

كان من بين قدموا للتهنئة الفقير عطا الله، هذا الرجل الذي كلما تقدمت به السن بدأ أكثر شباباً ونضارة في الوجه، حاملاً مسبحته وفي جيبه ساعة كبيرة يخرجها كل خمس دقائق ليعرف كم يكون الوقت، في فعل يبدو أنه غير مقصود.

ضحك عطا الله وهو يحتسي كوب الليمون الحار الذي صنعته زينب، وتبادل النكات مع مضوي، وقال:

"إنشاء الله يأتي اليوم الذي نراك فيه رئيساً للبلد، بعد أن أصبحت ضابطاً والحمد لله"

قال عطا الله ذلك، ليس لأنه يرى الضباط يصبحون رؤساء بلا هوادة في بلد مضرج بالجراح، ولكن لأنه رأى شيئاً،

فعطا الله لا ينطق عن الهوى، هذا ما فسرت به زينب الأمر في المساء، عندما كانت تتجاذب أطراف الحديث مع مضوي، قبل أن يذهبا سويا لزيارة عدد من الأهل الذين فقدوا أقارب لهم خلال العام المنصرم الذي غاب فيه مضوي عن البلد.

كان مضوي ومنذ طفولته يفهم الواجب جيداً، وقد حافظ على علاقات طيبة مع أهل بلده، إلى ساعة أطل على شاشة التليفزيون معلناً أول بيان للثورة.

في ذلك الصباح لم يبق أحد من أهل البلد إلا وشعر بالزهو، ولم يبق أحد إلا وقال: "الرئيس صديقي".... أو " الرئيس من أقاربي"....

لكن مضوي ومنذ أن أصبح رئيساً لم يعد يتذكر أهله ولا أصدقاءه القدامى في البلد.

فشلت محاولات الكثيرين من أهل الرميلة - بلد الرئيس - من الذين يطمحون في مراكز مرموقة بالدولة، في الوصول إلى الرئيس، كانوا يقولون: "لقد صار إنساناً مهماً جداً، ومن الصعب أن نصل إليه".

بعد شهور قليلة من الثورة، تحول فرح أهالي الرميلة، الذي شعروا به مع أول يوم وهم يسمعون البيان الأول، إلى غضب جمّ ولعنة لعهد مضوي.

إذا كان من طبيعة الناس أن تنسى، وهنا نجد أن الناس سريعو النسيان، فقد تغير كل شيء عندما جاء الرئيس في أول زيارة رسمية للرميلة، كان أن استقبل بحفاوة مبالغ فيها من قبل محبيه ولاعنيه ممن فشلوا في مقابلته، وذبح أهل البلد مائتي ثور وأكثر من ألفي دجاجة.

قفز مضوي فوق الثيران، بعد أن انهمر دمها في ساحة المولد بوسط البلد، ومن عند المنصة العالية التي جهزها عبد المحمود أقدم نجاري الرميلة، وقف الرئيس ابن البلد يخاطب أهله قائلاً:

"سنشق الطرق في البلد، وسنحفر بئراً جديدة للمياه مع صهريج من الأسمنت، أما خدمات الكهرباء فستكون جاهزة خلال شهرين، لقد أبرمنا اتفاقا مع شركة ألمانية ستبدأ عملها بعد أسبوع"

انتهت الزيارة ومعها غابت الوعود، فالرئيس نفسه لم يكن يدري هل سيتحقق ما قرأه من على الورقة التي قدمها له أعوانه قبل خمس دقائق من اعتلائه المنصة، أم لا.

فقط كان يقرأ المكتوب وينسى كل شيء بمجرد النزول من على المنصة.

ظن أهل الرميلة أن الأمر يتعلق بهم وحدهم دون سائر مدن وبلدان الدولة، في الخدمات التي خصهم الرئيس بها وقالوا:

"لقد حرص مضوي على إعادة تأهيل بلده، فهو رجل أصيل لم ينس أهله"

الواقع أن الرئيس كان يقول مثل هذا الكلام ويقطع مثل هذه الوعود أينما حل في رحلاته التي لا عد لها، في شمال البلاد، شرقها وغربها، وفي جنوب البلاد حيث يحس الجنود هناك على القتال ويعدهم بالمزيد من الترقيات وأن هذا العام قبل نهايته سيشهد نهاية الحرب مع المتمردين وإحلال السلام في البلاد.

***

مع كل رحلة، ومع كل صباح جديد عندما يقف مضوي أمام نافذة مكتبه بالقصر الجمهوري، يشعر بأن ثمة ما هو غير مفهوم ومعقول في هذه الحياة.

يفكر مع نفسه بعمق:

"هل كنت تفكر في هذا الذي أدركته من قبل؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ "

كعادته يزيح الأفكار سريعاً، ويستجيب للحظات الراهنة، حيث يقوم بإصدار أوامره ويقوي قلبه الهش بأن لا يرتهن للرقة والشفقة، مردداً عبارة تعود على قولها بصوت غير مسموع أمام محدثيه من رجاله وأعوانه:

"لقد مات الضمير!"

***

مضى الاحتفال بالعيد الرابع للثورة كحدث عادي لمضوي، ولم يكن مستغربا للرئيس أن يخرج عصراً ليرى اللافتات الكبيرة وقد غمرت الشوارع، والمهرجانات والحشود في كل مكان.

فكر من يقوم بكل هذه الجهود العظيمة ؟ فهو لم يعط أوامر لأي جهة أو أي فرد من أعوانه بالحكومة ليقول للناس أخرجوا إلى الشوارع لتهتفوا بحياة الرئيس وعيد الثورة، ولم يوقع على أية ورقة تتعلق بميزانية الاحتفالات.

الأمر لم يكن مفاجئاً في خلاصته، فقد تعود الرئيس أن يرى احتفالات عديدة ويشهد مناسبات مختلفة، جلها لا يعلم عنه إلا في حينه، دون أن يدرك متى تم التخطيط لهذه المناسبات، وكيف أعد لها، ومن أين تم الصرف عليها وعبر أي قناة! حتى أنه في لحظات كثيرة كان يتوقف ليسأل نفسه:

"هل أنا الذي يحكم هذا البلد أم أن هناك حاكم آخر غيري؟".

في ذات الوقت كانت كل المؤشرات في الشارع العام تقول بأن مضوي هو اليد القابضة على كل صغيرة وكبيرة في البلاد.

***

قال مضوي في الصباح لنائبه:

"إن الرئيس سيلقي خطاباً مهما اليوم على الشعب"

وجلس على مكتبه ليكتب هذا الخطاب الهام بنفسه، لكنه فوجئ أمام الشعب أنه يقرأ خطاباً غير الذي كتبه، ولم يكن ثمة مخرج بالتوقف عن القراءة، فقد كان مضوي أمام الأمر الواقع.

جاءت كلمات الخطاب وعباراته منسقة ومدبجة بطريقة أفضل بكثير من خطابه المستبعد، هذا ما شعر به مضوي، عندما سمع تصفيق الجماهير في الساحة.

هكذا كانت الأعوام تجري.

***

الثورة تدخل عاماً بعد عام واحتفالاً بعد احتفال، دون أن يفهم مضوي ما الذي يحدث من حوله، ودون أن يفكر في

خطوة عملية لمراجعة ما يجري أو يعد السنوات التي قضاها في الحكم. فقط كان يكتفي بالسؤال المعتاد:

"ما الذي يحدث يا إلهي؟"

كان متأكداً إلى اللحظة التي أعلن فيها بيانه الأول أن كل شيء تحت قبضته، أو هكذا يتخيل الآن.. عموما فإن هذا الحُكم لا يصلح الآن، فالواقع الذي يعيشه الرئيس ويعلمه وحده لا غير، يخبر عن أشياء كثيرة تحدث، لم تكن مفهومة، إذن لمن يمكن أن يوجه سؤاله: "ما هي حقيقة ما يحدث؟" وهو لا يثق في أي فرد من حوله، لا يثق فيهم حتى لو أنهم حرصوا على أن يكون هو السلطة الأولى في نظر الشعب، حتى لو كانوا حماته من الزوال والموت.

تتعقد الأمور شيئاً فشيئاً، حتى أنه من الممكن القول بأن هناك دولة داخل الدولة.. دولة معلن عنها برئيس يظهر في وسائل الإعلام، ودولة أخرى خفية هي التي تتحكم في سريان الأحوال في البلاد، كان هذا اعتقاد الرئيس نفسه، وهو يتذكر ما جرى قبل عامين عندما كانت رغبته التي أعلن عنها أكثر من مرة أمام مجلس قيادة الثورة، بأن تسعى الدولة لوقف الحرب في الجنوب، لكن الحرب كانت تستمر وكثير من وصايا الرئيس تستبعد من المفاوضات في اللحظات الأخيرة، ليصل التفاوض في نهاية الجولة إلى النقطة التي بدأ بها.

ولأن رغبات الرئيس الخفية المندسة في باطنه العميق، عكس ما ينطق به شفاهة في معظم الأحيان، لهذا كان يعزي نفسه بأن أعوانه يدركون رغباته الحقيقية فيسارعون لتنفيذها فيتحقق مناله دون أن يطلبه مبباشرة.. فهم أعوان مخلصون، ويبقى الهاجس المسيطر على عقله: "هل يعلم هؤلاء الكلاب سرائر النفوس؟"

***

كان أن ضاقت أحواله، بعد يومين من الاحتفال بعيد الثورة للمرة الـ (....).. يعجز عن التذكر كم جلس على العرش من السنوات، تملكته رغبة جامحة في التحدث بصدق مع شخص ما، تكلم مع نفسه:"من يكون هذا الشخص؟ هل يكون زوجتي عائشة التي لا تفهم في أمور السياسة والحكم، حتى لو أنها عينت بقرار جمهوري رئيساً لاتحاد المرأة في الدولة، وشاركت في عشرات المؤتمرات المتعلقة بحقوق النساء داخل البلاد وخارجها؟ وحملت بمرسوم جمهوري لقب السيدة الأولى؟!"

أثناء التفكير المتقطع والهواجس المتلاحقة في العقل، توقف مضوي فجأة، وقف من على مقعده في الحديقة وراء النخلتين، عندما تذكر الرجل الذي تنبأ له قبل سنوات بعيدة بأن يكون رئيساً، حتى لو لم تكن نبوءته قد جاءت بشكل مباشر، الفقير عطا الله، قفز الاسم لذهنه.

لم يمهل نفسه حتى الصباح ليرى أين يكون الفقير عطا الله، هل هو حي أم ميت؟ ولو كان حيا هل هو قادر على قراءة الغيب كما كان يفعل في الماضي أم لا؟

وجه الرئيس أوامره في ذاك الليل بأن يؤتى بالفقير عطا الله، حتى لو كان في باطن الأرض، ميتا.

مع مثل هذه الأوامر العاجلة والمفاجئة يتحرك الأعوان بشكل سريع جدا، ويكتشف مضوي مع تحركات أعوانه أنهم رجال مخلصون للحاكم الفعلي، ولن يكون هذا الحاكم إلا هذا الرجل الذي اصدر الأوامر قبل قليل، ويحدث نفسه بفخر:

" إنه أنت لا غير.. أنت الذي يحكم"

قبل أن يندلق ضوء الصباح، وتنتهي تساؤلات الرئيس:

"ما الذي يجري من حولي يا ربّ؟"

كان الفقير عطا الله حاضراً.

كيف عثروا عليه وأين؟ في الرميلة أم في بقعة نائية أخرى من بقاع البلد؟.. لم يكن كل ذلك مهما لمضوي. ما هو أهم، أن الفقير عطا الله قائم بشحمه ولحمه، يقول شكله أن سنه لم تتقدم رغم السنوات الطويلة، ومن عينيه فاض بريق تلاحم مع نسمات الفجر الأولى، فجر السابع من ديسمبر.

اعتقد الحاج مضوي أن الفقير عطا الله سيغسل له روحه، ويجعله يولد من جديد، منفكاً من رهق السلطة والسلطان.

أمام الفقير جلس الرئيس مثل طفل واضعاً يديه فوق رأسه كنوع من التبجيل والاحترام، كان في قرارة نفسه يشعر بالحاجة لمثل هذا السلوك حتى يطهر الذات في حضرة إنسان صادق لم يتدنس بقذارة الدنيا.

لم يحتاج الفقير عطا الله إلى كثير شرح ليفهم الحالة التي وصل إليها مضوي، فقد كان يرى كل شيء منذ طفولته. كان متأكداً إلى مدى بعيد، أن الحياة سوف تقوده إلى الحكم، وإلى هذه الحالة من القلق، وحدثه بهدوء بعد أن جلسا سوياً في غرفة مغلقة وحيدين:

"أعرف ما تعاني منه.. من الخطأ أن تعلن الاستسلام، لأنه حتى لو تراجعت فلن يتركوك وشأنك.. لقد جئت إلى العالم أبيض بلا أعداء، أما اليوم فما أكثر أعداؤك. لكن عليك أن تدرك أن أكبر عدو للإنسان هو رغباته السيئة وروحه القذرة"

لم يتمالك الرئيس نفسه وبكى بصدق، وسأل الفقير عطا الله:

"وما تراني فاعل بعد كل الذي حدث؟"..

سأل وكان لديه يقين كبير أن الفقير يملك الحل.

***

منذ طفولة مضوي كان عطا الله مرجعاً لسرائر البشر وكاتماً لغيبهم، وكان الناس يقولون أن عطا الله منحه الله صفة لم يمنحها لأحد من العالمين من قبل، فهو إذا أراد شيء، قال له كن، ولاشك أن هذا الشيء المراد كائن بإذن الله، وكانوا يصفونه بفقير ناسك مغسول الروح، منفوخ من روح الله كسائر العالمين، غير أنه عرف كيف يجعل حياته طاهرة، ونفسه مجردة عن البغضاء والشر، وقد تعلم الكثيرون منه أن أكبر ذنوب الإنسان في الدنيا مردها إلى النفس الشريرة، فالإنسان الذي يعيش بالقلب الصادق المحب، يكسب رضا الآخرين، وينفخ روحه بالسلامة وحسن الإقامة في الدارين.

أجاب الفقير عطا الله على سؤال مضوي قائلاً:

"لو حدثتك لقتلتني.. أعرف أن الشر قد طمر قلبك وغطاه تماماً"

"وهل غاب الأمل يا سيدي؟"

"لا يغيب الأمل، طالما حل الرجاء في القلب!"

"وكيف ستعينني إذن على إحلال الرجاء في القلب الفاسد؟"

"اعترافك فضيلة.. وهذا أول العون، فأصبر.. ولو أطعتني لوصلت بك إلى بر الخلاص"

فكر مضوي سراً: "ما هو بر الخلاص الذي يتحدث عنه الفقير عطا الله.. هل هو العودة إلى حياة البؤس وملاحقة الماضي المظلم، أم أنه سيادة العدل في البلاد بعد أن وصلت أخبار الظلم والفساد لكل أذن؟"

قبل أن يسترسل في محادثة نفسه سراً، ضحك الفقير ضحكة غريبة.

لم يتعود مضوي على رؤية الفقير ضاحكاً بهذه الطريقة العجيبة من قبل، الرجل عاشق للنكتة، لكنه لا يضحك بطريقة تثير الاستفزاز.

فكر مضوي في الأمر، وهنا دخل قلبه الشك، فقلوب الزعماء لا تعرف الطمأنينة أبداً.

حاول مطاردة الشك باليقين، مفكراً أنه إذا استمر في شكه فسوف يقتل آخر خيوط الأمل في الخلاص.

قبل أن يكمل أفكاره، قاطعه الفقير عطا الله قائلاً:

"أعرف ما تفكر فيه.. إنك بهذا الشكل، تفقد الأصدقاء.. وأعلم أنه لا أصدقاء لك الآن إلا الفقير الذي يجلس معك"

تحرك قلب مضوي وخفق بشدة، كاد أن يتكلم:

"سيدي لكنك تعلم حالي وأنني أصبت بداء الشك وقد عجزت عن علاجه"

كان الفقير قد وصل لقناعة مفادها ألا أمل في إصلاح قلب تدنس بحب الدنيا..

"صحيح أن هناك بقع صغيرة من النور داخل هذا القلب، لكنها لا تكفي لكشف حجب الظلمات"

وقرر ألا يستسلم لقناعته، فقد تعلم من علاقته مع العالم ألا يركن المرء في هذه الحياة لليأس، فكم من الحالات التي استعصت على العلاج، جاء شفاؤها، بعد أن طال اليأس.

استمر الفقير يحدث نفسه بصوت مسموع للرئيس: "إذا كان مضوي يظن أنه أول من التجأ إلى من رؤساء هذه البلاد فقد أخطأ الظن.. لكنني لن أخذله ولن أحدثه بالسر: أن مفاتيح قلوب الحكام عندي، أسيّرها كيف شئت، إذا طلبوا عوني"

***

"لعله من الصعب الحكم على ما يتصوره الفقير عطا الله، كذلك ليس بالسهولة أن يقال أن الفقير رجل سليم القلب"، فكر مضوي بهذا الشكل وواجه الفقير بهذه الأفكار

التي لم يتردد في قولها، بعد أن سمع ما جهر به لسان عطا الله من كلام يدعو للشك.

كان أن التمعت عينا الفقير وضحك مجدداً، ولكن في هذه المرة تحولت عيناه لشرار مستطير، وشعر مضوي بأن الفراغ من حوله يضيق عليه بشدة، وثمة حمى تحاصر الجسد وصرخ ساقطاً على أرض الغرفة، حيث دخل في غيبوبة اقتربت به من الموت.

أفاق الرئيس من الغيبوبة بعد أسبوع.. كان قد حُمل على طائرة خاصة للعلاج في إحدى المستشفيات العسكرية بباريس، وكان أول ما تبادر إلى ذهنه عندما رأى الممرضات الفرنسيات من حوله، أن يسأل: "أين الفقير الفاسق؟"، لكنه لم يقدر على السؤال، إذ شعر بغصة في حلقه، وعجز عن الكلام، واحتبس نفسه مجدداً، ثم بكى.

كان برعي حارس الرئيس الشخصي واقفاً إلى جواره بمحاذاة السرير الممتد لمترين ونصف المتر، وقد بدأ عليه الإرهاق والخوف على مصير الرئيس وصحته، فهو يحبه حباً صادقاً، ليس لأي سبب يتعلق بكونه الرجل الأول في البلاد، بل لإحساسه بحالات مضوي التي بدأت في تشكيل قلقه منذ سنوات.

ظل برعي يتابع هذه الحالات عن كثب بحكم عمله وملاصقته للرئيس في الحل والترحال، ولم يكن يحكي لأحد

عمّا يلاحظه من توتر وقلق، فهو لا يثق بمن هم حول الرئيس من أعوان يمكن أن يسربوا الخبر فتكون العواقب وخيمة عليه، وكان يفكر أن بعض الأعوان الأفاكين قد يقومون باستغلال حالة الرئيس لمصالحهم الذاتية، إذا علموا بالأمر، فقد كان يعلم كم من حول الحاكم من كذابين ومتسلطين ومدّعين، ينتظرون لحظة عابرة يغفل فيها، ليعيثوا فساداً بحق وحقيقة في البلاد، أكثر مما هم عليه من فساد حاصل وحرص على مصالحهم التي لا تخلص.

شهد برعي اللحظات الأخيرة لموت الرئيس كأنه لم يكن جزءا من العالم ذات يوم، صرخ صرخة مكتومة ثم ذاب في الأفق.. كان ما زال يصرخ بتوهيمات وكلام غير مفهوم في حين تراًى لبرعي صورة شبح يتقدم نحوهما كأنه ذلك الفكي الذي صرخ الرئيس باسمه كآخر كلمة نطق بها.

زيس

ها هو زيس يتلمس طريقه ليصل إلى كوخه في غابة قليلة الأكواخ. بعد قليل سيدخل عالمه الجميل.. عالم الأحلام والرؤى والخيالات المنامية الحلوة. كان هذا عالمه بالضبط، دون زيادة ولا نقصان. لكن لديه عالم آخر في الصحو، هذه المساحة الخضراء، الممتدة بلا نهاية، والتي كلما حاول الخروج منها، وجد نفسه، من جديد، يقترب من كوخه.

عادة ما يأتي أول شهر أمشير محمولاً على عجل، بالرياح القادمة من الشمال، من جهة الصحراء البعيدة، وفيه يشعر زيس كأنه عصفور حديث الولادة فقد أمه في ليلة عاصفة، ذلك لأن هذا الشهر مغلف بالغبار والوحدة في غابات استوائية، يكون فيها الشعور بالدفء، ممتزجاً برائحة المجهول والحزن العميقين، ساعة تكون الرياح سريعة، تسابق كل شيء، حتى الحواس المرتبكة، تخبط على الصخور وأبواب الأكواخ الغائرة في متاهات تحت الأرض، معها يتخيل زيس أن زائراً قادماً في آخر الليل.

عادة يعود زيس متأخراً، من رحلته على ضفاف البحيرة، بعد أن يعبر مساحة ملونة بالذكريات الغائبة، على جانبي طريق مفروش بالورود ذات الألوان المتشاكسة.

يصل إلى باب الكوخ القائم وراء تلٍ من العشب، حديث النمو. لا يطرق الباب الحجري، يزيحه بهدوء، وغالباً ما يكون مفتوحاً، يدخل إلى الصالة المرتفعة ذات الأقواس المزخرفة بنقوش متداخلة، قبل أن يعبر إلى الحجرة التي ينام فيها مع أخوته. قبل أن ينام، يكون قد تذكر أنه جائع، وعليه أن يدخل المطبخ القائم في ركن قصي من المغارة بحثاً عمّا يؤكل. أحياناً يجد ما يطعمه، وفي أغلب الأحيان لا يجد طعاماً، فيظل يعاني مع هواجس وجعه حتى الصباح المتأخر.

نادراً ما يستيقظ زيس مع الفجر، فهو ينام متأخراً جداً، بعكس عادة الناس في غابة شبه منسية، يهجد سكانها ما قبل السابعة مساء، وقبل أن تأتي العاشرة، تكون كلّ الأشياء والكائنات قد استسلمت للموت المؤقت، إلا زيس، فها هو في هذه الليلة من أمشير، يقطع الطريق الذي رآه طويلاً إلى الكوخ، لا كما تعوده. حدث نفسه: أنه ربما أخطأ الدرب مع العواصف والبرد، لكن الدرب كان محفوظاً، فمن ينسى دروب أرضه؟ إنها لا تُنسى، هي جزءٌ من الروح والجسد.

بعد ساعة اكتشف أنه قد أخطأ الطريق بالفعل، وخاب حدسه ويقينه تجاه ما اعتقده، من ثقة مفرطة بالذاكرة التي لا تمحو الأشياء، فالأرض أحياناً تلعن أهلها، والدروب تتمرد، وكانت تلك الليلة بداية لتمرد كبير للطرقات المألوفة، التي تعود زيس المشي عليها، لقد انقلبت ضده.

وقف لدقائق يحاول أن يستجمع ملامح المكان، لكن الرؤية كانت عسيرة، بحيث صعب عليه تماما، أن يعرف: أين هو بالضبط!! ومن جديد حاول أن يلم تفاصيل جسده، بعد أن تناثر جسد الطريق، فصعب عليه الأمر.

***

كان جسده قد تحول لقطع عديدة، تناثرت من حوله، في لحظة شعر معها بالخوف الحقيقي، لأول مرة في حياته، ذلك الخوف الذي هاجمه كنمر ينهش الأحلام، والقدرة على صناعة الحياة، كان بالفعل نمراً حقيقاً. طالما تحاشى دروب النمور وهي اليوم تصطاده.

حاول أن يقاوم النمر، لكنه كان شرساً، قاسياً، لا يعرف الرأفة، وظل يطارده هنا وهناك في الغابة الواسعة، يتابعه كظله، تحت القمر، وتارة كروحه، لا يخرج عنه، ولا يبتعد منه.. وحتى عندما اكتشف أنه لم يتمزق بعد إنما ذلك خيال، كان عليه أن يهرب ويهرول ويقفز ويمارس ما شاء لينجو من هذا الكائن المتوحش.

هي لعنة، كانت لابد أن تصيبه، أن يعيش مغلفاً بحالة خصام كبير مع الوجود والكائنات أجمع، ومنذ تلك الليلة أصبحت الطبيعة عدوه الجديد بكل ما فيها من أحياء وجمادات، فبعد أن عرف عداوة البشر، وأصبح بلا أصدقاء منذ زمن، ليفهم أنه لا أحد في العالم يحمل هم إنسان آخر، هاهو قد قرر اليوم قراراً مهماً سينفذه إذا نجا من النمر.

***

عند ساحل البحيرة، شعر زبس بجسده يتثاقل ويعوي كالذئب، لقد أصبح هو الآخر مفترساً، استطاع أن يعض

النمر وينهشه نهشاً. رأى الدم وقد سال من فمه، كيف حدث ذلك، ليس بإمكانه أن يفهم. المهم أنه قد نجا وقرر.

ودمعت عيناه شديداً، كانت ثمة رائحة غريبة تحاصره، تنبح فيه، والناس من حوله تمشي عراة والريح تصيح.. العالم كله يصيح: "زيس.. زيس.. البطل زيس"

أما هو فغير مكترث.. لقد أدرك الحقيقة وفهم الدرس.. ولن يخدع بعد اليوم..

***

استيقظ في حالة فرح طفولي، يسأل نفسه:

"هل هذا أنا؟ وهل قطعت الرحلة من هناك إلى هنا؟ وكيف وصلت ونجوت؟"

تزاحمت صورة ولد مضطهد في حياته وصراعه من أجل البقاء، مع صورته الشخصية في دماغه، عندما تذكر أحد رفاقه في الغابة، والذي كان يعد العدة ويرتب أحواله للسفر في الصباح إلى مدينة تقع وراء البحيرة، ليحضر اجتماعاً لمساعدي زعماء الغابات.

قال له (بالا):

"لقد كرهت السفر"

فهم زيس أن رفيق طفولته يعني كراهية السفر ليوم واحد، فبالا يحب الأسفار، ولا تقلقه أبداً، لكنه يكره السفر القصير، والاستيقاظ مبكراً لأي مهمة رسمية يقوم بها بوصفه أحد مساعدي زعيم الغابة، لكنه لا يحب أن يقال له إنك تستيقظ متأخراً، لا يحب أن يشار إليه بوصفه كسول أو غبي أو أي صفة ذميمة. وزيس يعلم أن كثيرا من هذه الصفات تنطبق على بالا، وأن القدر اختاره بطريقة خاطئة ليكون مساعداً لزعيم الغابة، فلو أن الحياة منصفه لكان زيس مكان بالا الكذّاب والمداهن.

فهم زيس أن صديقه يظهر تفوقه عليه بإخباره عن سفره، لهذا لم ينتظره حتى يركب فيله العالية يصعد إليها بالسلم الخشبي المدرج، عائداً إلى مقر الحاكم. يعني لم يحفل زيس ولم يهتم، وفي تلك الليلة قابله النمر، حتى أنه شك لاحقاً أن الحكاية مكيدة مدبرة للتخلص منه. فحتى لو كنت لا تملك أي سلطة فسوف يسعون للقضاء عليك هنا، لو أنّ لك عقل، هذا فحوى الدرس الذي أدركه.

***

انتهى زيس من أسبوعين حافلين بالأحداث، لم ير فيهما ما يعجبه، ولم يطرب قلبه للقصة المتناقلة بين الألسن عن شجاعته في موقفين.. كيف استطاع أن ينهش النمر وكيف تحدى صلف بالا وغروره.

كان حزيناً حتى لو كانت الأسباب مدركة أو غامضة، هذا ليس مهماً، المهم له، أنه فقد أي معنى للحياة، ولم يعد يرى روحه، أو يتلمسها، بين عدم الرغبة في الوجود، وقدرته العجيبة على الانكسار، وهو يستغرب لنفسه، كيف ينكسر رجل هزم الوحش؟!

في وحدته يتذكر كيف أنه ومنذ سنين خلت أدمن السهر، دون جدوى وهو يتسكع في دروب الغابة، لا عمل لا له ولا قيمة.. الحياة تعانده أم البشر؟! لا جواب عنده.. الآن يتكرر الروتين بطريقة مختلفة، خاصة بعد أن كبر أخوته وسار كل في طريقه ولهذا لن يعود مشغولاً بأمر تدبير الرعاية لهم كما في الماضي.

وفكّر كيف تغيرت طباع الناس في الغابة، بل أصبح هو شخصياً يعاني مع توحده، وإدمانه تدخين الحشيش المخدر، وقد كان في ذاك الزمن البعيد، لا يحب رائحة الدخان، ولم تكن والدته تتخيل أن ولدها زيس سيصير مسطولاً فاقداً للوعي في دروب الغابة الوعرة ذات يوم.

ان تتحول لصعلوك في الغابة، يعني أن تتجرد عن قيم وقوانين المجتمع، وتمارس غير المألوف، في مكان لا تحترم حقيقته المستبطنة سوى الجنون، وقد كانت فكرة الخوف من الانتساب لفئة الصعاليك مدفونة في نفس زيس، لهذا لم

يكن قد جرب الحشيش في صباه، وعاش لسنوات محفوفاً بالخوف والقهر، الذي يحاصره حتى الآن، هذا الخوف الذي يجعله متردداً أو غير قادر على المجابهة وتسيير أموره في الغابة، والخوف حتى لو أنه صرع النمر.

***

ترك زبس الأكل، كما يأكل الناس، ربما بسبب تدخينه الكثيف، أو بسبب السهر، والنوم إلى منتصف الظهيرة، في حالة من الكوابيس والأحلام المقلقة، التي كان يتسلى بها، ويجدها ممتعة في أغلب مناماه، وبدأت عادات وقناعات غريبة تمزق علاقته مع دنيا الغابة، مثل يقينه بأن الأحلام حياة أخرى، لا يعترف الناس بها، ولا يضعون لها كثير اعتبار، لهذا لا ينجحوا في تذكرها دائما. ما زالت بذاكرته قصة قديمة.. يوم ضحك عليه أخوته وهم يرونه جالساً في صالة الكهف بالبيت، يقرأ في مخطوطة جلدية لتفسير الأحلام، كان قد اشتراها من معرض لجماعة من السحرة العابرين بالغابة، والذين جاءوا من بلاد (البرنو)، لكن تفسيرات المخطوطة للأحلام لم تعجبه، فقد بدأت له ساذجة.

يعتقد زبس أن هناك مفردات جديدة دخلت في حياة الناس، لم تكن معروفة في الزمن الذي كتبت فيه مخطوطة تفسير الأحلام، التي يعود تاريخها إلى ألفي سنة قبل ميلاد الإله (بادا) المقدس لأهل الغابة. ولم ينتهي شغفه.. حيث

حصل لاحقاً على مخطوطة حديثة لذات الموضوع الذي يشغله، يعتقد كاتبها أن الإنسان ظل يحلم بالطريقة نفسها منذ عصور ما قبل (بادا) وإلى الآن.. أيضا لم تقنعه المخطوطة الجديدة، فقد شك في ما ذهب إليه الكاتب، فالأحلام في نظر زيس تتطور وتتقاطع مع الحياة الجديدة.

***

مرت شهور، استرخى فيها جسده قليلاً، كان لابد له أن يعود نشطاً ويندمج في الحياة. فحتى لو كان رأسك مزدحما بالأفكار وأنت البطل الأوحد، فالمطلوب أن تأكل ولا أحد يمنحك الطعام مجاناً، لهذا عاد زيس لحرفته القديمة.. الصيد.. حيث كان يخرج في رحلة يومية للصيد، على ضفاف البحيرة، مبكراً، بعكس كل الأيام السابقة حيث النوم إلى الظهيرة، وبدأ يُعوّد نفسه على أن يصبح في حالة يتداخل فيها الاستياء مع الفرح، ومن ثم ينام مع دخول المساء، ليستيقظ ما قبل الفجر، يفعل كأغلب الناس في الغابة.

أثناء طريقه إلى البيت، كان يستمع لغناء ينبعث من مسافة قريبة، لكنه لم يرَ شيئاً، رغم أن الشمس لم تغب بعد، ودخل الكوخ، ليدخل في عالم الأحلام مع النوم، كان سعيداً جداً فهو تقريباً ومنذ شهر لم يكن قد نام مبكراً كهذا الوقت. أن تكون الشمس لم تتدلى وراء الجبل والأشجار الباسقة بعد.

مع استيقاظه، شعر بأن الصحو المبكر غسل أشياء كثيرة عن ذاته، واكتشف كم هو مدمر هذا السهر القاسي، إن راحة الإنسان في تمثيل دوره الطبيعي أن ينام مع الطيور ويستيقظ قبلها لو استطاع ذلك.

***

خرج إلى الفضاء المجاور للكوخ عند التل، وتوقف عند بركة ماء صغيرة، نظر فيها إلى وجهه يسأل نفسه أو كأن صوت يكلمه:

"نعم كان كل شيء ممكناً قبل تلك السنوات، فالماضي هو الإناء الوحيد، الذي يمكن أن يسكب فيه الإنسان كل أمانيه ويلونها، ليقول إنها ستكون، لكن عندما يدخل الحاضر، يبدأ في الفهم بأن القلق يجب أن يستمر ويتعاظم"

رغم الإحساس بالنشوة والحبور في هذا الفجر الباكر، فقد كان زيس لا يزال تحت تأثير الإحساس بفقدان العدالة، الشعور بأنه مظلوم، وأنه يظلم بعض من يحبونه، دون أن يحدد من هم بالضبط، ربما أخوته الذين لا يعرف عنهم أي شيء.

***

مع الفجر انسحب كل بساط الفضاء اللامكاني واللازماني، على هيئة أرض ممتدة. كان زيس يقف قريباً من المغارة التي تعرف فيها على معلمه الأول، الكاهن (شونتيالاغوسو)، حيث تلقى معرفته الأولى والجادة، سراً، عن أسرار العالم وألغازه. وحيث بدأ مرحلة جديدة من حياته لم تكتمل وتبددت مع الأيام والسنين.

سمع الرجل يخبره:

"يوم صرعت النمر نلت ثقتي"

قال لمعلمه الذي يحس بوجوده إلى جواره في هذه اللحظة بالتحديد:

"نعم.. ولكن سيدي أنظر كيف أن مغارتنا القديمة قد تحولت إلى مغارة صغيرة جدا"

"أتعني أنه لا يمكن استعادة مجد الأمس؟"

"علمتني أن كل شيء ممكن.. لكن الشك ما زال في قلبي"

قبل أن يسمع جواباً.. انتبه زيس أنه وحده، وأن المعلم غادر الغابة الأرضية قبل سنوات، إلى القمر ليعيش خالداً هناك، بعد أن ترقت روحه ليكون إلهاً أو إنسانا خالدا، هكذا يحدث مع الناس الأخيار في الغابة. ومنذ صغره تمنى زيس أن

يكون من سكان القمر، وأن يذهب بالا المخادع إلى العدم، فالأشرار لا خلود لهم.

استعاد معارفه التي اكتسبها من المعلم شونتيالاغوسو ليفهم سبباً للتصورات التي حاصرته مع هذا الفجر، بجوار البركة، هل كان يريد أن يفهم أن المعرفة بالوجود تدنت وبئست في الغابات؟ ولم يعرف جواباً لما سأل، إلا لاحقاً عندما بدأ في النحت على الصخر، على ضفة البحيرة.

***

نحت زيس على صخرة كبيرة، رجالاً ونساء عراة، في كرنفال ضخم يشبه احتفالا رآه في الحلم، ليلة الأمس، كانوا يباركون نجاحه في اصطياد أسماكاً كثيرة، ملونة، لم تشاهد في البحيرة من قبل.

داخل الصخرة أو داخل الحلم، قال رجل لزيس:

"إن هناك حدثاً عظيماً يجري في مغارة معلمك شونتيالاغوسو"

لم يصدق كلام الرجل، بل أحس بالضياع، ورأى أن عظمة المعلم تتضاءل مع الأيام، وتذكر كم من السنين قضاها، وهو يجري وراء معلمه، متخبطاً في ردهات المغارة،

حتى يجيب له شونتيالاغوسو على سؤال كان يقلقه، يبحث عن إجابة شافية له، لكن ذلك الزمن قد مضى ولا عودة له.

بعد موت المعلم ومع السنوات تعود أن يمشي متثاقلاً، يتلفت يميناً ويساراً، ليتوقف مرات نادرة، قريباً من البحيرة، حتى لا يعبر بأطياف شونتيالاغوسو..

يتوقف مستمعاً لمطارحة يشارك فيها شعراء كهول من الصيادين القدامى، وبين الجمهور الذي يحضر المطارحة، يرى وجوها بعضها مألوف، رآها ذات يوم مع المعلم، وبدا له المكان مع أول المساء، يشبه ساحة قديمة عبر بها وحيداً، ولم يعبر بها مرة أخرى، قامت ليوم واحد، إلى جوار مغارة المعلم، ثم اختفت، وعليها نظمت حلقات شعر، كان زيس يشارك فيها، ويكسب رضا الجميع بلباقته وفنه.

حدث نفسه متسائلاً:

"لماذا لا تشارك الآن مع هؤلاء الكهول في المطارحة، هل تخاف أن يهزموك؟"

شعر بالخوف وانه جبان، ما دام لم يتجرأ على الدخول في المطارحة، فالكهول قدموا له الدعوة لمبارزتهم باللسان، لكنه أدرك السبب.. ليس أنه فقد الموهبة ولا خبرات الماضي. أن ينحت ويرسم على الصخور وأن ينشد الأشعار الملحمية ويغني عازفاً على المزامير وحده في الليالي الموحشة. لم يفقد أي

شيء.. سوى أن الخوف لم يبرحه كلما تخلص منه عاد وسكنه. ففي اللحظة التي يكاد قرر فيها أن يستجيب لدعوة الشعراء الكهول كان قد تذكر اللدود بالا، الذي يتحين فرصة ليقبض عليه متلبساً مع الكهول لأن أشعارهم كانت غير محمودة والكل يعرف ذلك ويتقاضون الطرف عنهم، ولكن إذا دخل معهم زيس فالأمور لا شك سوف تتغير. الوجه الآخر من الخديعة ويعلمه زيس تماما أن الكهول مداهنون يريدون أن يورطوه وينتقموا منه لهزائمهم القديمة في الشعر من هذا الشاب غريب الأطوار.

***

هرب زيس من الكهول، خلسة، حتى لا يحشر نفسه في أمر لا تحمد عقباه. فبالا يدعيّ أمام الملأ أن الصداقة التي بدأت في الطفولة، لم تمت بعد، لكنها بالنسبة لزيس ماتت وغبرت في الذاكرة، ومثل بالا لا يمكن الثقة فيهم أبداً. والناس تسمع ولا تعلق، وهي حتماً تفهم كل ما يدور في الغابة.

***

بجسارة وشجاعة كبيرة، وجد زيس نفسه يدخل المغارة التي لم يدخلها منذ خروجه منها، عندما اختلف مع معلمه –لاحقا تصالحا- فوجد داخلها صالة سقفت بمعادن نادرة، على هيئة شبك متقاطع، ورأى بالداخل بالا بلحيته السوداء

وقامته القصيرة، وثوبه المميز من الجلد الراقي، بقميص أزرق من الصوف، عليه مربعات صغيرة سوداء، حيث لم يتوقع أن يراه في هذا المكان، فالعادة أنه في القصر.

حاول أن يخرج بعد أن ورّط نفسه، لكن بالا تعامل معه بحميمة، رغم أنه لم يصافحه يدا بيد.

حدث بالا زيس أنه جاء هنا، ليتذكر سنوات المعرفة الأولى بينهما، وقال وهو يبكي أم يتظاهر البكاء ليس من تمييز:

"صدقني أنني نادم على مغادرتي المبكرة للمغارة، لقد كان شونتيالاغوسو يملك حكمة العالم، التي كسبتها أنت منه، أما أنا فلم أتعلم شيئاً، وما زلت متخبطاً في الحياة"

لم يصدق زيس طبعا ما يحدث، وظن أنه يحلم.. فهو رجل الأحلام وعاشقها.. لكن هذا واقعي..

"هذا واقعي يا رجل.. أنت لا تحلم"

كلم نفسه وضحك زيس في سره، وقال لبالا:

"أسألك بالإله (بادا)، من منّا كسب الحكمة، أنت الذي تعمل مساعداً للسلطان وزعيم الغابة، وتعيش غاية السعادة، أم أنا الذي أترنح بالتيه، لا أعرف ماذا سأفعل في يومي، دعك عن غدي"

ثم أكمل بشجاعة فائقة:

"أعرف أنها حيلة جديدة لتقبض علي بها وتزجني في سجنك أو تقتلني.. كن شجاعاً ونفذ ما تريد الآن أنا أمامك، من تخاف هل تخافني وأنا مجرد من السلاح"

أجاب بالا ببرود:

"أخاف عقلك يا زيس.. أنت عقل جبار"

قال بالا ذلك ولم يسمع بعدها لرد زيس أو يرى زيس طبيعة مشاعر الرجل أو كيف كانت تعابير وجهه ليفهم جديته من هزله، أو نيته ما هي بالضبط.. إذاً لم ينطق بالا بشيء. كان قد خرج بسرعة مع اثنين من مرافقيه، ركبوا أفيالهم في طريقهم إلى القلعة المبنية فوق أعلى الجبل قريباً من القصر، تحت المعبد الكبير للإله المبجل بادا.

***

انتهى زيس من المنحوتة الكبيرة، قبل الظهيرة بقليل.. كان قد تعلم مهارات النحت على الصخر من معلمه يتياناي، الذي ظل يلقنه دائما:

"إن النحت يعني نوعاً من السيطرة على الأشياء والكائنات، والقبض عليها بقوة الإنسان الخالدة في هذا الكون"

يقص المعلم قصصاً كثيرة عن رجال دخلوا الخلود، لأنهم نحتوا أشياء نادرة لا تتكرر، هم لم يقلدوا ما أنتجته الطبيعة، ولا ما منحه الإله بادا للإنسان، لكنهم صنعوا أشياءهم المتفردة في العالم، ومنهم (يتياناي)، النحات الخالد، الذي عاصره زِيس، في آخر أيامه في العالم الأرضي، قبل أن يصعد إلى القمر، ليسكن هناك مع روح الأجداد الخالدين.

تعرف زِيس على يتياناي مع شونتيالاغوسو، ورغم تقدم سنه قرابة المائة كان قادراً على النحت، وكان عجوزاً يستعين به بعض زعماء الغابات في مدّهم بأفكار خلاقة لبناء منحوتات في قصورهم الفخمة، حيث يقوم شبان صغار على إنجاز هذه المنحوتات، في أيام عديدة، لأن سرعة يتياناي قد تضاءلت حتماً حتى لو أنه احتفظ ببراعة اليد وحرفتها.

يسترجع زِيس ذلك، وأن يتياناي في آخر أيامه، كان قد أصرّ عليه بأن يعمل معه في ابتكار الأفكار للمنحوتات العظمية، حتى يرث هذه الحرفة التي تجلب المال الوفير، من بعده. ورفض زِيس، لأن معلمه شونتيالاغوسو غمز عينيه في إشارة فهمها التلميذ في الحال، فقد تعلم زِيس من المعلم أن النحت والرسم والشعر، وفنون الحياة، يجب أن توظف لخدمة الإله بادا، ولخلود الذات الإنسانية، ولا توظف في خدمة زعماء الغابة.

كان ثلاثتهم جالسين عند ضفاف البحيرة. وفي طريق يتياناي إلى مغارته، حيث يعيش وحيداً، حاول مجددا أن يقنع زيس، لكنه رفض.

لاحقاً، ندم زيس، بعد خلافه المؤقت مع المعلم شونتيالاغوسو، وشك في نواياه، وظل يداوم على زيارة يتياناي في مغارته، وراء الجسر الذي يربط إلى طريق يؤدي إلى معبد بادا. وقد بُني الجسر قبل ميلاد زيس، وقبل ميلاده بقليل كان قد اكتمل، بزرع أسطوانات ضخمة من الصخر في الأرض الصلبة، لتغوص بعيداً جداً في باطن التراب الطيني، إلى الماء العميق، وأصبح الجسر ممهدا لسير الأفيال السلطانية، ودواب سكان الغابة، التي لا يسمح لها بالعبور، إلا بعد تصديق خاص من القصر.

***

أثناء جلوس زيس مع يتياناي، قبل موته بأيام قليلة، حكى النحات العظيم عن منحوتة يحلم بإنجازها منذ صباه، كلما اقترب من العمل فيها، وجد أن أمراً ما، لا يعلم ما هو، يجره ليتوقف عن التفكير، وطلب من زيس أن يحفظ الفكرة جيداً، فربما استطاع إنجازها ذات يوم، ليكسب بها رضا الإله، وقال له بالحرف الواحد:

"هي العمل الوحيد الذي يجب ألا يتمتع به سلطان، فهو إن أنجز خالصاً للإله، حصد صاحبه السعادة الأبدية"

وكالعادة في مثل هذه الأمور الحساسة، فقد أوصى يتياناي زيس بألا يحكي السر لأي إنسان، مهما كان، خصوصاً شونتيالاغوسو.. لكن زيس في أحد الأيام بعد موت يتياناي، كاد أن يحكي قصة المنحوتة العظيمة للمعلم شونتيالاغوسو.

كانا جالسين سويا بعد عودة المحبة بينهما، في لحظة صفاء خالص، وتوقف زيس فجأة عن الكلام، بعد أن نطق بعبارتين:

"لقد أدرك يتياناي سر السعادة الأبدية، لكنه...."

تغيرت ملامح الوجه، وأحس زيس بشيء غامض يحوم أمامه، ولاحظ المعلم التغير في هيئة تلميذه، فضحك، ومع الضحك انتهى أمر السر، ودفن إلى الأبد في نفس زيس.

***

مرت بزيس، بعد موت معلمه، سنوات لم يعد فيها مرتبطاً بالماضي، وفي منامات متقطعة إلى جوار البحيرة، كان يرى يتياناي غاضباً، كانا قد اختلفا لسبب لم يُفهم لزيس في الحلم.

رأى زيس أنه قد سافر إلى مكان بعيد عن الغابة، ليعمل في قصر لم ير مثله من قبل، يقوم بنحت لوحات خالدة، مستمدة من الفكرة التي أسرّ بها النحات العظيم، وكان سعيداً جدا أنه تزوج أخيراً، بعد أن لاقى المرأة التي أحبته كثيراً، ومعها فهم أسرار العالم المغيبة، التي لا تفهم إلا بوجود الأنثى الحقيقة بجوار الرجل، تلك التي تمنحه كل شيء في حياتها، والمهم أن تقدم روحها كقربان في طقس، نادراً ما يتكرر، إلا للسعداء جداً من الرجال، حيث يذهب طرفا الشراكة إلى معبد بادا ويتم تقبلهما هناك.

شعر زيس، أخيراً، أنه قد كسب السعادة، الراحة والدعة، ولم يعد مشغولاً بسؤال الحياة، ولا بوصية يتياناي وأنه سيغضب منه كيف وظّف السر الخالد في غير ما محله.. كانت ملهاة الحياة قد جرفت زيس ليصبح عابثاً لا احترام له ولا أخلاق.. فهو بمجرد أن يدخل في أي جو جديد، يندمج فيه، وينسى ما حوله من أشياء.

هكذا تغير حال زيس مع الحياة الجديدة، فبعد أن كان هزيلاً، ضعيف البنية، امتلأ جسده كثيراً، واكتسى بشرة بيضاء، وارتدى قمصان صوفية راقية كالتي لم ير مثلها من قبل إلا على جسد بالا.. كانت مزركشة بمربعات كبيرة ملونة، ولم يكن مشغولاً إلا بعادات الزمن الذي ولد متأخراً، أن يعانق زوجته ويهيلها بالقبلات في دروب الغابة مع كل سانحة، غير مهتم بالبشر.

***

ينهض زيس من أضغاثه ليجد أنه في قصر بالا، ينقش ويصنع المنحوتات ولكن دون أن يُخل بوصية النحات الأعظم ساكن القمر، كان رجال بالا قد أخذوه من أمام الصخور في الساحة إلى القصر مجنزراً غير قادر على شيء سوى الاستجابة، ومنذ البدء كان لديه إحساس أن بالا يدبر مكيدة ما.

في القصر أثناء عمله، لم يتوقف مع سماعه صوت يناديه من ورائه، على الممر الطويل المغطى بالسجاد الأصفر.. كان أمامه بالا الذي يسكن معه في القصر ذاته، لكنه لم يعد رجلاً مهما، كما في الماضي، لقد تحول إلى أحد العبيد الخصيين، يقضي أغلب نهاره في حمل أقداح الطعام للسلطان، وينام في الليل، مع مئات العبيد في غرفة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن مساحة الغرفة التي كان زيس ينام فيها، مع أخوته، في مغارته الأولى، والتي لم يعد بإمكانه تذكر ملامحها جيداً، بعد أن أصبح الماضي نسياً منسياً.

دعك زيس عينيه ليكتشف أن هذه الصورة التي رسمها لبالا ليست إلا صورته هو.. فهو الآن ذلك الفنان الخصي الذي يرسم لبالا والزعيم الأكبر.. هو ذلك المنحوس والتعيس الذي يعيش مع مئات العبيد في القصر ليس ثمة فرق بينه والحيوانات.. يتمنى لو أن ذلك النمر الذي قابله ذات يوم كان

قد قضى عليه وأراحه من شرور هذه الغابة وتعاستها. ويشك في الإله بادا وتعاليمه وفي ما تلقاه من معلمه عن كيف أن الإنسان يمكن أن يكسب الرضا والسعادة، لكن عليه أن يعيش صبراً حتى لو طال.

كان الغضب قد ملأ قلبه وصرخ ليسمعه من في القصر.. ولم يكن يعلم ماذا كان يقول بالضبط.. ورأى أمامه بالا يضحك وبجواره زوجته الباهية الرائعة.. التي طالما تمنى زيس أن تكون له امرأة مثلها.. ولكن هيهات مع هذا العالم الظالم والمظلم.

***

ظل بالا غاضباً جداً من زيس، لأنه لا يتوقف ولو لدقيقة ليسأله عن حاله، أو يتوسط له عند السلطان، ليقلل من عبء عمله اليومي، وكان زيس يفعل ذلك عن قصد، مسترجعاً سنوات عاش فيها التيه ورأى بالا في سعادته، التي كان يظن دوامها، مع أسفاره التي لا تنتهي كمساعد لسلطان الغابة.

حدث زيس نفسه قائلاً:

"بالا غير راضٍ عني، لأنني لا أهتم به، ولا أكلمه حتى ولو في الأحلام، لكنني لم أنسى الأيام السوداء"

كاد زيس أن يتوقف عندما رأى وجه بالا أسوداً كالحاً، وعينيه متورمتين، ولسانه قد استطال، لكنه لم يتوقف، فقد تذكر أن بالا لم يبارك له مقدم البنت الجميلة التي أنجبتها زوجته قبل شهرين، ففي ذلك اليوم، جاء العبيد، جميعهم في صف واحد، كانوا يحملون الحلوى على أقداح من الرخام النادر، وزينوا ملابسهم الرثة بالورود، جاءوا جميعهم، إلا بالا، الذي كان ينتظر زيس مجيئه لينظر إليه مليئاً، ويضحك.

يعرف زيس أن مثل هذه الأمور لا تهمه كثيراً، أن يبارك بالا ابنته البكر أم لا، فبالا لا حول له ولا قوة. ثم قرر فجأة أن يتوقف عن العمل، ليداعب بالا، في الواقع كان يريد أن يستفزه، ويذكره بالسعادة التي عاشها ذات يوم، وانقضت، كما لم تكن، وأن الدنيا قد انقلبت، فلا سعادة تدوم لأحد، ولا شقاء يبقى إلى الأبد.

سلم زيس على رفيقه القديم مبتسماً، ونادى مصور القصر، ليرسم لهما صورة بحجم كبير، وهما واقفان سويا، بالا بزيه الرث، وزيس بعدة النحت، حتى لو أنه لم يعد نحاتاً.. فهو قد فعل ذلك ليُذكِّر بالا بما فعله ذات مرة في يوم قديم، عندما أمر مصور سلطان الغابة، برسم لوحة للشعراء الكهول، وهم يتطارحون أشعارهم وزيس جالس بينهم.. وأراد بالا بهذا العمل، الذي قام به المصور، سراً، من وراء الجسر، خلف البحيرة، أن يضبط زيس متلبسا بالجريمة، التعاون مع

الكهول المغضوب عليهم من قبل السلطان، لكن الإله بادا أنقذ زيس، عندما هبت ريح عاصفة، حجبت الرؤية تماما، فلم يستطع المصور إكمال مهمته السرية.

أمام المصور، شعر بالا بأن صديقه القديم، قد تغير كثيراً، فسنوات العذاب التي قضاها في الغابة، قد مضت، وحدّث نفسه:

"لقد كان زيس في ماضيه يحتفل بالآخرين، ويقف معهم في ويلاتهم، أما الآن فلا يهتم بغير نفسه وزوجته"

***

ينهي زيس خيالاته وهو يتجرع الألم.. يفهم أن الحياة درس غير مفهوم أصلا.. في وقت مضى كان يعتقد أنه يمكن أن يسيطر على بالا بعقله وفكره وأنه موهوب أكثر منه.. وأنه إذا اقتنع بالحياة في القصر وخدمة بالا حتى لو أن ذلك فيه شيء من التنازل فسوف يهيمن عليه ذات يوم.. المهم أن تكون موهوباً وسوف تنال الرضا وتكسب المال. والآن يجد زيس التعيس نفسه بلا رضا ولا مال ولا احترام، وقد كان أهون له لو أنه ظل هائما في الغابة وسط الساحات والبحيرة.

يوم أخذوه للقصر، كان نكداً ثم غيّر فكرته بأن يوظف العقل ذلك الذي يقول بالا دائما أنه يفتقده.. فبالا لا يسكت عن الإفصاح أمام الجميع:

"يا ليت لي مثل عقلك الجبار يا زيس!!"

يبتسم زيس ويشعر بالحسرة، وأن الأمر لا يعدو مجرد نوع من التشفي لأمر في الماضي.. ليس بإمكانه أن يحدد ماهيته بالضبط.. لماذا يمارس الرجل ضده كل هذه الكراهية المعلنة التي يعلمها الناس في القصر، فكل العبيد يدركون ذلك. والجاريات يتضاحكن على مصير زيس الخصي.

***

رغم هذا التفكير الذي قرر به زيس أن بالا لم يعد ذلك الإنسان القديم، إلا أن زيس عندما رأى، في اليوم الثاني، الصورة المرسومة لهما سويا هو ومساعد السلطان المبجل السيد بالا، معلقة على إحدى حيطان القصر، فرح كثيراً، وغالط نفسه بأنه أخطأ في حقّ بالا، وفكر في أن يكتب له رسالة في الليل، يسلمها له في الصباح، مع إحدى الجاريات، يقول له فيها:

"أنا أحبك، فلا تقتلني بحرماني منك أيها الصديق الوفي"

عندما بدأ في الكتابة، تحت ضوء ينبعث من القمر البعيد، في ساحة القصر الكبير، شكّ أن هذا الحب الذي يتحدث عنه في الرسالة، ليس إلا حباً مزيفاً، ورغم ذلك استمر في الكتابة ربما لأن قلبه ودماغه تغير أو تخثر تماما وهو لا يدري..

كتب زيس لبالا:

"أحيانا تذهب الحياة في طرق متباعدة، كل منّا يختار طريقه، حتى لو خرجنا من مصبّ واحد، لكن هذه رسومات ومقادير الإله في الأزل، ونحن لا نقدر على نعدل في الرسم، لنعدل المسار. لا تظن نفسي أنني أكفر به أو بك. أنا مؤمن وأحترم مشيئته على أي حال وأقدركم تماما سادتي.. بل أنا سعيد أن منحتني الشرف اليوم بأن توضع صورتي بجواركم الميمون في القصر.. هذا شرف ليس بعده شرف سيدي"

استمر زيس يكتب ويكتب.. وبعد أن انتهى مزق الرسالة، مشحوناً بغضب جمّ، وفي باله فكرة واحدة لا غير.. فهو لا يمكن أن يحب عدوه بأي شكل كان.. وقرر صادقا مع نفسه أنه يكره بالا..

***

قام من العشب ينظر في أسوأ أيامه في الحياة، بحواس مرتبكة، وراحة يد منهكة من حمل أقداح الطعام، ونظر إلى ذاته فرأى كم هي قذرة، تحتاج نظافتها إلى عشرات السنين، سيكون بعدها قد غادر هذا العالم، وقرر أيضا مع ذاته صادقا: "أنه لا يحسن خياراته في العالم، وأن الحياة تعطي الفرصة للإنسان لكي يختار طريقا واحداً، يجب ألا يحيد

عنه، حتى يقدر على كسب الوجود وسعادة الذات، لكن قبل أن يمشي على الطريق، عليه أن يتأكد أنه الطريق الصحيح".

تأكد أن خياره كان خاطئاً، وتذكر أول ثلاثة دروس تلقاها من المعلم شونتيالاغوسو، وأنه لو التزم بها لكان قد كسب نفسه. وربما أن الحقيقة المرة التي يجب أن يواجه بها نفسه الآن أن الوحيد من رفاق الماضي، الذي حفظ هذه الدروس جيداً، وعمل بها، حتى أدرك الحقيقة، كان بالا، لا أحد غيره.

***

الآن يكتشف ولكن بعد فوات الأوان.. أن احتقاره لبالا لم يكن إلا دليل على ضعف مستتر.. كان يعني ذلك الاحتقار المبكر والقديم.. قبل أن يصبح بالا له قيمة.. يكتشف بدقة أن خيارات بالا الخاطئة، والمناقضة للدروس الثلاثة للمعلم، هي مغزى هذه الدروس ومعناها المطلوب بالضبط.

"إن بادا لا يأخذ الأمور كما نأخذها"

"لا يفهم الخديعة كما نفهمها"

"ينير حيث تكون الظلمة لا الضوء"

كانت تبدو حكم بسيطة وسهلة الهضم. وكان العقل يبدو وقاداً. اليوم يعرف أن دماغه قد خدعه. فالطريق إلى بادا

ليس سهلاً.. الطريق إلى الخلود في القمر لا يسلكه إلا قلة.. وقلة جداً.

كان يكلم نفسه كالمجنون وبصوت مسموع لرفاقه العبيد.. الذين لا يدرون بالطبع ماذا في جعبته من فكرة يقرر تنفيذها. وسلك طريقة من الممشى إلى غرفة نومه مع بقية العبيد الهائمين في ضراطهم، وهو يفكر في خيبته.. كيف أنه مرات كثيرة في الحياة وضع ثقته في أشخاص، كان يجب ألا يثق بهم، لأنهم لا يحمونه ولا تهمهم إلا مصلحتهم الذاتية، وأنه أعتقد أن الذين يضحكون له يحبونه، وقد كانوا في الواقع ينهشون قبره حياً، وكان الخيار الثالث الخاطئ، أنه ظن دائما أن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر، والواقع - كما فهم الآن وكما قال المعلم شونتيالاغوسو ذات مرة -:

"إنه لا مستقبل أبداً، فالحياة حاضرة في كل الأزمنة، وعلى الإنسان أن يتصرف كما لو أنه يعيش في المستقبل"

***

بين اليقظة والنوم.. كان يقيس مقدار شجاعته كيف يمكن له أن يبدأ ثورة العبيد في القصر.. التي سوف تنتهي بقتل بالا وربما الزعيم نفسه..

"ليس للطموح حدود.. والمستقبل هو اللحظة يا معلمي"

قال وهو يتقلب على فراشه العاري، وتشكلت في ذهنه صورة قديمة لذلك اليوم الذي كان فيه الزعيم قد وصل إلى الأرض قريبا من البحيرة ليتعرف على التلاميذ ويختار منهم من يراه صالحاً لحمله إلى القصر.. ليكون له وزيراً معاوناً. الجميع كانوا يثقون أن الخيار سوف يقع على زيس.. فهو الأذكى والأشجع والأنبل..

ووقف رجالات الزعيم.. بريش النعام المنفوش فوق رأسه وأسنانه الذهبية التي تلمع تحت الشمس الدافئة في الشتاء.. كان زيس يقف بعيداً جالساً على العشب.. لم يسرع للنهوض.. كما فعل الآخرون وأولهم بالا.. وهذا لم يكن مهماً.. فالكارثة حصلت عندما بدأ الجميع سكارى ورقصوا عراة كما خلقهم بادا.. كل يحلم بالصعود إلى القمر، وغنوا الأنشودة المتوارثة في الغابة:

"... يوم ما سوف تحمل أرواحنا أطيافها الرائعة إلى السماء

وسوف نسكن في قمر بديع ينير عالمنا القديم

سنكون نحن أبناء بادا الجديرين بالحب..."

يمكن له أن يتخيل ما حدث بعدها ومرويات الناس عن إخلاص بالا في قصر الزعيم.. كيف أنه فعل كل شيء ليصبح

رجله الأول.. بما في إشباع ذلك الغرائز التافهة.. ومع الأيام تطور كل شيء.. كل شيء كالعادة يبدأ صغيراً ويكبر..

كان زيس يشعر بصداع شديد وهو غير قادر على التيقن من حقيقة التفاهة والأخلاق التي تربى عليها من قبل المعلم.. هل ثم خطأ في التأويل..

***

الـهمبول الثالث

الفنون السرية

استهلال لابد منه

ما بعد ريلكه

أو الواقع المبعثر

هذا العالم

نُشيّده فينهار،

ثمَّ نُشيّده ثانيةً

فننهار نحن!

راينر ماريا ريلكه

بحثا عن قيمة، وبحثا عن حياة لها معنى، وبحثا عن جدار يكون منه الهروب من سجن الواقع وسجن الذات؟ ولكن إلى أين.

كان ذلك الرجل الذي يسمي نفسه مفكرا. كان قلقا في ذلك اليوم لأنه في أشد لحظاته ضيقا من نفسه. كان بإمكانه أن يفكر في فعل أشياء قبيحة ولا ترضي الخالق. لكنه مفكر مؤمن. وهو أيضا مفكر ملحد. وهو إشكال يصعب تفكيكه من الوهلة الأولى.

في ساعة صفاء معينة مع ذاته بإمكانه أن يرى الله ويتلمس الحكمة من الوجود الخفي وراء أسرار النمل وهو يتمشى في الليالي الظلماء.

وفي ساعة أخرى يكون ذلك الذي عليه أن يكفر بكل الأشياء..

يرى نفسه في عالم مظلم ليس فيه من منفذ للحقيقة. لا بداية ولا نهاية ولا أمل.

يتذكر أنه في ذلك الصباح البهي. لنقل بهي إلى حين. أنه قرأ بعض من آيات الذكر الحكيم ومن ثم أعقب ذلك ببعض من الأشعار لريلكه.

هل هي قراءة ريلكه التي جعلته ينزع للتأمل والوحدة؟

وهل هي سبب كآبته في هذا اليوم؟

هو لا يحب الألمان عموما. يرى فيهم براغماتيين، يراهم كائنات متخشبة لا دم فيها ولا روح. بعكس الفرنسيين لهم

أرواح لكن دماؤهم من شيء آخر غير الدم ربما هي عصائر فاسدة تسير في مجرى الدم. والإنجليزي.. يتوقف عن التفكير متذكرا رواية "مقبرة براغ" لامبرتو إيكو وكيف أن الراوي كرّه كل الأجناس الأوروبية، لم يبق من جنس إلا وأرهقه بالشتائم.

المهم إن قراءة ريلكه شيء غير موفق في هذا الصباح.

لن يفعل ذلك بعد اليوم أبدا. لن ينزع للتجريب مع أناس ماتوا قبل سنوات طويلة وهم يحاولون السيطرة على فكره بأفكارهم. سيقرر أن يكون ابن اللحظة، ابن المعاش. ابن الراهن.

قرر ذلك. وأن ذلك هو السبيل الوحيد أمامه لينهض عن العالم المتثاقل، ويخرج من سجنه الذي هو فيه. أن يهرب إلى عالم آخر ليس فيه من شيء سوى الناس والأشياء من حوله، هذه هي أفضل الهزائم التي يمكن أن يعلنها الإنسان ضد العالم وضد الواقع وضد نفسه طبعا.

كتب على جبينه بالوهم الجميل. فحم الوهم الجميل.

"أنا الآن ابن الواقع.. ابن اللحظة.. وداعا أيها الماضي.. أيها الشعراء والكتّاب والأفاكين.. وداعا أيتها الصحف التي تمنحنا أخبار الأمس.. ونحن ننتظر اليوم.. وداعا يا أجهزة التلفزة التي تقدم لنا كان وكان وحدث.. ولا تقول لنا ما سيكون.. وداعا.."

كان يكلم نفسه وهو يمشي عجولا لا يلتفت للمارة من حوله ولا أبواق السيارات..

يحاول أن يغوص في ذاته البعيدة.. في ريلكه الذي يسكنه، وهو يهاجس ذاته لماذا ليس هو قادر على أن يُخلِّص للفكرة التي آمن بها قبل قليل.. هل الإنسان أسير عقله أم أشياء أخرى خارجه هي التي تملي عليه. ليس بإمكانه أن يقرر أو أن يرى الحقيقة. ليس أمامه من حقيقة أبدا. إنه العالم مظلم.

يتحسس جيبه عليه أن يقتل جوعه. ولكن كيف؟

ليس معه من جنيهات. يقف أمام مطعم الشواء.. كذلك الشحاذ الذي يحكون عنه في قصص الأطفال. عليه أن يأكل الرائحة مع خبز قديم في الشارع. ولكن صاحبنا سوف يأتي ليطالب بالثمن. "أعرف ذلك".

يهرول سريعا. يجد جسرا أماما، يهرول أيضا إلى نهاية الجسر.

يرى نهرا عظيما يتحدر من جهة لأخرى.

أبراج ترتفع إلى السماء.

مأذن وعمال يتصارخون من مسافة بعيدة كأنهم يصرخون في أذنه.

يصيح باتجاههم:

"كفى.. كفى أيها الجبناء. أيها الخاضعون لأسيادكم"

يعرف كيف يتكلم عن الحرية والجمال والمطلق والله والشيطان وريلكه طبعا. لكنه لا يعرف أن يكون سيدا.. هههه..

يضحك مع كائن يشبهه يظهر على الماء أمامه..

يتذكر نصيحة قديمة سمعها من أبيه.. لا تركن للأيام إلا بقدر الحاجة.

لكنه الآن لا يعرف أن يفسر تلك الحكمة. ما هي الحاجة التي يجب أن يعتقد فيها. وأي قدر سوف يقيس به الأشياء والظروف؟!

"العالم مهزلة"

خطّ بأصبعه على الماء.. لكن لا أثر بقي على الماء..

الماء يأكل الكلمات ويذهب بها إلى الأقاصي حيث لا شيء.

تذكر أن الفكرة التي سيطرت عليه قبل النوم أمس، هي:

"الفلاسفة الجدد يا أنت.. هم تطبيقون لا منظرون!"

وقد نام على هذه الفكرة.. سيكون ابن الواقع.. وإلى الآن لم يستطع أن يقترب من الثمرة المتوقعة. لم يعرف كيف سيكون له أن يكون تطبيقيا..

قرر أن يتراجع عن فكرته.. أن... لن يكون جبانا مثل "يوكيو مشيما" ويقرر الانتحار، فالحياة رائعة بالأفكار.. لن يمضي هكذا فلديه الكثير مما يجب أن يفعل..

لديه آمال عظيمة وجنون مستمر.. عشرات الأشياء التي يجب أن يفكر فيها ويعيد ابتكارها في مخيلته..

لديه حلم أن يصبح ريلكه جديد.. حتى لو أنه يكره ريلكه في هذا الصباح.

الوقت الآن يقترب من الظهيرة.. يرتفع صوت المؤذن في المسجد القائم بجوار النهر، يهرول من جديد، يتوضأ على عجل من الماء البارد..

يدخل سريعا منحشرا وسط الصفوف.. صوت رجل جهور يرتفع وهو يقرأ الآيات.. كأنه يعرض لصورة إبراهيم الخليل.. كانت هناك زقزقة عصافير تتحرك في النافذة.. يزيح رأسه يمينا غير حافل بقواعد الصلاة يبتسم لها.. تزقزق من جديد وتطير واحدة تلو الأخرى في فراغ المسجد الداخلي.. يتخيل أن نفسه في الجنة. ولكن أليس هو الذي رمى بنفسه من أعلى الجسر؟!!

ولكن كيف حدث ذلك.. هل الجنة للشهداء أم لأمثاله من...؟

يسلم الجميع:

"السلام عليكم. السلام عليكم"

يسلم هو.. سرا.

كان هناك ضجيج في الخارج.. وليمة عظيمة.. ودراويش يضربون على الطبل. يندس بينهم.. يهز جسده بقوة ويذوب في المجموع.. يمد يده بعد فتر كبير.. يتناول لقمة دون أن ينظر لطبيعة الطعام، يكون قد بدأ في رؤية الأشياء من حوله..

يستطيع الآن أن يميز مجموعة من الناس الجالسين في صفوف على كراس وثيرة ومن ثم كراس خشبية وأخرى من حديد.. ووراءهم آخرون واقفون ومن ثم زمرة من المنحشرين فوق بعضهم البعض وهم يتدافرون.. كأنهم على ظهر لوري..

هناك رجل يجلس منعزلا وسط الجميع. رجل في الصف الثاني الخشبي.. يعاين إلى السماء بقوة غير حافل بالجمع.. يشبهه لحد كبير.. يقترب منه.. لا يعرف كيف وصله فالحشد كبير والمهمة صعبة.

أخيرا يسلم عليه.. بقوة يتصافحان ثم يتحاضنان.. والدموع تكسو كل منهما.. تغسل عنه أوجاع سنوات طويلة.. يدعوه بالتفضل أن يجلس..

يجلس يبدأ في سماع الخطبة التي يلقيها الرجل الواقف في المنصة.

الموسيقى في عوالم مفقودة

كنّا جالسين على شاطئ البحر عندما اندفعت المياه بعنف، كأنها غاضبة تحاول الانتقام من مخلوق ما، ولم يوقفها شيء. فأي شيء، ذلك القادر على مقاومة المدّ الهادر مثل سيف بتار؟

لم تمر سوى ثوان معدودات، حتى غطى البحر المنطقة المحيطة به على امتداد كيلو متر من كل جهة، أو أكثر بقليل.

هل عدنا موجودين هنا؟ جزءاً من هذا العالم؟

ليس بإمكاني أن أتذكر، أو أفهم ما حدث بالضبط !.. فالفوضى التي دمرت المكان، كانت قد حوّلت الكائنات والأشياء إلي مجرد ظلال وذكرى.

وحدها المياه استمرت جزيئاتها يقاوم بعضها، دون أن تدرك ما الذي حرّكها بهذا العنف الجبار وجعلها تمارس غضباً قاسياً، حوّل العالم إلي أشباح وموجودات على هيئة مخلوقات تائهة، مجهولة الملامح.

الغضب لم يقتصر على الماء، ففي السماء انطفأ ضوء الشمس فجأة.

في البداية خلنا أن سحابة كبير جداً غطت ما بين السماء والبحر، لكن لا أثر يدل على هذه السحابة المزعومة!

من أعلى الماء، امتدت الظلال الكثيفة لتدخل الأرض فيعمّ الليل مع توقف عقارب الساعة عند منتصف النهار بالضبط.

أكاد أجزم أنني رأيت نجمين، ثلاث، ربما عشرات النجوم. لم يكن بمقدرتي أن أميز الأرقام، لسبب ما، لم أفهمه!

هل غاب عقلي ؟

هل أنا أحلم ؟

أم أنها واقعة حقيقية تحدث أمامي: هذا الارتباك الذي غيّر نواميس الكون في لحظات غائبة عن الزمن الذي تعودناه.

كم من الوقت مضى ؟.. لا أدري!

عيناي مفتوحتان، تحلقان في العدم، لا أرض، لا سماء، لا نجوم، لا شمس !!

أين ذهبت المجرات الجميلة الملتفة كعناقيد عنب؟

وإلي أي ملجأ هربت الشمس؟

ومن سرق النجوم؟

هل أنا حيٌّ أم ميت؟!

أسئلة لا عد لها، تداخلت في ذهني، وأنا غير قادر على تحديد موقعي من الكون، موقع الروح في جسدي.. هل كنت محمولاً على جسد، أم معلق في الفراغ؟

إذا كان هذا الفراغ اللامحدود، المجهول، والمفتوح بلا نهايات، هو سرداب الموت، فحتما أنا ميت الآن.

لكن هل يفكر الميت؟ يتذكر؟ يقلق كثيراً كما هي كعادته قبل أن يموت؟

تلفت حوليّ، لا أحد، وصرخت بصوت - أخاله عالياً - كأقصى ما يكون العلو، حيث لا مقاييس ولا أشياء تعترض الصوت فيرتد صدى.

ظننت أن حيرتي ووحدتي ستطول، في عالم آخر مغطي بالألغاز، يختفي فيه أي أثر للروح والجسد.

ظني لم يصمد، فقد سمعت صوتاً، يشبه صوتي، غير أنه ليس صوتي.

جاءني الصوت ممتزجاً بأنغام موسيقى غريبة، غير مألوفة بالنسبة لي، حدثني:

"لا تخف فأنت في دنياك لم تغادرها بعد".

وأردت أن أسأله: أين أكون؟

هل أنا داخل حلم في منام عميق؟

قبل أن أسأله، كان قد هرب الصوت، لتتجدد حيرتي ووحدتي.

في هذه المرة انفتحت عيناي ترتجفان. كانت أمامي مجموعة من البشر، لم أهتم بأشكالهم، ألوانهم أو أعدادهم.

بشر.. أشعروني بغبطة عجزت عن رؤية انعكاساتها على وجهي، فربما لم يبق لي وجه.

لكي أتأكد تحسست ذلك الجزء المكور القائم فوق عنقي.

هاهي أنفي..

هذا فمي..

تلك أذناي..

وصرخت: أين أنا.. ومن أنتم؟

تردد سؤالي أكثر من مرة، لأجد ذات السؤال يتكرر من كل واحد، من الرجال والنساء الذين كانوا حولي.

سأل أحدهم :

"هل انحسر الماء؟"

وسأل آخر:

"أين الشمس؟"

كانت هناك أسئلة كثيرة جداً، بعضها سمعته، وغاب البعض، مع انشغالي بحالي وتفكيري، ما الذي جرى أو ما الذي يجري؟!

الحقيقة التي اكتشفتها متأخراً، بعد كم من الوقت؟ - (لا أدري) - فالإحساس بالزمن كان منعدماً - أنني كنت عارياً، تماماً كما خرجت من بطن أمي قبل أربعين سنة أو أقل بقليل.

لماذا أنا عارٍ؟ وأين هي ملابسي؟

لم يكن لي أن أدرك، أفسر أي شيء.

نظرت حولي، الجميع عراة، نساء ورجالاً. لكن لا أحد يهتم بأحد، هل ماتت الشهوة فيهم؟

لماذا هم كالسكارى يصرخون ويكررون: أين أنا؟.. من أنا؟.. ما الذي حدث؟.. ما الذي يحدث في العالم؟

مرة أخرى، سمعت ذات النغم الموسيقي الذي جاءني من قبل ممتزجاً مع الصوت الذي يشبه صوتي.

ارتفع النغم شيئاً فشيئاً، تداخل مع أفكاري وكأنه يخرج من داخلي أو لعله كذلك.

كدتُ أعتقد أن النغم ملك لي وحدي، لا أحد غيري يسمعه، قطع اعتقادي أحد العراة، سمعته يسأل:

"هل تسمعون هذه الموسيقى؟"

تلفتُ لأري من وجّه السؤال، لم أعرف ولم أهتم.

ازداد ارتفاع الموسيقى، ومع الارتفاع التدريجي، كان الإيقاع الهادي يتحول إلي ضجيج وفوضى من الإيقاعات النشاز الذي تصمّ الأذن.

أحسست بالتشوش.. وضعت أصابعي على أُذني، حتى أكسر حدة الضجة الموسيقية، لكن المقاومة كانت صعبة، فقد طغت الأصوات العالية وغمرت الوجود.

الآن.. لا يمكن تفسير المكان الذي أنا في جزء منه، إلا أنه هالة من الموسيقى العالية الضاجة، موسيقى تشبه الفوضى، إذن أنا أقف على أرض من الأنغام، من الإيقاعات، وعليّ أن أقاوم حتى لا أغرق في بحر الموسيقى.

هل أنا حيٌ.. جزء من العالم؟

كررت السؤال مجدداً، أكثر من مرة، ولم أكن متأكداً من أي إجابة، فلا شيء يحمل دليل الموت، مثلما لا يوجد ما يحمل دليل الحياة.

أي شيء يفرّق بين الموت والحياة في هذه اللحظات الهاربة من الزمن؟

إذا قلت أنني حيٌ، فما هي الحياة؟

ما الذي يجعل الكائن يعرف أنه حيٌ، جزء من العالم، هل هو الألم؟

جربت، ضغطت بقوة على إصبعي، اندفع الدم غير أني لا أحس، لا أشعر بأي قيمة لما فعلت.

صرخت، ربما تكلمت: أين أنت أيها الألم؟.. أريد أن أحس؟

كنت محتاجاً لأتألم، حتى أفهم أن الحياة تجري في دماي، تحاصرني، حتى لو كانت حياة قلقة، لا معنى لها، فدائما كنت أعيش متوتراً.

قلت: أنا لا أتألم.. إذن أنا ميت.

لكن لا يوجد دليل على موتي.

إذن أنا أحلم.

لكن الذين يحلمون يمكنهم الشعور بالألم.

أي عالم هذا الذي أنا وهؤلاء الذين من حولي، جزء منه؟

أي عالم هذا الذي تشكله الموسيقى الضاجة ويتجرد عنه الألم.

حاولت أن أتذكر، أحفر فيما تبقى لي من ذاكرة.

لم أتذكر سوى أمواج البحر المندفعة بقوة نحوي، حيث كنّا جالسين، أنا...ومن كان معي؟.. نسيت.. غاب كل شيء تماماً، فأنا لا أتذكر شيئاً، لا أتذكر أي تفاصيل من حياتي.. من أكون؟ وأين كنت أعيش؟ وهل كنت في العالم حقاً أم لا؟!

لقد انمحت الذاكرة عندما غاب الألم، فليست الذاكرة إلا نوع من الألم.

إن تذكرنا ليس إلا نوع من الألم الخفي الذي يجعلنا غير قادرين على اختراق الحاضر نحو الغيب، المستقبل.

الألم هو الذي يمنع الكائن من التحليق حراً كملاك، كإله.

هو الخاصية التي دفعها الله في مخلوقاته حتى تعجز عن رؤية المستقبل.

الإنسان عندما يتحرر من الألم، يكون قد وصل درجة السمو التي تجعله يعيش إلى الأبد، في اللازمان واللامكان، هكذا كنت أعتقد.

الآن أفهم أن اعتقادي صحيح حيث أنا هائم في اللازمان واللامكان.

***

ثم بدأت أتألم..

لكن هنا يوجد مكان روحه الموسيقى الضاجة التي تؤلمني؟

إذن أنا أتألم.. فهذه الموسيقى تجرحني، تشعرني بالضيق، بالرغبة في مغادرة هذا العالم الجديد، الذي لا أدري من أين جئت إليه وكيف دخلته، وهل سيكون ممكناً الخروج منه أم لا؟!

كيف تحولت الموسيقى إلي ألم؟ ضجيج قاس موجع للذات؟

طوال حياتي كنت عازفاً ماهراً على جميع الآلات التي جربتها منذ صغري، ولم أشعر ذات يوم أن الموسيقى توجعني وتقلق وجودي، فلِما هي اليوم ضدي؟ تحاصرني وتشعرني بالتيه، في هذا المكان الذي لا شيء فيه، سواها.

أي مكان هذا الذي ينسج عوالمه من الموسيقى ويتسبب في كراهيتها ويجعلها غير ذات معنى؟

لم يكن لي القدرة على الإدراك، الفهم والتفسير.

مع الألم يعجز الكائن عن الوعي والتمييز.

غير أنه ألم غريب، لا يشبه ذاك الذي ألفته طوال الحياة، وأنا أبحث عن معنى أن أكون جزءاً من العالم.

كان إن فشلت حتى أخذني البحر في طوفانه، إلي هذه الدنيا الجديدة، التي أنا تائه فيها مع هؤلاء العراة.

كنت أود أن أخاطبهم، أتكلم معهم، أسألهم: هل تشعرون مثلي بالألم الذي تسببه الموسيقى بنشازها وضجيجها؟

هم لا يكترثون، لا يهتمون إلا بأنفسهم.

هم هائمون في أشيائهم، التي هي غائبة عنّي، وليس بإمكاني أن أحدد ماهيتها!

كانت أسئلتي كثيرة رغم الألم والتيه: هل كنتم تقضون ظهيرة رائعة الطقس- مثلي- إلي جوار البحر؟ وهل حاصركم الموج وجاء بكم إلي هنا؟

لا تنته الأسئلة، بل تبدأ من جديد مع ارتفاع الإيقاع الضاجّ الذي كلما علا، ارتبكت أكثر وازداد توتري، وكبرت رغبتي في الهروب عن هذا العالم الجديد. لكن إلي أين سأهرب؟. ولو افترضت أن ذلك كان ممكناً، فهل سأصل إلي عالم آخر أفهم فيه ما عجزت عن فهمه في دنياي وفي هذا العالم الموحش بموسيقاه التي لا تستح من العراة؟

***

أفكر في الهروب – كعادتي- فقد كانت حياتي سلسلة من الهروب المتواصل، فأنا بطبعي ملول، لا أتحمل شيء لفترة طويلة. هل كل ذلك حدث فعلاً؟ أم أنني أتخيل؟

أتخيل ما عجزت عن تحقيقه من أحلام في ذلك العالم المفقود عنّي في هذه اللحظة، والذي بدلّته أو استبدلني بعالم ضاج، حدوده الموسيقى والألم.

أتذكر جيداً أنني (جربت)، لأنني أتألم، ولأنني أفهم التذكر على أنه لا يأتي إلا مع ازدياد حدة الألم. جربت التنوع التنقل والتبدل في كل الوظائف والمدن، فقط كان هناك شيء واحد لم أقطع علاقتي به طوال حياتي، التي لا أعرف انتهت أم

لا؟! هذا الشيء الواحد، هو الموسيقى. فمن النادر أن تراني أعيش دونها، عازفاً أو مستمعاً أو مفكراً في لحن جديد يغسل أحزاني التي هي جزء من أحزان العالم الذي انتمي له. ولسنوات طويلة من حياتي كنت أعتقد أن الموسيقى كفيلة بمحو الحزن عن العالم، إذا عرف الإنسان كيف يفهم الموسيقى ويتفاعل مع خواصها السرية أدرك الطريق إلى خلاصه في الوجود، أن يحقق معناه ومبتغاه. فالموسيقى هي ذلك الغزل الخفي الذي اندست فيه كينونة العالم وروح الحقائق الغائبة، ورغم أنها ظلت اللغة المشتركة لجميع شعوب الدنيا، إلا أنها ظلت اللغة التي عجز الجميع عن تفكيك رموزها العميقة. هي تشبه الأحلام في أسرارها، وهي لغة منسية كالأحلام، لكن الموسيقى هي أحلامنا في اليقظة، والأحلام هي موسيقى منامنا وموتنا، وإذا كنت أنا الآن ميت، فهل يعني ذلك أن الموسيقى فقدت لدى روحي سحرها القديم، ذلك الذي علمني الانجذاب للتأمل والطيران بحرية دون قيود؟ أم أن حقيقة الموسيقى كانت غائبة عني، وكنت في الواقع مخدوعاً بما ظننته المعنى، وقد جاءت هذه العوالم التي لم أدركها، لتجعلني أدرك عمق الخديعة التي كنت مغلفاً بها، وغارقاً فيها والمتعلقة باحترامي للموسيقى.

هل كان من الضروري أن يرتفع ماء البحر لاكتشف خديعة الموسيقى؟ وما الذي استفيده من معرفة جاءت متأخرة، بعد انتهي كل شيء؟

لكن عليّ أن لا أستعجل في تقرير الأحكام بأن الأشياء قد انتهت، فهناك مكان حاضر، من نوع ما، من شيء ما، مجهول وغريب. المهم أن المكان موجود، كذلك أن الألم موجود، والبشر حاضرون، رغم أنهم لا يهتمون كثيراً، ولا قليلاً، رغم أنهم مشغلون بأنفسهم، ولا يفكرون داخل دوائرهم الخاصة.

هل تشغلهم الموسيقى مثلي؟ ليس بإمكاني أن أحدد جواباً لما هو خارج عن دائرة سيطرتي، فعندما يتجرد الإنسان عن عوالمه المدركة، يفقد السيطرة على العالم، وقد كنت أعتقد العكس من قبل: أنني لا أسيطر على شيء. الآن، فقط، أفهم أن سيطرتي كانت كبيرة جداً، وأن العالم كان قد تطوع وفق ما أريد، لكنها أزمتي كإنسان، لا اكشف المعنى، إلا بعد أن أغادر الموقع الذي كان من المفترض لي أن أفهم المعنى عنده. ومرّد ذلك إلي الألم الذي يشغل الكائن بالماضي، يجعله متمسكاً بالذكريات، بالتحديق بكابوس قديم، بالجرح الذي لا يجعلك تفكر في شيء سواه.

كنت قد غادرت البحر، لكنني لا أزال عاجزاً عن اكتشاف معنى ما حدث معي، فهل تجردت عن خواصي كإنسان يفهم المعنى متأخراً، أم أن ذلك الموقع الذي سيكون بإمكاني أن أفهم عنده لم يحن موعده بعد؟!

قد أبدد وقتي في التفكير الطويل، دون أن أصل لنتيجة محددة، إلا أن الإيجابية التي حققتها أنني تحررت من سلطان البحر عليّ، لأدخل في هذه العوالم الغريبة التي لم أدخلها من قبل، لأجد روحي صريعة بالألم، تعاني، محاصرة، كأنها لم تخرج من دنيا البحر، الذي يدل في مفهوم مفسر الأحلام "محمد بن سيرين" على الدنيا وأهوالها: "تغر واحداً وتموله، تقفز واحداً وتقتله، وتملكه اليوم، وتقتله غداً أو تمهد له اليوم، وتصرعه بعده" وربما: "دل البحر على الفتنة الهائجة المضطربة الفائضة"

***

لم أكن أعلم أنني في عالم يدنو بالأشياء التي تتصورها في اللحظة، ولأنني كنت قد تصورت ابن سيرين وتذكرته، فقد رأيته أمامي واقفاً عارياً مثلي، لكنه لا يهتم بكوني عاريا أو كونه عاري،وعلى عكس هؤلاء العراة الذين حدثتكم عنهم، فقد كان ابن سيرين مشتاقاً للحديث معي بشوقي للحديث معه، وتلك قاعدة أُخرى من قواعد العالم الجديد الذي أصبحت جزاءً منه، وعليّ أن أفهمه تدريجياً، مثلما يفهم الطفل الدنيا ساعة يدخلها شيئاً فشيئاً، إذن أنا أولد في عالم مختلف، مفقود عن حياتنا التي ندركها، ولا أفهم حتى الآن: ما هي طبيعة هذا العالم ولا النواميس التي تحركه، ولماذا هو ضد الإيقاع الروتيني الذي تقوم عليه موسيقانا الدنيوية.

عندما رأيت ابن سيرين حمدت الله، فالرجل عارف كبير لا شك فيه، ومنذ طفولتي تعلقت بتفسيره للأحلام، وكان والدي يحتفظ بنسخة من كتابه الشهير، يعود إليها كلما رأى حلماً في منامه وكان والدي كثير الأحلام وكثير الحكي عنها، للدرجة التي جعلتني أفكر وأنا طفل: "هل يعيش والدي داخل الأحلام في مناماته ويخرج منها في النهار ليعود إلي عالمه الحقيقي في الحلم، أم ماذا؟".. فقد سمعته يقول ذات مرة: "الأحلام هي حقيقة الوجود، وهي العالم الذي يعيشه الإنسان واقعياً.. أما ما يسمونه بالواقع فهو مجرد كابوس لا وجود له".

رآني ابن سيرين غارقاً في ألمي من الموسيقى، وقرأ ما يدور بخاطري من أفكار وكانت له ملكات أعمق مما تصورت، سلم عليّ بحرارة، وضمني إلي صدره وقال لي:

"طالما اشتقت إلي لقائك"

ضحكت بألم وسمعني، ولم يحزن. وقلت له:

"أنت الذي يستحق الشوق سيدي"

تجهم بمحبة، كأنما يرفض اللقب، أخبرني:

"لا تحزن نحن في العالم الذي يطرد الأسياد إلي الأبد، هنا الناس سواسية كيوم ولدوا.. إنهم يخرجون إلي هذا العالم لكي يحققوا ما عجزوا عنه في دنياهم، فأي شيء لم تقدر على صنعه؟ وأي شيء غابت رؤيته عنك؟ تراه هنا ماثلا أمامك!"

"هل تعتقد أننا في الجنة؟"

"لا.. أنت في عالمك الأرضي لم تغادره ..لكن فرق بين الأرض التي كنت تعرفها، والأرض التي عرفتها الآن"

"لا أفهم سيدي"

"ألم أخبرك لا تناديني سيدي"

"بلي.. وأني لاعتذر"

وأخبرني ابن سيرين بما أدرك عن هذا العالم المفقود، وقال:

"أعلم أنك خرجت من البحر حراً، تحلق في الفراغ، لا شيء يقبضك فالأحرار لا تصطادهم الأشياء، هم الذين يصطادون كل شيء، لكنهم لا يقيدونه، وهذا هو الفرق بين الحر والعبد. العبد يظن أنه سيمتلك العالم في لحظة ما، غائبة لم تأت بعد، بينما الحر قد أمتلك العالم فعلاً بمعرفته وإدراكه. فقد ربتك الموسيقى التي ظللت إلى جوارها طوال سنوات عمرك، وغمرتك بالنور والضياء.. فالذين يدركون الموسيقى وسحرها يعرفون كيف يقتربون من معنى العالم، هنا يوجد ذلك المعنى الذي كنت تبحث عنه، المغزى الضائع في حياتك الأولى، ما قبل ارتفاع أمواج البحر"

"... وستسألني: لماذا تعذبني الموسيقى هنا؟.. سأخبرك: إنها لا تؤلمك، بل لأنك لم تتخلص من فكرة الألم التي جئت تحملها معك من ذاك العالم الدني إلي هذه العوالم الجميلة المفقودة، والتي بمجرد أن يدخلها أي كائن، لا يفكر في مغادرتها مرة أُخرى، لأنه يجد هنا ما كان يبحث عنه طوال حياته الماضية. هنا جنة صغيرة تكاد تشبه الجنة التي يرتادها الأخيار بعد موتهم...."

"... ستسألني :كيف أفرق بين موتي ودخولي إلي هذا العالم المفقود، سأخبرك: أن الموت شكلٌ من أشكال نسيان الألم، وأنت لم تنس الألم بعد، لكن حتما ستنساه ذات يوم عندما تعرف أن تكون حراً بكامل معنى الحرية، بإرادتك الخالصة التي هي ملكك أنت وحدك ولا أحد يشاركك فيها..."

"... نحن في عوالم هي جزء من عالم الحلم الذي يدخله الإنسان، فيحس بصدق حواسه، ويصل إلي مبتغاه، ليعيش كل فعل كما أراد، لا كما تريد الأشياء من حوله. وأنت هنا قد أدركت هذا الأمر، غير أنك لم تجربه بعد، وساعة تبدأ في التجريب، ستقول محدثاً نفسك: بالسعادة بالإشراق.. كم يبدو العالم أفضل من التوقعات. وغداً ستعود إلى دنياك مغسول الروح والجسد، طاهراً نقياً، لكن لا تخبر الناس أنك كنت هنا فإن تحدثت بذلك فشلت وكان مصيرك التيه والعبودية إلى الأبد. الذين خرجوا لم يتكلموا، لهذا لا أحد يحس بهم، ولا أحد يدركهم، هم فقط الذين يفهمون جيداً

عمق العالم وموسيقاه الغائبة. وصدّق تماما أن سعادتك بعد خروجك لا تدانيها سعادة، ستقول لي: سعادة الملوك والأُمراء والسلاطين وأصحاب الجاه، فأعلم كل سعادة لم تعبر بهذا المكان وتتدرب فيه، هي سعادة ناقصة..."

"... لقد أنفق الإنسان قرون طويلة من عمره من أجل أن يحقق معنى السعادة في حياته، لكن السعادة ظلت مثل السراب، كلما دنا منها وكاد أن يقطفها وهي تتدلى من شجرة الأيام، تراجعت عنه إلى الوراء، وهكذا أصبح الإنسان وهو يطارد فكرة السعادة، كمن يطارد الوهم، حتى ظن البعض أنه لا سعادة في العالم، وهو ظن خدّاع كذاب، حيث أن السعادة قائمة ومدرك ومعاشة، فقط لمن دخل من هذا الباب اللذيذ..."

"... أنا محمد بن سيرين، بخلافك كان تعلقي بالأحلام، فأنت تعلق قلبك بالموسيقى، لكن لا خلاف، طالما أن الإنسان له أمنية يصل من خلالها إلى سعادته الخاصة. غير أني لم أفهم رموز الأحلام وعوالمها إلا بعد أن جربت هذا العالم الغائب، وأنا حاضر فيه بروحي وجسدي المستنسخين، لا بأصلي وفصلي. وليس هذا بالغريب، فكل يوم تمضيه هنا، سوف تفهم فيه الكثير من حقائق الوجود التي كنت تجهلها..."

"... يظن الإنسان أنه يمتلك الحقيقة المطلقة ويقبض على مفاتيح الكون، غير أنه مغرور يخادع نفسه، فالذين عرفوا

وفهموا لم يتكلموا، والذين تكلموا كانوا في الحقيقة جهلاء ضيعوا سعادتهم الأبدية، فهي فانية وجدوها لحين ثم غادروها. فهل تبحث عن الأبدي والخالد، أم تبحث عن العابر والمؤقت؟. إن روحك حسب زعمي من الأرواح التي لا تستكين ولا تهدأ من أجل معرفة الحقائق، لهذا كنت كثير الترحال، من مدينة إلي مدنية، وكثير الزواج من امرأة إلي أُخرى. وكنت من خلال ترحالك ترغب في أن ترى وتكتشف عالماً آخراً، ما يهمك هو ذلك الآخر بأسراره ومعانيه المدفونة، والتي لا يبصرها ولا يدنو منها إلا العارف الحصيف، فأنت لم تكن مهتماً بشكل المكان بل بجوهره وروحه الغائبة. ولم تكن تتزوج إلا ليقينك بأن وراء كل امرأة جديدة تعاشرها نغمة مفقودة أو إيقاع جاذب لم تكتشفه من قبل. بهذا الشكل من الحياة، كنت تقترب من غلاف الحقيقة، أما الحقيقة في أبسط صورها فقد كانت بعيدة عن منالك، إلي أن جاءت الساعة التي ارتفع فيها ماء البحر لتدخل إلى هذا العالم الجديد وتبدأ في الرؤية الجادة لتفهم وتدرك من أنت ومن تكون!..."

"... أعلم أن لحظة هيجان الموج التي دخلت عبرها إلى باب العالم المفقود، الذي أنت حاضر فيه، هي لحظة لا تتكرر في الدهر، يغيب كل إنسان منها، إذا أصر على الحضور. هناك من يتوقعونها ويشتغلون لأجلها فيفشلون، وهناك من تحبهم هذه اللحظة، فتعبر بهم مثل نسمة باردة أو ما تصورت من

الصور، لكنهم يغفلون عنها فأنفسهم لم تستعد لهذا المخاض الكبير. وأنت بدخولك كانت نفسك قد صغت وروحك قد خلصت، ونبت جناحك الذي لم تكن تراه، فطرت إلى داخل العالم الثاني، فأنت حاضر معي وإلي جواري تسمعني وأسمعك. هل كنت تتوقع ذات يوم وأنت الذي طالما تعلقت بي، أن تراني؟.. أبداً لم يكن ذلك التوقع قائماً، لكن ذلك حدث. ومن الآن عليك أن تتهيأ للتزود والإدراك، حتى إذا ما خرجت كان خروجك سهلاً وهيناً وكنت عارفاً، لتعود وتصبح علماً من أعلام الموسيقى في عصرك يعرفك الجميع شرقاً وغربا وتتناغم الأفلاك مع موسيقاك المبتكرة، حيث أن لحنك سيكون مختلفاً باختلاف روحك، التي ستكتسي جمالاً وطراوة وتخف، وبخفة الروح تأتي الموسيقى بأشكال لم تكن تظن أنها قائمة ولا ممكنة. كل المبدعون خرجوا من هنا، وهنا تدربوا، وجاءوا إلى هنا لأنهم امتلكوا خواص المجيء التي هيئت لهم الحضور..."

عوالم فان كوخ

***

من رسالة كتبها فان كوخ لشقيقه تيو قبل انتحاره

الساعة العاشرة صباح 29 يوليو/ تموز 1890م

Auvers-sur-Oise

"... حسناً يا (تيو).. بوصفك شقيقي فقد كنت تدرك جزءاً من معاناتي في هذا العالم. لكنك لم تكن تعرف كل شيء. ليس هو الحب وحده، الذي دمرني. وقادني إلى الموت. ولا الفن. ولا جدلي مع هذا الأخرق (بول جوجان) الذي كان مشغولاً بالأسئلة الكبيرة. كان يظن أنه الوحيد في هذا العالم الذي يفكر في مثل هذه الأمور، وبإمكانه الإجابة عليها. أما أنا فعليّ أن أسمع له، فقط . لأني أخرق مثله، لكنني بلا هدف. والإنسان الذي يجهل هدفه في الحياة سوف يفقد الأمل سريعاً وأيضا سيكون ضحية الصمت. لا تسمع يا تيو هؤلاء المهرطقين الذين يقولون دائما: أن الصمت زينة. أبداً ليس هذا صحيحاً. الصمت أحياناً يعذب المرء لاسيما إذا ما كان له

صديق غليظ الروح مثل جوجان، الذي يمكن أن يقود المرء لأن يقطع أذنه كما حدث معي.

حدثتك عن جوجان كثيراً. وثمة أشياء أخرى سوف أخبرك بها في هذه الرسالة، التي أكتبها الآن قبل أغادر العالم بساعة على الأكثر. فبعدها سوف أمضي. إلى أين؟!. لا أعرف. لا أحد يدرك أين يذهب بعد الموت. وأنا بمثل ما أشعر بشيء من الخوف من هذه اللحظة الغامضة. أشعر أيضا بفرح يغمرني أنني سوف أكون في عالم ثان.. ربما يحدث ذلك.. عالم مضيء بالألوان كتلك التي رسمتها في القرى الريفية. تأمل لوحاتي الأخيرة، راجعها بعمق في الليل وتأكد أن المصباح معبأ بالجاز تماما. لأنني أخشى أن ينفد الوقود قبل أن تكون قد فهمت مغزى ما أعنيه. أنا أحدثك عن الألوان لكنني أعني أيضا أن تتأمل تلك القرى جيداً. سوف تتوقف عند لوحة معينة. فيها رجل يتمشى من بعيد في زقاق مهجور. أظن أن شجرة حمراء كانت وراءه، وقطة صغيرة بيضاء بعينين لامعتين توقفت للتوّ خلف الشجرة. هذا الرجل يشبهني تماما. أو بالأحرى قل هو أنا.

لأول مرة سأخبرك أن كل الرجال الذين رأيتهم في تلك القرى الريفية هم أنا. حتى لو كان هناك أكثر من رجل في اللوحة فهم في الخلاصة رجل واحد. هو (فان كوخ) المعذب الذي مات لسبب ما. ليس هو الحب ولا الفن ولا الجدل مع

الأخرق جوجان، الذي أخبرني أنه يفكر في الانتحار حتى يفهم لغز العالم بطريقة شجاعة. قال لي:

"ليس أمامي من حيلة سوى المواجهة.. لكي نفهم هذا المندس علينا أن نقف أمامه لا خلفه!"

لكنه كان جباناً - أي جوجان -.. اكتفى بشجاعة في مواجهة اللون والحامل والريشة، وكان كلما رسم لوحة جديدة يتقطر عرقاً، كأنه ما زال ذلك السمسار القديم الذي عشقته البورصة، فالرجل كان يعمل في سوق الأوراق المالية بباريس قبل أن يتفرغ للفن، كما أخبرني مراراً.

يتوقف جوجان عن الرسم. ليحكي لي عن تجاربه في السمسرة، كيف كانت الأحوال في باريس قبل سنوات، وكيف صار الواقع الآن:

"كل شيء يتدهور.. ليس الفن وحده الذي يفتقد للقيم النبيلة.."

يصمت قليلا، يقول:

"هؤلاء الذين يجمعون المال نادراً ما يفكرون في مغزى الرسم.. معنى أن تكون هناك فكرة عظيمة داخل إطار لوحة، فالعالم عندهم يبدأ وينتهي في صندوق يكنزون فيه الأوراق النقدية"

"ألا تلاحظ أنك كثيراً ما تتحدث عن المال.. رغم أنك تقول لي كثيراً أيضا أنك لا تهتم به؟"

"نعم.. وقد بدأ ذلك الشعور ينتابني بعد أن قررت مغادرة المضاربة في البورصة إلى الأبد"

يستطرد هازئاً:

"ربما أعود إليها في الجحيم"

لا استرسل في النقاش معه، فرأسه عنيد يا تيو.. ليس فيها سوى هراء. مغالطات. وسخف. وإدعاءات. هذا الرجل كان أحد أسبابي، أعني جنوني، لو شئت. أعني في إحساسي بأن الله أبدع خلق العالم، لكنه ترك فيه ثغرات مخجلة. جوجان كان أحداها، فقذارته لا تحتمل.

لكن على أية حال لا تظن أنني مت بسبب هذا الغبي. المدعيّ. أنا أحب نفسي شديداً. أحبها لدرجة أنني لا يمكن لي أن أضحي بها إلا من أجلها. قد لا تعرف ذلك. لكن عليك أن تعرفه الآن وأنت تقرأ رسالتي هذه.

بمعرفة ذلك ربما سوف تفهم كثيراً من (الغوامض) في حياتي؛ أشياء كانت غريبة بالنسبة لكَ لأنك ببساطة كنت تجهل شقيقك. أيها الأخ الأكبر..."

***

ثمة ثلاثة مجلدات تحوي مجموعة كبيرة من الرسائل والخواطر التي سطرها فان كوخ إلى شقيقه تيو، والتي تتضمن آراء متنوعة في الحياة والرسم والنقد والمجتمع، وعن نفسه وغيرها من الأمور. لكن هذه الرسالة لم تُضمن في المجلدات الثلاثة، فقد اختفت لسبب غير مدرك، وتم العثور عليها لاحقاً في أربعينات القرن العشرين، ضمن رزمة أوراق خاصة بعمدة بلدة (آرل) الواقعة بمقاطعة (بروفانس) في الجنوب الفرنسي، وهي المكان الذي قضى فيه فان كوخ آخر أيام عمره قبل أن ينتحر في أحد الحقول المجاورة للبيت الذي أقام فيه بالبلدة، حيث قام بإطلاق الرصاص على نفسه ولم يمت على الفور، إذ تم نقله إلى المستشفى والتي مكث بها يومين قبل أن يفارق الحياة على أعتاب السابعة والثلاثين من عمره.

يلاحظ أن الرسالة غير مكتملة، فهي تبدأ فكرة تتعلق بالأسباب التي دفعت فان كوخ للانتحار، لكن الفكرة تنقطع. وإن كنا سنفهم أن فان كوخ يرهن السبب في حبه لنفسه. فهو يشير إلى أنه "لا يمكن له أن يضحي بنفسه إلا من أجلها". وهي على أية حال تضحية. أن تكون النفس كبش فداء لذاتها. وما يبقى غير موصول في الفكرة، ما أطلق عليه كوخ "الغوامض" في حياته. وهي كما فسّرها أمور مجهولة لشقيقه تيو المقرب له، وهو يصفه بالجهل "لأنك ببساطة كنت تجهل شقيقك أيها الأخ الأكبر".

***

أوضح هذه النقاط لأنني أرهقت نفسي ردحاً من الزمن بحثاً عما يمكن أن يكون باقي الرسالة قد أوضحه. ولكن دون جدوي. فهذا المقتطف من الرسالة هو المتوفر، وفقا لشهادة المشرف على (متحف فان كوخ) في أمستردام، العاصمة الهولندية، ولي أن أُذكِّر أن كوخ ولد في بلدة (زونديرت) بهولندا في سنة 1853م. لقد ذكر لي المشرف بلهجة واضحة:

"ليس من ثمة باقي للرسالة.. هذا هو الجزء الذي تم العثور عليه بالضبط"

سمح لي بتصوير نسخة، من نسخة هي مصورة أصلاً عن الرسالة الأصيلة التي وضعت داخل صندوق زجاجي شفاف، معالج من الداخل بمواد كيماوية هدفها المحافظة على الورق لأطول زمن ممكن.

أخبرني وهو يرافقني إلى مكتبه قريباً من البهو الرئيسي لمدخل المتحف:

"كثيرون جدا قاموا بنسخ هذه الرسالة وغيرها من مئات الرسائل والقصاصات التي تركها فان كوخ.. لكن لا أحد كان لحوحاً مثلك في تمجيد نفسه"

ابتسمت بخبث، وسألته:

"لا أفهم ما الذي تعنيه!؟"

"لا تدعي الغباء.. أنت تعرف ما أقصده"

ردّ عليّ وهو يضع يده اليمني على جيب بنطاله الجينز، ومن ثم محركاً الأخرى أعلى رأسه متحسساً صلعه، وباقي شعيرات في مؤخرة رأسه التي تشبه بطيخة في إحدى لوحات فان كوخ، كانت موضوعة على بعد أمتار منا على الحائط المجاور لمكتب المشرف.

أقنعت نفسي بسرعة، ألا أدور على الرجل كثيراً، خاصة أنه قدّم تشريحاً سريعاً لأزمتي والتي أكاد أجزم أنها تشبه الأزمة التي مرّ بها فان كوخ في حياته وأدت به في النهاية إلى قرار الانتحار. وقد وصلت مع نفسي إلى تحليل سريع وموجز أيضا، أن المشرف على المتحف وبحكم عمله الطويل في هذا المكان وحياته شبه الدائمة مع عوالم فان كوخ وعشقه له، قد يكون وصل إلى فهم نفسيتي بسهولة. ولهذا قررت أن أساله:

"هل ترى ثمة شبه بيني وفان كوخ ؟!"

هذه المرة كان المشرف قد ابتسم بخبث، كأنه يرد على ابتسامتي المزيفة سابقا. وقال لي:

"حذرتك لا تدعي الغباء.. لكن يبدو أنك غبي فعلاً"

تركته يكمل، رغم رغبتي في قطع حبل أفكاره التي لم تعجبني:

"تعرف أن فان كوخ دخل التاريخ بكل جدارة.. لا أحد يمكن أن يتجاهله ولو بعد قرون بعيدة جداً. أما أنت فماذا تكون في هذا العالم أيها الأحمق... الـ....."

شعرت برجفة في جسدي، وغضب يجتاحني وما يشبه الدوار في رأسي.. وفجأة توقفت عن أي تفكير سوى تناسي ما سمعته. فمثل هذا الكلام تكرر كثيراً من أصدقاء وأقارب وحتى زوجتي التي كانت تصفني بغرابة الأطوار، وآخر ما حدث لي قبل ساعات من مغادرتي البيت في طريقي للمتحف فقد نعتتني بذات الصفة الأخيرة التي نطق بها المشرف أخيراً... "الـ... مصروع".

يلقبونني بالمصروع، منذ أن كنت طالباً بكلية الفنون التشكيلية بالخرطوم، وربما قبل ذلك. ليس بإمكاني أن أتذكر بالضبط، وعندما نطقت زوجتي بالكلمة لم تأت بجديد. كذلك المشرف على المتحف. السيد (بيرل جوهانس). الذي ستتعمق علاقتي معه بمرور الأيام، خاصة بعد أن يعرفني بشكل أفضل، ويثق في عقلي. وأنني لا أقل أهمية عن فان كوخ كما قال لي صراحة، بعد ثلاثة أشهر من ذلك اليوم الذي نسخ لي فيه الرسالة، قبل أن يطردني لاحقاً، ويقول لي:

"لن أراك هنا مرة أخرى"

"لكن مشروع دراستي بهذا الشكل لن يكتمل!"

"لا يهمني هذا.. إذا كنت إنساناً عاقلاً فسوف أتعامل معك.. أما أن تكون غبياً أو تدعي ذلك، فهذا يرهقني جداً يا إدريس"

كان قد حفظ اسمي رغم أنه سمعه مرة واحدة. ولاحقاً سأفهم أن الرجل له قدرة غير عادية على تذكر الأشياء والمواقف، بما فيها التفاصيل المملة، خاصة إذا ما تعلق الأمر بأعمال فان كوخ. هل لأنه عاش إلى جواره بعمله مشرفاً على المتحف، طوال أربعين سنة من عمره؟! وهو الآن على ما يبدو في منتصف الستينات.. قد لا يكون تقديري دقيقاً. لكن ما أنا متأكد منه بنحو جيد أن الرجل قد تجاوز الستين بالفعل.

في المرة الثانية بعد طردي، كنت قد دخلت عليه بهدوء، عكس المرة السابقة. لم أثر أي نوع من الضجيج الضار، كما يسميه الرجل. الذي لم يكن من أهل هولندا. فقد كان مسقط رأسه في فرنسا، وعاش لسنوات إلى منتصف العشرينات من عمره في (بوركينا فاسو) في أفريقيا. ذهب مع والدته المطلقة إلى هناك لتعمل مدرسة للغة الفرنسية، قبل أن يفارقها، بعد خلاف بينهما حول مستقبله. كان يريد أن يكون موسيقياً، أن يصبح "موتسارت جديد" ذات يوم، وكانت والدته تريده أن تراه قسيساً في كنسية..

"ولكن كيف وصلت إلى هنا سيد بيرل؟"

كانت الطاولة معبأة بقصاصات لاسكتشات لوجه فان كوخ رسمها المشرف في سنوات مختلفة من حياته،. بدأت في اليوم الذي قرر فيه أن يغادر بوركينا فاسو ليبدأ رحلته الخاصة جداً.

كثير من أسرار تلك الرحلة لم يخبرني به، واكتفى بإشارات لمواقف وأماكن كان يشير لمعالم فيها دون أن يسميها. بعضها تعرفت عليه والبعض الآخر كان صعباً عليّ أن أدركه، فطريقة بيرل تقوم على الاجتزاء المثير للضيق أحياناً.

بعد فترة كنت قد تعودت على هذا. ليس لأن الرجل هو نافذتي الممكنة إلى أسرار عالم كوخ فحسب، بل لأنني وجدت نفسي تشتاق كثيراً للجلوس معه. أن أثرثر بجواره في أمور كثيرة تبدأ بـ كوخ وتنتهي بفلسفة الوجود، وقضايا أزلية ليس لها إجابات قاطعة، على شاكلة:

من أين جئنا؟ نحن البشر. وإلى أين نحن ذاهبون؟!

***

قال لي:

"هذا الوجه بالتحديد.. أظن أنه لا يشبه كوخ!"

قلت له:

"بالعكس هو يشبهه تماماً.. ألا ترى اللحية والشارب.. أنهما نفسهما كما في لوحة كوخ التي رسمها يصوّر فيها وجهه"

"صدقني.. كوخ لم يكن يرسم نفسه.. كان يرسم إنساناً آخر.. ليس هو على أية حال!"

كانت هذه النقطة الأخيرة مثيرة لي، وقد شغلتني عن الاسترسال في أسئلتي للرجل فيما يتعلق بمشوار حياته، رحلته إلى هولندا ومسؤوليته من المتحف منذ سنوات بعيدة. أيضا كان ثمة سؤال مُلِّح يتعلق بالسبب الذي جعله يرسم فان كوخ دون غيره. قبل أن يكون في المتحف. ولماذا ترك عشق الموسيقى وبدّله بالرسم. رغم أنه لا يطلق على نفسه رساماً، وقد أخبرني:

"رسوماتي هذه لي أنا وحدي.. لم يطلِّع عليها أحد من قبل"

"ولما ترسم إذن؟!"

"أخبرتك هي لي وحدي.. لا يحتاج الأمر لمزيد شرحٍ! لا تكن ثرثاراً"

كعادته، كثير من إجاباته مقتضبة، تتركني في حيرة ومع كل إجابة تنفتح مسافة أخرى من التيه. لهذا كنت في بعض المرات وأنا جالس معه ينتابني شعور أنه لن يخدمني مطلقاً في مشروع بحثي عن فان كوخ. فقد كان همي في البداية قبل أن نصبح أصدقاء، أن أكمل مشروع الماجستير الذي بدأته قبل

أقل من سنة في السوربون عن "البعد العرفاني في حياة فان كوخ". ولهذا الهدف كنت قد قدِمت لأمستردام مع زوجتي وأقمنا في شقة صغيرة مكونة من غرفة واحدة للنوم وبهو صغير خانق، ومطبخ على طرف البهو وحمام لا يكاد يستوعب شخصين. وهو مكان برغم ضيقه الفاضح كان يشعرنا أنا و(ساندرا) بالجنون، فهي الأخرى كانت مشغولة بالفن وإن كان بدرجة سطحية، كانت ترسم وبهوس. لكن علاقتها مع الرسم لا تتعدى أبعد من الخبط بالريشة على الورق دون أن تطور تجربتها، فغالبا إذا ما انتقل الحديث عن أمور فلسفية فقد كانت تسرع لفعل أي شيء، أن يكون جلَّ همها الهروب من الحوار. ولهذا كانت تصفني أحياناً بأنني كائن ممل "على شاكلة صديقي فان كوخ" لأنني أميل لفلسفة الفن في حين أنه ممارسة ومتعة فحسب بتقديرها.

لم تكن تزعجني الصفات التي ترسلها في أوقات متفاوتة، فأنا إنسان تقوم علاقتي على الإخلاص في تقبل كل أمر مزعج.. يحدث هذا مع الزوجة والأصدقاء.. وعلى العكس تماماً من كل توقع كانت غرابة أطواري هي ردة الفعل الطبيعي مني على تصرفات الآخرين، حيث أنني في بعض المرات أهرع للعصبية، بيد أن عودتي تطل مجدداً على عالم من الألفة والسكون مع الذات، وسماع من حولي بإرهاف. لقد تعلمت ذلك من قراءاتي الأولى عن فان كوخ، كيف أن السمع يهذب الإنسان. إلى اللحظة التي لم يعد فيها يسمع عندما قطع أذنه.

***

يلمّ بيرل الرسومات بسرعة بعد أن كان قد شتتها على الطاولة بشكل عابث، يسميه عشوائي. ويشرح لي:

" العشوائية هي التي تحكم مزاج الفنان"

"تعني فان كوخ؟"

"أقصد أي فنان أصيل.. قادر على منح العالم مساحة غير مكتشفة من قبل.. تزويده بطاقة من الجمال الخارق المأخوذ من نفث إلهي"

"نفث إلهي!!"

ضحك بيرل وهو يجمع باقي الاسكتشات قبل أن يقوم ويعدل بنطاله، ويحك إليتيه بطريقة متكررة.. لم أقاطعه، تركته يكمل فكرته بهدوء. فقد نصحني قبل فترة "عندما أتكلم لا تقاطعني... دعني أكمل ما بذهني.. لا أحب هذه النوعية من البشر".

واصل يوضح لي:

"أظن أنك تفكر في تناقضاتي سيد إدريس.. تراني أحياناً أحدثك عن إله نسّق الكون. فنان عظيم لامحدود القدرات..

ومرة ثانية أمضي للقول أنا لا أؤمن بشيء أبداً.. حتى نفسي لا أؤمن بوجودها"

"أعرف كل ذلك.. أعرفه جيداً..."

"ما يجب أن تعرفه بشكل جاد أنني أضع للاستعارات قيمة كبيرة في حياتي.. ليس في لغتي، وكلامي. بل أيضا في النحو الذي أرى به العالم وأتعايش به مع زخم الحياة من حولي"

هكذا كان بيرل، يتنقل من موضوع لموضوع ثان، ثالث، رابع... لا يتوقف عقله.. وكل موضوع يترك مشرعاً للتأويل والنهايات مغلقة بالألغاز أو "الغوامض" كما كتب فان كوخ في رسالته لشقيقه تيو. أخبرته بما دار برأسي حول شخصيته، لم يعلق هذه المرة. أكثر من الضحك. استلم يدي اليسرى وجرني كطفل ضائع يبحث عن أبيه، ولم يتوقف بي إلا أمام المتحف، بعد أن قطعنا حوالي عشر دقائق مشياً على القدمين من المقهى الذي كنا نجلس فيه.

***

الساعة قد تجاوزت الواحدة من صباح اليوم التالي. والهدوء يغمر أمستردام بترقب قد يكون مهماً لبني آدم واحد. ربما أكون أنا، هو!. أو أي شخص يبحث عن أمر ما، بحيث

تضيع عنه تفاصيل البدايات. فأن تبدأ هو الأصعب دائماً. أما النهايات فلا وجود لها.

أدار بيرل المفتاح النحاسي، فتح الباب الخشبي الكبير، أدخلني بالطريقة ذاتها التي جرني بها في الشارع. كنا نسير في ردهات مغلفة بالظلام وشبه الضوء، إلى أن نزل بي إلى سرداب لم أره من قبل، وانتهى بي إلى باب صغير فتحه بمفتاح كان مخبئاً تحت بلاطة قابلة للتحريك. لأجد نفسي أمام مخزن واسع.

"هنا ما لم تره من قبل يا إدريس!"

فهمت أشياء كثيرة، لكن مقصد بيرل من كلامه يجب ألا استعجل، فثمة أكثر من احتمال دائماً.

"أخيراً سأدرك ما المقصود يجب عدم التعجل"

قلت سراً، وانتظرت ما الذي سيحدث. فإذا بالرجل يفتح صندوقاً خشبياً بأرقام أدارها بعجلة، بحيث لم أميز ما الرقم السري الذي استخدمه، ثم غاصت يداه في كومة من الأوراق على ما أظن.. فقد أمرني ألا أنظر تجاه الصندوق وأن أقف مواجهاً الحائط، إلى أن أخرج شيئاً ما، عرفت بعد ثوان أنه لفافة من ورق البردي، فردها بعد أن زاد الإضاءة بتحريك المفتاح الدائري عكس عقارب الساعة قليلاً، قائلاً:

"أنظر ماذا ترى هنا؟!"

كان أمامي وجه واضح الملامح لرجل يرتدي قبعة صغيرة، قبل أن أتأمله جيداً، سألني:

"هل تعرف من يكون صاحب هذا الوجه؟"

ترددت في الإجابة على عجل، رغم أنني كنت كامل التأكد أنني لن أتعرف على صاحب الوجه، فما أمامي كان رسماً ولم يكن صورة ليكون للوجه موضعاً في الحياة الواقعية. فهو قد يكون مجرد وجه افتراضي لشخص لا وجود له.

لم يتركني أفكر، قال لي:

"يمكن أن تتكهن قليلاً... مع تنبه بسيط.. أنت تعرف صاحب هذا الوجه جيداً"

عندها صرخ فيّ بعصبية:

"غبي.. كنت متأكداً من هذا الشيء"

فهمت لحظتها - وهو مجرد احتمال - أن هذا الوجه لفان كوخ، وهنا ابتسم بيرل وهو يرى كيف أن جبيني قد زال تقطبه. وقال لي بهدوء هذه المرة:

"لم ارغب في استفزازك... لا تصدق أنك غبي.. كان هذا قبل أشهر.. أما الآن فأنا متأكد من جنونك تماماً"

إلى تلك اللحظة لم أتكلم... وآثرت ألا أقاطعه. واكتشفت فجأة كأنما كنت غارق في حلم، أن الرجل ينتظرني أن أنطق، فقلت له الاحتمال الأقرب في ذهني:

"تعني أن فان كوخ هو صاحب الوجه؟"

"نعم هو... لا أحد غيره.."

ضرب على كتفي وهو يلم اللفافة، ويطويها بسرعة، يضعها في الصندوق بتكرار ذات الأوامر السابقة لي، أن أدير ظهري للحائط وأن انتظر الإضاءة وهي تخفت في المكان. وانتهي للقول:

"كل الوجوه التي رأيتها له من قبل كانت مزيفة!"

"لم أفكر في هذا من قبل.."

"أعرف ذلك.. أعرفه جيداً... أنصحك عليك أن تعجل بالعودة إلى باريس وأن تغير موضوع دراستك فوراً.. لم أكن أرغب في قول هذا من قبل، كنت أريدك أن تعرف بنفسك.. لكن بعد أن أصبحنا أصدقاء، كان أمامي دين يجب علي أن أسدده.. ولكن مقسطاً"

"تعني أن أركز على زاوية أخرى من حياة فان كوخ؟"

"أنت الآن غبي بجد يا صديقي"

قالها بمشاعر لم أتبينها... هل كان جاداً أم يمزح!

قلت له بغضب: "إذا فالوجوه التي رسمتها أنت لـ (كوخ الآخر) كانت مزيفة"

لم يكن أمامه سوى أن يضحك هذه المرة. قال أخيرا وهو يعانقني:

"أنت ذكي يا ابني.. ما أعنيه أبحث عن زاوية جديدة الآن في حياة فان كوخ فأنت تشبهه كثيرا في غباء تتدثر وراءه عبقرية"

الأم الإلهية

"يا ولدي ماذا تقول فيما أقول؟، فيقول لها: يا أمّي القول قولك"

الفتوحات المكية – ابن عربي

***

لكل منّا إذا صفا قلبه واحترف التأمل العميق، الغوص في ذات العليّ الجبار، أم، لكنها أم أخرى غير التي عرفها في مسارات الحياة المتعرجة، الخائبة. أم إلهية من نور وبرهان. لابد لنا لكي نأتي إلى الدنيا أن نخرج من بين الصلب والترائب، أن نقتات كما البهائم، ونلوك الأزمنة حتى نصل إلى خلاصنا إن رغبنا، إن كنا معلقين بالأشواق ونور الحقيقة.

تلك هي أمي إذن، أمي الإلهية التي كنت أعيش بجوارها دون أن أعلم، وقد كان بإمكانها أن تخبرني في عالم اليقظة بذلك الشيء، لكن لإدراكها أن الصحو باطل، آثرت أن تزورني في المنام، بكل حيائها، ألفتها، شجنها، عطفها، حنانها، روحها المنبثقة في الأفلاك العلية في زمن بعيد من أزمنة التكوين الأولى.

بهدوء العارف، أخذتني إلى صدرها، أرضعتني من ثديها أولاً، وقد رأيته بارع الجمال، مطرز بسحب غائمة، ومع تدفق الحليب، شعرت كما لو أنني طائر في السماء، مرتفعاً إلى أفق علٍ، إلى كوكب بعيد غير الأرض، ربما إلى سدرة المنتهى. وقد فهمت على الفور، أن هذا الجمال مصنوعٍ من نور مبارك، وليس من لحم ودم، وقد خاب ظني ساعة استيقظت من الحلم، لأنني رأيت "فاطمة القرطبية" أمامي، فأدركت أنها امرأة مصنوعة من لحم ودمّ.

لا أدري ما الذي جاء بها إلى هنا، إلى بيتنا، ولا الذي أجلسها على سجادة صلاتي. وبعد قليل أدركت أنني لم أخرج من عالم الملكوت بعد، لم أغادر الحلم وأطيافه، فأنا لم أكن في بيتنا، كنت في بيت فاطمة، دخلته في ليلة الأمس متأخراً، كان ذهني مكدرا، وقلبي مشغول بأشياء غير مفهومة.

كان أحباؤها قد غادروا مجلسها ما بعد صلاة العشاء، فيما ظلت هي جالسة على الأرض، تسبح باسم الله، وتنشد في حبه قصائد لا تعرف من أين تتدفق بحارها وقوافيها، سمعتها وقد أنشدت:

وقد أتيت إلى الطائي أساله هل لي مقام إلى الرحمن أسلكهُ؟

فقال: دربك في الورى شغفٌ ودرب أيوب في الأفلاك يدركهُ

قلت في سري: "لا أعرف طائياً في هذه البلدة غيري، فهل كانت تقصدني؟.. أتكون هذه المرأة مغرمة بي، هائمة بوصالي". ثم أنني استغفرت الله، ففاطمة إن كانت تعنيني فهي تضع لي مقاماً لا أظن أنني أدركه، مقام عارف يجيب على السؤال.. إنه لأمر عسير، وياليت حظي يكون وردياً حتى أقدر على الجواب.

وكأنها سمعت ما يسر به قلبي لقلبي.. فنهضت من على الأرض، وأشارت لي بالبنان الأيمن، قائلة: "إنه أنت أيها الطائي.. الذي لا يدرك جوهره.. تدرّب يا ولدي على العشق، حتى تدرك مقامك في الكون، وتفهم حقيقة الله".

"الله..." قلت بصوت مسموع.. كم كانت هذه المفردة تشغلني منذ أن كنت طفلاً، وكم انتظرت الليالي الطويلة أن أرى نوره هذا البارئ المصوّر، وكم حلمت أن أسلك دروب السماء لأصل إلى مبتغاه، وأجلس بحضرته وأنعم بسلوانه.

"لكنك لم تجرب العشق بعد.. لم تفهم ذاتك لتفهم ذاته.. لم تسامر أشواقك"، قالت لي فاطمة بعد أن أرتني بعضاً من مفاتنها، وأنا أغضّ بصري، وأقول في سري: "استغفر الله.. ياللخديعة!!".

لو حدث ذلك من أي امرأة أخرى، لقلت إنها أنثى تتدلل، أو أنه غنج جارية، أو أنها ترغب في الوصال، تشتهيني، أنا الفتى الأمرد. لكن أن يجري ما جرى مع فاطمة، فذلك أمر عجب، كيف لي أن أردّ عليها. لم أجد بداً سوى الاستمرار في

حيائي، وكتم رغبتي. نعم كنت راغب فيها، فقد كانت محاطة بهالة سماوية، يشعُ النور من شخصها، نهر من الجمال الباهر، من الغرابة الأليفة.

كان كل من يراها يقول عنها: هذه الولية الصالحة، تترك في الناظرين انطباعاً يقول بأنها لم تتخط عقدها الثاني، رغم أنها تزيد عن الخامسة والتسعين بقليل.. إنه نور الصلاح يخصم من رصيد العمر الظاهر، ويبدل الجسد كل يوم بجسد جديد.. وكنت أقول عنها: "تحسبها بنت أربع عشرة سنة من نعمتها ولطفاتها".

وقلت الآن: "هي حور الأرض، أنزلها الله لتفتن عباده!". ثم قررت أن أرفع رأسي، وأواجه عينيّ بعينيها الآسرتين، لأسمعها تنشد من جديد:

قد قيل أنك مسجون بمنزلتي وأنت في قلق دوماً تحرّكهُ

لو أن عقلك مشغول بأسئلتي ما كنت طيفاً تعانده وتربّكهُ

وفي هذه المرة ملأتُ قلبي الشجاعة، بغير ما سابق عهدي، كنت أتي إليها وحدي، أو مع الجماعة، فتحمرّ وجنتاي حياء في حضرتها، ولا أقدر على النظر إليها، أما الآن فقد اقترب الوصال. وقلت لفاطمة:

"إنه لشعر جميل.. ولكن من تقصدين البارئ، أم صورة من صوره في العالم؟"

ضحكت باستهتار لا يليق بمقامها الذي عرفته، وردت عليّ: "الصورة.. أنتَ المقصود.. لما هذا العناد والكبرياء؟"

"أخاف الله يا أمي.. أخافه"، قلت وكنت ارتجف هلعاً من أمر ما لا أدرك سره.

ضحكت وقصت لي خبر امرأة جليلة حافظة لكتاب الله، أوردها ابن حزم في (طوق الحمامة): "وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجلّ ناسكة مقبلة على الخير، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يَكلَفُ بها، وكان في غير مُلكها، فعرَّفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهيأ لذلك، فقالت له: مالك؟ ومن ذا عُصِمَ؟ فلا تبالِ بهذا فوالله لا أطلعتُ على سركما أحداً أبداً، ولو أمكنني أن أبتاعها لكَ من مالي ولو أحاط به كله لجعلتها لكَ في مكان تصل إليها فيه ولا يشعر بذلك أحد".

ثم قالت: "لا يعلم قدر الوصال إلا من يجربه.. بارك الله فيها.. وليباركك أنت.."

خفت، وملأ قلبي الرعب، ورأيت كما لو أنني ذليل بائس، أهذا سلوك العارفين؟!.. قلت، فسمعتها تنشد من جديد:

وفي السفينة أشياء محمّلةٌ هي الحقيقة في كون تعاركهُ

من كل زوجين لا تحمل وغادرها فسحر مفردهُ زوجٌ يماسكهُ

ثم قبضت على موضع ما من جسدي، ولم أدر ما الذي جرى بعدها، هل كان مغنطيس قد جرني إلى جبل من الغفلة، أم أنني خُدِّرتُ دون علمي، أم أن لفاطمة القرطبية ما لم أطلع عليه بعد من دروب لم أدخلها، فالطريق إلى الله محفوف بكافة الاحتمالات وأنا كنت لم أزل في بداية الدرب.

***

ولما أن استيقظت من منامي، وأدركت الأشياء من حولي، محسوسات لابد من التعامل معها، تسكنها أرواح بعضها أراه وبعضها خفي عني. كان أن دخلت الحيرة قلبي: "هل جرى ما جرى؟.. أم أنني أتخيل..". وقد كان من العسير على روحي في تلك السن وفي أول عتبات الرحلة أن تفهم وأن تؤول.

كانت فاطمة قد نظرت إليّ بقوة، فلم أقدر على نزال بصرها، وقلت لنفسي: "والله أني لن أنظر إليها أبداً، كيف أتطاول على أمي الإلهية، التي أنجبتني في السماوات العلية، في زمن غير هذا الزمن، ومكان غير هذا المكان، قبل أن تكون الأفلاك والأزمان، وقبل أن يستوي الإنسان مضغة في رحم الغيب".

ولأن سلم الرحلة طويل، وغايتها لم تكن مشهودة في تلك الآونة، فقد وشوشت في صدري هموم ثقيلة، وأنا أفكر في الخطيئة التي ارتكبت، والهمّ الذي غزا جسدي في كل موضع

منه، لم يترك شبراً إلا وآلمه وأقلق خلاياه. وتذكرت وصية أمي الإلهية - التي خانت ألوهتها كما تصوّرت وقتها - لأمي الترابية (نور)، أمي التي أنجبتني في عالم الحقائق الزائفة.

كانت نور إذا جاءت لزيارة فاطمة بنت ابن المثنى، تقول لها فاطمة: "يا نور هذا ولدي وهو أبوك فبُرّيه ولا تعقيه". كنت أسمع حديث الجارة للجارة، والحبيبة للحبيبة وأني بين ذلك موزع القلب، مفتون بكلاهما، روح تتقسم في الأرض وتأبى القسمة في السماء.

أما الآن فالقرار صعب، وفاطمة أدركت ما بي من أحوال طارئة، أنا نفسي أعجز عن شرحها. رأتني وقد ظللت أديم النظر إلى الأرض، وقلبي مشغول بما لا أملك، ونوري الذي من حولي قد خفض.

تقدمت نحوي ورفعت رأسي بهدوء، وهي تمسح على خدي، وتقول لي: "لا تحزن أيها الطائي.. فالذات العلية وحدها هي التي تعلم بما كان، هو نور السماوات والأرض، ومصباح الإشراق، لو أنك ظننت بأن في قلبك نقطة سوداء قد رسمت فأنت لم تتعلم بعد، ولم ينالك نور الحقيقية الباهر للعيان، لكل إنسان، إلا من أبى".

"هل أقول لها: كيف لي أن أكفّرُ ذنبي؟ وأن أتجاوز الخطأ؟.. وأنت يا من دعوتك أمي.. هل يكون قدْر الأم الإلهية

خيانة ابنها، فبدلاً من أن توسده النور، تقوده إلى الظلام؟!..
يا عجبي من مذهبكم أهل الله!".

والله لم ينطق لساني، ولم تتحرك شفتي ولو بمجرد تمتمة باهتة، ولم أرفع رأسي جيداً لأنعم ببرودة يدها على خدي، ولا أدري كيف سمعت مقال روحي لروحي، وهي غائبة عني، فقد ذهبت وأحضرت أناء مملوء بالماء، وضعته أمامي، وأمرتني: "قم فأغتسل من رجس الشيطان".

ولم تترك لي أن أتمادى في تفكيري، فقد قالت: "الرجس الذي يسكنك رجس النفس، لا رجس الجسد.. فالأجساد باطلة، مستبدلة.. أما الأرواح فقائمة مستأصلة.. وتعلم الدرس الأول من دروس العشق للأم الإلهية: باب الجسد لا يغلق دولة الروح.. أما باب الروح فيغلق مدينة الجسد".

قلت لها: "لم أفهم.. لقد أصابني مسّ من الارتباك.."

قالت: "إذن تعال لتصلي ورائي.. ولتفهم المعنى"..

***

ولما أن فرغنا من صلاة لا أعلم عدد ركعتها، ولا أطوال سجادتها، كان قلبي قد فرغ من الهموم ورأيت كما لو أنني محمولٌ على ظهر طائر غريب الشكل إلى علٍ، بدلاً من كوني ذلك الطائر الذي حلمت أنه أنا. عبرت الكواكب والنجوم التي

تزين سماء الدنيا إلى مقعد عند مليك مقتدر، حدثني بصوت فاطمة وهي تتلو آيات الذكر الحكيم:

"وثيابك فطهر والرجس فأهجر ولا تمنن تستكثر"

ثم عاد بي الطائر إلى الأرض وحطّ بي في أشبيلية، في بيتنا، وصدى صوت فاطمة يردد، كأنه ينبع من الأرض السابعة: "عجبت لمن يقول إنه لا يحب الله ولا يفرح به وهو مشهوده.. أفرح يا ولدي.. أفرح يا ولدي.. أفرح...".

يتلاشى الصوت شيئاً فشيئاً فلا تبقى منه إلا هسهسة في القلب، وقد قاربت الشمس على الانسلال من الأفق الشرقي، من بين أشجار الحديقة في البيت، وأنا أسير كالتائه والسكران وسط الظلال الخافتة، كنت أبكي وقد جفّ حلقي من البكاء، وفيما البكاء، لم أكن أعلم.. إلى أن جاءني صوتها مرة أخرى، أمي الإلهية، تناديني: "هؤلاء البكاؤون كيف يدّعون محبته ويبكون! أما يستحون؟.. إذا كان قربه مضاعفاً من قرب المتقرّبين إليه والمحبّ أعظم الناس قربة إليه، فهو مشهوده، فعلى من يبكي، إن هذه لأعجوبة!".

وكفكفت دموعي التي كانت قد بدأت في الانهمار لسبب غير معلوم، ناظراً طلوع الشمس وقد ارتفعت مع هبوط أشعتها على الحديقة، وظلال ذلك الطائر لم تزل تحوّم أمام ناظريّ، يبدو كما لو أنه مسخ مشوّه، نصفه إنسان ونصفه الآخر

حصان، له بدن كمثل ثمانية أسود، وأشدّ بأساً من مائة نسر، وقد أخبرني أن غذاؤه الوحيد من البشر.

سألته: "ما أسمك؟"

قال لي: "عنقاء مُغْرِب"..

لم يكن الاسم غريباً عليّ، فقد أخبرتني فاطمة بخبره، ذات يوم، قالت لي مرة: "يا ولدي إليك البشارة، سيأتيك النبأ الأعظم على ظهر راحلة السماء، طيرها البراقي، وستكون سعيداً جداً، لأنك في ذلك اليوم الموعود سوف تنال متعة لا نهاية لها.. ستبدأ مغامرتك في الحياة، وبحثك المضني عن حقيقته، ذلك الذي يَرى ولا يُرى".

"وهل اقترب منه؟"

"ستقترب، لكن اقترابك لا يعني أنك فزت فالرحلة صعبة، وشاقة، وعليك بالصبر والتأني، ولا تستجيب لكلام عامة الناس الذين سوف يحاولون قتل طموحك، وكسر شوكتك، وزحزحة عزيمتك".

واستطردت :"حتى علماؤهم لا تركن إليهم، فهم أهل فسق ونفاق".

أما عن خبر ذلك الطائر فقد قالت لي: "لا يرسله الله إلا لمن أحب من البشر، لقد سافر به إدريس إلى مكان علٍ، طاف

بالأفلاك وعاد إلى الأرض، وبه هبط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض، وأنت ستسافر عليه"

"أليس هو ذات البراق الذي حمل خير البشر؟"

"كلا ثم كلا.. فالخاتم الأكبر خُلِق له طيره الذي لا يضاهى، وبمجرد أن انتهت الرحلة أمر الله الملائكة فحرقته حرقاً حتى لا يكون الله ذات يوم في شأن آخر، فيأمره بحملٍ ثان"

"لكنه قادر على إحيائه؟"

"قادر.. ولن يفعل لأن إرادته سبقت كل شيء"

الآن وقد كتمت أمري، قررت أن أتمشى وحيداً إلى الضحى، ونفسي تحدثني: "أين الحقيقة وأين الحلم؟".. إلى أن تذكرت دونما سابق تفكير أن عنقاء مغرب، قد أخبرتني: "أنظر إلى كتفك الأيمن سوف تجد فيه ختم المرور إلى بوابة السماء السابعة".

أزحت ثوبي، ونظرت غير مصدق، فقد كُتِب على اللحم بما يشبه الزخرفة المنوّرة: "لا إله إلا الله.. محمد رسول الله"، وكانت كلمة (محمد) منيرة ضاحكة، مستبشرة، خلتها إنسان يكلمني، وتارة كانت كوجه فاطمة القرطبية، وهي تناديني في خلوتها.

لم أتمالك نفسي من الفرح، وأنا أهرول إلى بيت فاطمة، لأجدها تنتظرني، كأنها علمت بما جرى، وفي مرة ثانية خلت أنني لم أغادر مقام الصلاة معها، وأنني لم أغادر بيتها منذ الليل.. لقد أصابتني حالة من فقدان العلاقة مع ذلك المخلوق، الزمن، وصليت بجوار أمي الإلهية صلاة الضحى، وما أن فرغنا، جاءتني بكوب من اللبن وآخر من العسل، شربت دون أن أتكلم، أو تكلمني، ونمت بعدها هادئاً إلى الظهر في بيتها.

استيقظت لأسمعها تقول لي:

"أبشر أيها الطائي، فأنت الآن أسعد من على الأرض".

تسونامي

تتناثر على سواحل البحر قرى صغيرة مكتظة بمنازل بدائية، تبدو من بعيد مثل كائنات تائهة قادمة من كوكب ثانٍ غير الأرض، أو هي مثل أحزان مغموسة في أناء كبير مصنّع من معدن الوجع، ربما لأن الناس هنا لم يفهموا من الحياة غير شيئين الحزن والوجع.

قليل جداً من المنازل شيدت من خامات الأسمنت الرديئة، مملوكة لطبقة لا يمكن وصفها بغير الفقر، حتى لو أن المنتمين لها، عاشوا سنوات، لا تقل عن ربع قرن على الأقل، في الخليج العربي، لم يحققوا فيها غير ادخار زهيد، وهؤلاء السعداء لم يكونوا سوى عدد بسيط منهم يعد بأصابع القدم الواحدة، قام على تعليم ابن واحد أو ابنين وفق أساليب التعليم الحديثة، لكن الأبناء كانوا غير بارين، أكثرهم هرب إلى العالم الجديد، إلى الولايات المتحدة الأمريكية، تزوجوا هناك، وعاشوا حياة ثانية.

لم يعد أحد منهم يتذكر البحر أو القرية الصغيرة على الساحل، التي احتفظت بشكلها وتضاريس الوجوه القديمة بها لعشرات القرون، رغم أنها القرية الوحيدة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر)، التي تغير اسمها أكثر من سبعين

مرة، لاعتقاد متوارث لدى الأهالي أن احتفاظ القرية باسمها لأكثر من ثلاثين سنة، سينذر بكارثة ستكون آثارها عميقة، غير متوقعة، توصف من قبل كبار السن الذين حفظوا هذه المعتقدات وفصلوا حياتهم عليها، بأنها نذير الشؤم الذي سيقول بنهاية العالم.

لابد للعالم أن ينتهي كما بدأ. لا يستطيع أي شاب من الجيل الجديد أن يناقش في هذا المعتقد. ويقع الاختلاف، دائما، بين كبار السن والصغار، حول الطريقة التي يمكن أن ينتهي بها العالم.

الذين بنوا المنازل الأسمنتية، وعاشوا داخلها لسنوات قليلة، اكتشفوا بعدها عمق المقلب الذي وقعوا فيه بهجرة الساحل إلى جهات بعيدة في القارة، ثم العودة مجددا. توصلوا إلى حقيقة، رغم أن العالم لا حقائق به، لكن لا أحد يستطيع إقناعهم، أن الصيادين الذين آثروا الحياة على أكواخ صغيرة بموازاة الشاطئ هم أسعد الناس في القرية، شاءت الأقدار أم أبت.

هم يؤمنون بشيء ما، غامض، قد يفهم أحيانا ويفسر على أنه الحظ، وفي مرات كثيرة يظل محتفظا بغموضه وعدم القدرة على تفسيره، يفضلون تسميته بالقدر. يلاعبون هذا القدر، ويلاعبهم، غير أن أي محاول للإمساك به تبوء بالفشل. هم لم يخترعوا هذه الأفكار، فقد سطرت في ديانتهم

التي تحكم تصوراتهم للعالم، والملخصة في كتاب مكون من اثنين وسبعين لوحة، تتفاوت في عدد الفقرات المتضمنة بها، يسمى بكتاب الغيب.

"رانا بانا" اسم القرية، وهي كلمة ساحرة، لا تفسير لها على الإطلاق، وهو الاسم الأخير الذي عرفت به القرية منذ ثلاث وعشرين سنة، اقترحه صياد عجوز، لا يشك أنه رجل سعيد، ما دام لم يغادر كوخه على الساحل منذ خمسين سنة ولم تحركه موجة الهجرة والبحث عن منافذ جديدة للحياة في مكان آخر غير القرية، بالتحديد غير البحر الذي اخلص له نصف قرن كامل، دون أن يتذمر أو يلعن القدر الغامض.

إنه (السيد أونغارت) الذي يثق فيه الجميع، إلا قلة بلا قلوب، وأمثال هؤلاء يمكن أن تجدهم في أي مكان، فليست "رانا بانا" جنة أرضية، إنها بقعة عادية مثل أي بقعة ثانية في العالم، لا تملك أي مقاومة لأي نوايا شيطانية، يمكن أن تعشعش في قلب أي كائن ما، حتى لو كان حجرا، فكل حجر في عُرف السكان له ضمير، مزيف كان أم نقي، يفيض بالسماحة والمحبة للطبيعة من حوله.

يعيش أونغارت مع زوجته (راتا)، أنجب منها (شانموجام)، ولد مدلل لم يأخذ من أبيه غير وجها مستطيلا وعينين غائرتين مخبأتين وراء نظارة سوداء قديمة، وله لسان حلو قادر على التطاول على الكبار وإفساد أخلاق بعضهم،

بتشكيكه ولو للحظات قليلة، نادرة، في جدوى الارتهان لماضٍ غير مرئي، لذكريات غائبة، مدللة مثله.

كان يثرثر كثيرا، وينتقد، ويفاوض في براعة كلامية، تبدو في سطحها محاولة لإصلاح العالم، أما باطنها العميق فيصب في هدف واحد في روح الولد المعتز بنفسه، أن يدمر أي اعتقاد بالكتاب المقدس، كتاب الغيب.

أمثال شانموجام أكبر دليل على أن التعليم الحديث لا يضيف للإنسان غير التبجح بالذات بعد أن تتحالف مع الشيطان، لا أحد في القرية يمكنه تفسير الأمر بغير هذه الطريقة، حتى أونغارت كان كثيرا ما يندم على لحظة الغفلة التي جعلته يأخذ ابنه الوحيد قصير القامة، في فجر غارق في التيه، ليضعه في الصف الأول مع طلاب المدرسة المبنية من الأخشاب التي ترهن مستقبلها للريح، والقائمة وراء كثيب رملي، وراء المغارة التي يحج عندها السكان مع مقدم يناير من كل سنة، ففي هذه المغارة رسم العابد الناسك (كاثان) ملامح الوجود في الكتاب الذي سوف يبقى خالدا لآلاف السنين.

لابد أن أونغارت صارع المجهول والأقدار، خاصة أنه رجل مؤمن لا يشك أي قروي في إيمانه، وكان مثل غيره يحلم بالغد الجميل الذي سيضحك فيه كثيرا على القرويين أمثاله الذين رفضوا أن يضموا أبنائهم للمدرسة، بحجة أن مستقبل القرية سيتعرض للخطر إذا ما سادت قيم جديدة.

كانت لأونغارت حججه، مثل أي إنسان يملك حجة، يعتقد أنها الحقيقة المطلقة، أن التعليم سيقوي من صلة الأبناء بمعتقدات الآباء وسيمنح الثقة للكثيرين في مجادلة العالم بأن حقيقة كتاب الغيب لا تقبل الشك.

"لو تسلحنا بالمعرفة الجديدة، نستطيع أن نفسر الحياة بشكل أفضل من داخل القيم التي نؤمن بها".. قال ذلك لمدير المدرسة القادم من العاصمة، والذي يبدو مهذبا أكثر من اللازم في عالم، قليل ما يحترم فيه المهذبون.

سرعان ما نمت علاقة خفية، غير مفهومة للكثيرين، بين المدير وأونغارت، دخل شانموجام طرفا فيها في فترة لاحقة، وكثيرا ما شوهد وهو يتسكع على الساحل بصحبة الغريب الذي تغيرت طباعه مع الأيام، وقل تهذيبه بتجرئه على قيم القرية. حدث هذا بعد أن فات الأوان، وبعد أن تغيرت طباع الولد أيضا، وأصبح من الصعب على أونغارت إن يجر ساعته إلى الوراء. ولهذا شعر بالاستياء، وهو يكرر:

"الغد الجميل لن يولد أبدا، رغم أن البشائر ماثلة في كل الأشياء من حولنا"..

دائما ظل يحدث أونغارت، راتا، بمثل هذه الكلمات، ربما كان يبحث عن عزاء لذاته بعد أن فقد الأمل في ابنه الوحيد، وربما كانت تحركه معتقداته الفطرية التي لا يستطيع أن يتجاوزها، وكلما تقدم به العمر أصبح أكثر اقترابا من

التقاليد وقيم كتاب الغيب، وهي عادة كل العجائز الذين يحسون بتهديد الموت، فهم يعيشون حياة مركبة، تؤمن بحياة جديدة في مكان آخر غير هذا الكوكب الملعون، يتبدل فيها الفقر إلى غنى أبدي، وتتمسك نفوسهم، في ذات الآن، بالرغبات الكبيرة في إنجاز ثمرة من أي نوع كان لحياة تبدو تافهة في تقديراتهم المعلنة.

"شانموجام كان ثمرة اقتربت من النضج وزمن جنيها، لكنها فسدت في اللحظات الأخيرة"

قالت راتا لزوجها، وهي تلملم أطراف ثوبها الهزيل في ساعة متأخرة من ليل بلا قمر.

المرأة لابد أن تعتقد كما يعتقد زوجها، حتى لو كان عجوزا لا فائدة وراءه، حتى لو كان غير قادر على إشباعها تماما وجعلها تحس بأنوثتها المتجددة. الخروج عن طاعة الزوج، تعني خروجا عن طاعة الإله الذي خلق الزوجة من أجل زوجها.

ظلت راتا تصارع المجهول مع أونغارت، تتحرك معه حيث أراد، في الواقع حيث تريد الأقدار الغامضة، ولا تملك أي حكمة للجدل في هذه الأشياء الغامضة.

قد لا تشعر في معظم الأحوال، بل غالبا، بأن هناك متعة حقيقة وراء فكرة العيش، غير أنها لا تفكر أبدا في الموت،

فالحياة رغم تعاستها أفضل بكثير وأكثر طمأنينة من الارتهان لعوالم غائبة، قد لا يعود فيها الإنسان موجودا، فعلى مدى التاريخ، لا يوجد من يملك دليلا قويا على أن الروح خالدة، تفكر راتا كثيرا في وحدتها، ساعة يكون أونغارت بجوار البحر، في مثل هذه العوالم المربكة، لكن من الغباء أن تسر لزوجها بما يحاول الشيطان دسه في قلبها، فشيطان المرأة الوحيد الذي يجب أن تطيعه وتتمايل وفق رغباته كريشة في مهب الريح، هو الحبيب الذي يمنحها الأمل في الغد الذي لن يأتي أبدا إلا من هناك، وراء البحر، فالبحر هو الحياة، الأرض التي تلثم فم السماء في مكان ما وراء الغيب، حيث يجلس الإله وتقع أسوار الجنة الضائعة التي خرج منها الإنسان في يوم بعيد جدا في التاريخ المنسي.

لأن أونغارت يدرك أن راتا لا تفكر إلا في الدائرة نفسها التي يفكر فيها، فقد أدرك أن قرارها لن يكون مختلفا عن قراره يوم أعلنت الحكومة خطة لإعادة التوطين بعيدا عن البحر، لإنشاء ميناء حديث، وأرسلت العشرات من العمال لإزالة الأكواخ القائمة على حواف الساحل.

قاد أونغارت مقاومة عنيفة ضد رجال الحكومة، وكوّن كتيبة صغيرة من كبار السن في البداية، انضم لها لاحقا شباب من الجيل الجديد، وقليل من الأطفال، أما النساء فلا يحق لهن المشاركة في الدفاع عن الأرض، لأن المرأة التي تشارك في الحرب، قد تتعرض لانتهاك عرضها خاصة إذا ما

رأت زوجها على حقيقته، خائف ومرتبك، وغير قادر على المقاومة بسلاح بدائي أمام سلاح ناري فتاك.

استطاع أونغارت أن يحقق انتصارات جاءت أشبه بالأحلام، لكن قبل أن يشعر بنشوة الانتصار ويستمتع به، تعود الجثث للتراكم على الساحل، يحملها مدّ البحر إلى الأعماق، حيث تأكلها أسماك القرش المفترسة.

كانت حرب غير متكافئة، من العبط أن يقال أنها انتهت بسهولة، وإن كانت قد بدأت سهلة أشبه بلعبة جميلة في يد طفل، ليكتشف في النهاية أنها ليست مجرد لعبة، بل بندقية رشاشة تركها والده على الرف قبل أن يخلد لنومة هادئة في الظهيرة، تنتهي بموت الطفل والوالد الذي حاول مقاومته لسحب البندقية منه.

بعد عشر سنوات من المقاومة التي مات أثناءها الكثير من القرويين، ارتضى أونغارت بالأمر الواقع وجلس على طاولة المفاوضات مع الحكومة في العاصمة.

كانت أول وأخر مرة في حياته يزور فيها العاصمة، حيث تختلف الحياة في المدينة عن ساحل القلزم، فالعالم هناك لم يسمع بكاثان وتعاليمه الخالدة ولم يطلع بعد على كتاب الغيب، هم ضعفاء أمام أنفسهم حتى لو ظنوا أنهم يمتلكون حقائق الوجود، هذه السيطرة المادية على الأشياء لن تكون إلا وهم كبير، كان أونغارت يعزي نفسه بمعتقداته الراسخة

التي لن تبدلها العاصمة أو أي مدينة أخرى في العالم، فالعالم الحقيقي يكمن هناك وراء البحر، في السماء، على عتبات الجنة الضائعة التي سيعود إليها الإنسان ذات يوم، ليعلم كم من الأوهام التي ضللته في الوجود الأرضي المزيف.

في الفندق العتيق الذي جرى فيه التفاوض، تنازل العجوز عن كل شيء، واقتنع بأن يعود إلى أدراجه حاملا انتصارا مؤقتا ناتجا من ردة الفعل عن حالة الاستياء الذي انتابه جراء ما رآه من حياة كذابة ومزيفة في المدينة، وقال لممثل الحكومة بعد يومين فقط:

"أغلقوا هذا الملف إلى الأبد، لكم الأرض فافعلوا ما شئتم بها، فالإله لن يعجز عن تدبير أحوالنا، وهو على أية حال أكبر من البحر، ومن حكومتكم الكافرة، لقد اقتضت حكمته أن نغادر البحر ونعيش في مواقع جديدة، ليكن ذلك، هذا قراركم أما قرار رب كاثان فسوف ينفذ في خاتمة المطاف"

ضحك ممثل الحكومة، أمام خطرفات عجوز على أعتاب الموت، وأخبر رئيس الدولة بالهاتف أن كل شيء قد انتهى، وأقنعه بأن يسمح لأونغارت بالعودة إلى القرية مؤقتا، ريثما تنفذ سياسة التوطين.

"سيدي، العجوز لا يملك أي خبرات في الحياة، ولا خوف منه مطلقا، لن نضيع وقتنا بعلفه لو أننا زججنا به في السجن"

رد الرئيس باقتضاب على ممثله:

"تصرف بما ترى، نحن محتاجون لسجوننا لمجرمين محترفين يهددون مصالحنا الجادة، دعوا أونغارت يمضي وسبيله"

عاد العجوز إلى القرية رانا بانا، إلى كوخه الصغير على الساحل، وقابله القرويين بترحاب كبير واحتفال ضخم أعدت له موائد متنوعة من كائنات وسرطان البحر، رغم أنه لم يحقق نصرا في واقع الأمر.

كانوا يحتفلون بنهاية الحرب وعودة أونغارت، فمن يذهب إلى العاصمة ويقع في فخ الدولة، من النادر، بل النادر جدا، أن يعود مجددا متعاف، بصحته وكامل قواه، حتى لو كان عجوزا يمشي بصعوبة، ويبصق دوما، دونما سبب.

خطب العجوز في المحتفلين به، مذكرا بعظمة البحر وأن كاثان العظيم ما كان لولا البحر... "من المهم للغاية أن نعيش قرب البحر حتى نكون صيادين أكفاء، فبالصيد وحده يحيا الإنسان ويرتقي لمرتبة النور، أن يرى ويبصر الوجود بعين ثاقبة، أعلموا أنه لولا البحر، لما كنا هنا، ولا كانت هذه الأكواخ التي تدثرنا في النهار والليل، إنها نعمة كبيرة لكن القليل منكم يشكر الإله، رب كاثان..".

انتهت الحرب، وعاد أونغارت، لكن هل تراجعت الحكومة عن قرار ترحيل سكان القرية، وإعادة التوطين بعيدا عن البحر، بحجة أن هذه المنطقة معرضة للزوال في أي لحظة، لأنها تقع على خط زلزال قد يدمرها في أي لحظة، أو فيضان عظيم قد يترتب عنه زلزال يأتي على جزء بعيد من أعماق البحر؟!

لم يكن القرويون مهتمين بمناقشة مثل هذه الأشياء، على الرغم من علمهم من خلال ما اعتقدوا أن الزلزال أمر حتمي، لابد أن يحدث يوما ما في القرية، لكن لن يحدث ذلك، ما لم تفسد الأخلاق ويتخلى الناس عن الإيمان بالإله، بعد أن يتحول كاثان العظيم إلى طرفة من طرائفهم وتنعدم ثقتهم بالماضي. قد تكون بوادر هذا الفساد قد ظهرت مع الأولاد الذين كبروا وأصبحوا شبابا أمثال شانموجام الذي لا شك في أن الإله غير راض عنه أبدا، هذا الإله الغريب الذي يرى ولدا صغيرا يسخر منه ولا يتخذ خطوة لعقابه، على الأقل قطع لسانه، حتى لا يتمادى في تطاوله.

"هو الإله له حكمته الخاصة، وطريقته التي لا يعملها أحد غيره في تصريف الأقدار الغامضة"

قال أونغارت منهيا نقاشا طويلا بين القرويين وهم يتناولون وجبات البحر الدسمة، قبل أن يدنو المساء ليغلف القرية بسكون حكيم، مستمد من حكمة رب القرية.

***

في طوفان الحياة وتقلباتها فقد أونغارت أعز الأصدقاء، الذين صحبهم منذ نصف قرن، وفي الطوفان الذي ينذر بنهاية العالم وفقا لتعاليم كتاب الغيب، فقد العجوز ابنه الوحيد، تحول العالم إلى مأساة وجراح، لكنه الجرح الذي يأتي بعده الشفاء، يكون الوجود قد دخل في بهائه المفقود، فالإنسان وعلى مر عصور طويلة منذ بدء الخليقة لم يعش السعادة كما يجب أن تكون، ظل دائما معلقا بالرجاء والأمل، مشنوقا لمجهول جميل آتٍ، ودائما كان هذا الغد المشرق متأخرا، إنه لن يأتي أبدا، غير أن التكهنات البشرية عاجزة أمام تصاريف الإله الذي يعرف كيف يسير الأمور وفق ذكاء خاص يتعلق به وحده، لا غير.

هاهو أونغارت يتأمل الجثث المتراكمة، والقرية التي تودع آخر أيامها في الكون، يحصي كم من الجيران فقد، مستغرقا في تأملات متشتتة تعيده لذكريات تائهة كأنما حيكت في عالم الغيب، هي لا تشبه هذا المكان، لم تكن ولم تحدث هنا أبدا.

تنفس العجوز بعمق، بحسرة وندم، بل بتفاؤل ومحبة للكائنات والأشياء، حتى لو أن شانموجام لم يعد واحدا من سكان القرية.

أصبحت الحياة في "رانا بانا" محفوفة بالاحتمالات المخيفة، حتى المؤمنين لابد لهم أن يخافوا، فالشيطان يلعب آخر أدواره المناطة به في رحلة الحياة الأرضية، يعمل مثل تاجر جشع، عليه أن يلم أكبر مكسب في زمن الأزمات، قبل أن يخسر كل شيء.

ليست وحدها الشياطين تتحكم في مصائر البشر فيما قبل النهاية الموعودة، هناك أشياء أخرى كثيرة. الخوف مثلا، سيتحول إلى كائن خرافي مرعب، سيهدد النفوس المطمئنة، يقلبها بين أصابعه ويقلق منامها وأضغاث أحلامها، لهذا كان أونغارت خائفا، بقدر حزنه على شانموجام الذي مضى، حيث انزلقت روحه وراء البحر إلى الأعماق إلى الجحيم الأرضي، يعاني ويلات العذاب، ويندم على ساعات من الفرص منحها له الإله لكي يتوب ويعترف بالخطيئة، غير أنه لم يتعظ

طافت بالعجوز الرؤى والأحلام في ثوان شاردة عن عمر الزمان، أزمنة غريبة مغلفة بالأنين والغضب والحنين. جلس على جذع شجرة جرفها الطوفان، قريبا من الكوخ الذي لم تعد له ذكرى، يرنو إلى البحر، يتذكر أحداث الأسبوع الذي مضى كأنه حلم أثيري، يرى القرية المنكوبة وقد تحولت إلى جنين مشوه لا حس له ولا إرادة.

"هل كانت الأشياء هي الأشياء؟! يا لرحمتك الكبيرة يا رب كاثان"

تمتم أونغارت بالدعاء، ملتمسا من الإله الجميل الجالس في مكان مجهول في هذا العالم، أن يخفف من روع النهاية، فمادام المرء سيعيشها فعليه أن يكثر من الدعاء وأن يبصّر القلب ويمتعه بالرؤية الصادقة قبل أن تُمحى الأنوار وتهرب إلى مخدعها خلف البحر، مخلفة ظلاما كثيفا في الوجود، وحده القلب قادر على تمييز الأشياء في غربة الذات وتيها مع اختبارات النهاية والفزع وغموض المستقبل.

مئات الأكواخ والمنازل، وحده الرب يعلم، ضاعت وراء الأمواج المتقدمة في عجلة مرعبة. كانت الأمواج تهدر، ترتفع، تمتطى وتلتهم الأخضر واليابس، في مشهد لم تشهد له البشرية مثيلا إلا قبل قرون طويلة، إنه المشهد الذي حكى عنه كتاب الغيب في اللوحة المسماة الطوفان:

"يرتفع البحر.. يمد نهديه للسماء.. يزبد وينهر الدواب والبشر.. يعلن حكمة رب كاثان.. يخرج من البحر النور وإليه يعود.. البحر ليس إلا المشيئة الصغرى.. الإله هو المشيئة الكبرى.. تغمض الأرض أطرافها.. يستعد الإنسان للرحيل إلى الجنة الضائعة.. كثيرون وجدوها في قلوبهم.. أما الذي انتظر وثابر ولم يضيء الإله قلبه كثيرا.. فالبحر سيحمل خطاياه

وينظف قلبه.. تصفو الروح وينغمس القلم في الحبر.. تكتب النهاية حكمة رب كاثان.. جاء الميعاد فلا تغتر أيها المسكين"

***

"إنها النهاية التي سيعود بعدها البشر إلى الجنة الضائعة، هي مأساة النهاية التي تقسم البشر إلى فسطاطين"

عزى أونغارت نفسه بالحديث معها جهرا، وهو يحلم بالعودة إلى موطنه الذي خرج منه قبل سنوات طويلة جدا لا يقدر على عدها، لأنه لا يعرف أن يعد أكثر من ألف، وأثناء الحرب كانت أخبار الجنود تنقل له بطريقة مضحكة، لدنيا ألف وألف .. وألف أخرى يا سيدي.

مع كل ألف يحرك أونغارت إصبعا، ثم يقول يعني لدينا هذا الألف ثم هذا الألف ثم هذا الألف، يكون مع كل ألف قد فرد أصبعه مجددا.

لا يرتبط الأمر بالذكاء، فأونغارت ليس غبيا على أية حال، فقط كان مؤمنا بأن الشيء إذا لم تكن في حاجة ملحة إليه فلا تضيع وقتا معه، ثم أن الإنسان ابتكر الأعداد لكي يحصي بها قطع الذهب، وهو لا يملك ذهبا، ولا حاجة له به، فالذهب علامة لفساد الروح والقلب معا. وعندما أخبرته راتا أن الحكومة رصدت مليار ونصف المليار جنيه للتوطين، كان أن سألها، هل هذا المبلغ أكبر بكثير من ألف جنيه؟!!..

راتا هي الأخرى لا تعرف أن تعد أكثر من مائة، ولو كانت تعرف فكم من الزمن ستستغرقه لتشرح لأونغارت كم يساوي المليار ونصف المليار، لأن الأصابع لن تكفي.

تتخيل راتا أنها لو امتلكت مائة جنيه لعاشت أسعد ما يكون، لن تعود مشغولة بهطرقات هذا العجوز، ومفردات قاموسه المحفوظ بالنسبة لها عن ظهر غيب، الجنة الضائعة، البحر، الأحلام، كاثان، الأقدار الغامضة، وووو...الخ، فقد سمعت شانموجام يردد كثيرا:

"والدي يتعلق بالغيبيات لأنه فقير، لكنه إذا اصطاد سمكة ضخمة كسمكة همنغواي في رواية العجوز والبحر، سيفهم أن لغرفة الحياة نوافذ أخرى غير التي فتحها كاثان قبل ملايين السنوات"..

رغم أن راتا لا تعرف من هو همنغواي، حيث حسبته عابدا ناسكا مثل كاثان، ثم شكّت، من غير الممكن أن يفكر الناسك الزاهد بهذا الشكل، إلا أنها فهمت أن ولدها الخبيث يعني أن والده يتسلى بأمور الغيب لأنه لا يجد أمرا مفيدا يشغله، وفهمت أكثر بحديث ذاتها، "لو اصطاد العجوز هذه السمكة التي يتحدث عنها ولدي، سيكون قادرا على العيش كشاب، فالإنسان يهرم ويشيخ بمجرد أن يفقد السيطرة على العالم، ولا يمكن لأي كائن ما أن يسيطر على الوجود ما لم تكن محفظته محشوة بالنقود"..

لم تكن متأكدة هل كانت تحدث نفسها فعلا أم أنها تردد ما قاله شانوجام قبل قليل. تتذكر، أن آخر عبارات كان قد قالها قبل أن يخرج إلى الساحل ليقابل صديقه الأكبر (سنا)،مدير المدرسة: "لا توجد جنة ضائعة وراء البحر أو في السماء، الجنة هنا في الأرض"..

***

"في العالم الجديد، ستكون قد حققت كل أحلامك المؤجلة، وسيكافئك الإله على صبرك ومعاناتك الطويلة، خاصة إنك أخلصت لكاثان، ألم تكن تحبه وتتقرب إليه بالأعمال الصالحة، لا تظن أنه سيتركك وحيدا في عالمك الثاني، سيقودك من يديك وستبصر معه الحقيقة التي ظللت تنتظر إدراكها منذ خروجك الأول، صحيح أنك لا تتذكر الآن، لكن حتما سوف تتذكر ساعة يكون للقلب أن يتذكر ويرى"

أسرّ أونغارت لنفسه، ضاربا بعصبية على جذع الشجرة ذلك لأنه تذكر عشرات الذنوب التي فعلها، هل سيغفرها الإله أم سيتخذ منها حيلة وسببا لزجّ أونغارت في الجحيم الأرضي. ألم يكن مقتنعا في البداية، عندما سمع بخبر التوطين أن الأمر لا يسوى، لكنه دخل في حرب خسرها، حتى لو قوبل من القرويين بالترحاب والاحتفال، فعندما حدثته راتا بالأمر نقلا عن شانوجام، رد عليها: "هذه الحكومة تضيع

الوقت، قبل أن ينتهوا من البناء سيكون الإنسان قد صنع خلاصه"..

لقد كان العجوز حتى تلك الأيام، يرى ويبصر بقلبه، ويعلم تماما أن نُذْر كتاب الغيب قد اقتربت، فما الذي دفعه للتورط في الشقاء والذنوب، لم يكن متأكدا من الإجابة، فقط تذكر أن الشيطان يمارس ألاعيبه على المؤمنين بحرفة تختلف عن الذين قرروا اتباعه سلفا.

آخر الهمابيل

الحياة المستقبلية

الحكاية المستقبلية

لـ (بستارجونسار)

الأربعاء 24 مايو 9533 ميلادية..

توفي أمس (بستار جونسار).. عفواً إنه توفي باللغة التي كانت سائدة قبل 6000 سنة على الأقل، لأن بإمكانه العودة إلى الحياة مجدداً.. لكنه لا يرغب، فقد أوصى في أخر ما سطره من وصايا:

"لا أرغب في العيش مرة أخرى.. حياة واحدة تكفي عندما تكون جديرة بالاحترام".

دعونا نتعرف عليه.. من هو بستار جونسار؟!..

يقول عن نفسه إنه أهم رجل في تاريخ (الإنسانية الجديدة).. كان ميلاده قد جاء في لحظة غامضة من التاريخ عندما توقف الزمن فجأة.. احتفاء بخروج هذا العبقري إلى الكون.. قلنا الكون لأن البشر، يعيشون في أكثر من كوكب وأكثر من مجرة، ولأن الحضارة البشرية كانت قد توصلت إلى التعايش مع مخلوقات تكاد تشبهنا، بعضها يختلف عنا جذرياً.. مخلوقات بعقول تعيش في عوالم بعيدة جداً.

توقف الزمن بناء على معادلة فيزيائية بسيطة، ابتكرها مجموعة من العلماء البشريين بالتعاون مع علماء من كواكب أخرى، وصادف أن كان التأكد من نجاح المعادلة، بنجاح التجربة، تجميد الزمن.. ذات اليوم الذي ولد فيه بستار جونسار.

لكن ليس الأمر مجرد صدفة، فكل شيء كان مرتباً تماماً.. فعندما كان العلماء يصفقون ابتهاجاً بنجاح تجربتهم، لم يكن يعلمون في واقع الأمر بأن الزمن كان ولابد له أن يتوقف لأن حدثاً كونياً كبيراً يجري في تلك اللحظة التي هي خارج الزمن.

يعني توقف الزمن، تجميده، العودة إلى ما قبل الانفجار الكوني الكبير الذي تولد منه العالم.. وهذا التفسير مبني على معرفتنا الحالية بالطريقة التي نشأ بها الكون، حيث يقول العلماء:

"في البدء كان الزمن ثانية واحدة فقط! وتمدد الزمن مع تمدد الكون"..

يعني ذلك أن نجاح التجربة، اختصار الزمن والمادة إلى ما قبل كل شيء.. إنه أمر صعب التصور.

كان ذلك التصور قائماً، إلى ما يقارب الـ 4000 سنة قبل مولد جونسار، لكن تم دحضه بعد أن اكتشف العلماء

حقائق كونية كبرى كانت غائبة عنا، نحن البدائيون الذين نعيش في القرن الحادي والعشرين..

***

في مطلع القرن الحادي والعشرين، كان الإنسان لا يزال أسير الأساطير، كان يعتقد أن الكون يصعب فهمه، وكانت الكثير من الأسرار مجهولة وغائبة.. كل ينطق بما شاء ويدعي.. كل يظن أنه يمتلك الحقيقة المطلقة.. الكل كان يعيش في جهل مطبق. لكن إذا لم تكن الحياة قد بلغت مجدها الآني في سنة 9533م فإذن من شأن أي كائن أن يقول ما شاء وأن يدعي المعرفة الكاملة.

في تلك الفترة من التاريخ، كان الناس في الأرض مشغولين بأسئلة مثل: النزاعات الثقافية والحضارية.. صراع العلم والدين.. الدين مع السياسة.. كانت ثمة شعوب نائمة في أغلب الشرق، وشعوب تظن أنها مستيقظة في يسمى بالغرب، وكان جل الحكام يخضعون لتنويم مغناطيسي هائل.

في الوقت الذي كانت فيه شعوب متطورة تفكر في غزو الفضاء وإنشاء مستعمرات للإنسان هناك، كان 70 بالمائة من سكان الأرض يعيشون تحت خط الفقر، بأقل من دولار (العملة الأمريكية التي كانت تسيطر على الأرض).. الآن لا توجد عملة، فالإنسان بات متفرغاً للإبداع والإجابة على

الأسئلة الكونية الكبرى، بعد أن تخلص من متطلبات تافهة في ذلك الزمن البعيد، أن يحقق شروط العيش بالدأب والعمل طوال النهار والليل، ليأكل ويشرب ويتغوط، ويمارس الجنس بطريقة سمجة وغبية، لأن كل هذا الأشياء لم تعد كما كانت في تلك الأزمنة الغابرة.

في تلك الفترة أيضا، كان العالم الأرضي مشغول بقضية الطاقة، كيف بالإمكان توفير بديل للزيت (النفط) الذي سينضب خلال خمسين سنة.. مائة سنة على الأكثر.. كانوا يجربون استغلال الطاقة الشمسية، لكنها كانت مكلفة، ولاحقاً أصبحت رخيصة، لكن كان هناك ما هو أرخص ومجاني.. جربوا أيضا ما يعرف بالوقود الحيوي، عندما نجحوا في توجيه البكتريا عبر الهندسة الجينية، إلى أن تمارس دورها في محاصيل زراعية لتحولها إلى طاقة ووقود.. لكن هذا النوع من الطاقة كان يعني ارتفاع أسعار الغذاء، لأن السؤال: هل سيأكل البشر أم سيستمرون في توليد الطاقة، وما حاجتهم للطاقة إن لم يكونوا قادرين على الأكل، وبالتالي البقاء إلى المستقبل؟ كذلك جربوا طاقة الرياح، ولاحقا توقفوا عن هذا الشيء.

لم تكن الحياة تقوم على معرفة صامدة قوية، بل كانت العشوائية هي التي تتحكم في المصائر.. التجريب ثم التجريب، فالفشل، فالعودة إلى ذات المربع الأول.. ومن ثم الكَرة مرة أخرى.. يحدث هذا في كل تفاصيل الحياة ومجالاتها: العلم،

الدين، الفكر، السياسة، الاقتصاد، الاجتماع.. يعني في كل أمر.

في الواقع أن الجميع كانوا يفعلون، ويفعلون، دون أن يكون لهم القدرة على إجابة سؤال واحد محدد:

"ما الهدف؟"..

هذا السؤال الذي يمكن أن ينجر لأسئلة عديدة على شاكلة:

"لماذا نحن هنا؟"..

"ماذا نفعل؟ "..

"ما الهدف من وجودنا؟"..

"هل سيأتي يوم تتكشف فيه الحقائق الكونية الكبرى.. هذا إذا كانت ثمة حقيقة كونية كبرى؟"..

باختصار: كان الإنسان لغز، وكان وجوده اللغز الأعمق.. وكان الجهل هو الذي يتحكم في العالم، فالعلم كان يسير مظهرياً بتوسع هائل.. لكن إذا كان الإنسان جاهلاً فهو يفرح لأتفه المخترعات ويراها معجزات كبرى.

***

الثلاثاء 23 مايو 9533 ميلادية..

اليوم.. كانت وفاته إذن.. بستار جونسار، إنه قطعاً كائن مدهش، لأن أبوه ينحدر من البشر، منا نحن - ولنا أن نفخر بذلك، أما والدته فتنحدر من سلالة كوكب سيروس Sirius الذي كان كهنة مصر القدماء يعتقدون أنه مكان خلود الأرواح التي فارقت الأجساد. وكان العرب قبل الإسلام يسمونه، نجم الشعري اليمانية.. (وإنه رب الشعري) .. (الآية 53 سورة النجم – القران -) .. وكان بعض العرب قبل الإسلام يعبدون هذا النجم. أما قبائل الدوجون الأفريقية فقد كانت تعتقد بذات اعتقاد قدماء المصريين، وتضيف على ذلك الاعتقاد أن سيروس، يمثل عنق الكون، ومنه خلقت كل الأرواح بواسطة الحركة الحلزونية.

إذن فقد جاء بستار، نتيجة تلاقح فريد، بين كائن جذوره كوكب الأرض، وكائن جذوره كوكب كان الأرضيون قبل مئات السنين، يعتقدون أن الأرواح تعود إليه أو أنها جاءت منه. لكن دعونا نربط بين الفكرتين: فكرة مولد بستار من أم سيروسية، وما كان يعتقده أجداد الإنسان الأرضي. والهدف من هذا الربط، هو معرفة السبب الذي جعل أجدادنا يربطون أقدارهم بهذا النجم، الكوكب البعيد جداً.

***

في عام 1930م قام اثنان من كهنة الدوجون بإعطاء معارفهم وأسرارهم الخفية عن الكون لاثنين من العلماء الفرنسيين المتخصصين في الأنثروبولوجيا، وهما: مارسيل غريال Marcel Griaule وغيرمين ديترلين Germain Dieterlen، بعد أن قضيّا مدة خمس عشرة سنة، يسكنان وسط القبيلة. هذه الأسرار منها سر نجم سيروس، أو نجم الكلب، الذي يبعد 8,6 سنة ضوئية عن الأرض.

ذكر الكاهنان Innekouzou وOngnonlou للعالمين ما يعتقده أهل الدجون أن الحياة جاءت من سيروس، بعد أن هبطت (سفينة فضائية)، قبل مئات السنين على الأرض، قالا:

"بعد أن رست السفينة قام شيء بأربعة أقدام بالنزول منها، على الماء، محدثاً ضجيجاً في المكان وقعقعة عالية"

وقد سما هذه السفينة بـ Pelu Tolo، اسم موسيقي رنان .. بولو تولو.. لكن وراء هذا الرنين غموض وأسرار، ليس من قبيل البحث عن الحقيقة؛ تجاوزها والاستخفاف بها.

تعني (بولو تولو)، النجم صاحب الكواكب العشرة، أو صاحب الأبعاد الأربعة أو الزمن أو النهاية، أو كوكب الخلود.

لاحقاً تم تأويل فكرة (العشرة) بربطها بلغة الكومبيوتر أو لغة الديجتال Digital language القائمة على نظام الواحد والصفر، أي العشرة.. 10101010.. وهكذا.. نظام الفتح والإغلاق.. On – Off..

***

كان العلماء، البشر بشكل عام يأسرون الأشياء للمجهول، الغيب، يبحثون عمّا يربط بين المتناقضات عسى أن يتوصلوا إلى فكّ جزء من سر الكون، لغزه.. في الأساس كانت الفكرة صحيحة، أن تحاول الربط، تشغيل العقل لهذا الغرض، لكن ثمة خطأ جوهري لم يكن أحد يدركه.. خطأ يتعلق بإدراك الإنسان وقتذاك للطريقة التي تعمل بها كيمياء العالم. وعندما يتمكن الإنسان من معرفة بعض من عناصر هذه الكيمياء بعد قرون لاحقة، سيضحك كثيراً قائلاً:

"كم كان أجدادنا سخفاء وجهلاء.. لقد كانت الحقائق بأيديهم وفي عقولهم، وكانوا غير قادرين على رؤيتها، تمييزها.. لأن الجهل كان يعمي قلوب الجميع تقريبا"

إذن فالحياة جاءت من سيروس بتقدير الدوجون، بعد أن هبطت السفينة "المزعومة"، التي وصفها عالم يدعى روبرت تمبل Robert Temple بأنها نزلت على شكل حلزوني (لولبي= Spiral).. وترمز Spiral إلى النسبة الذهبية، أو حركة

اليقظة، التردد العالي الذي لا يفتر، إنه ببساطة رمز الخلود، حيث لا سِنة ولا نوم.

هبطت السفينة في الجزء الشمالي الغربي من موقع الدوجون الحالي في غرب أفريقيا، كان هناك صوت عالٍ وريح. ورست المركبة على ثلاثة أرجل، متدحرجة بهدوء، حتى توقفت على الأرض بجوار الماء، وفي ذات الوقت ظهر نجم جديد في السماء.

يقول الكاهنان تفسيراً لظهور النجم الجديد:

"من المحتمل أن سفينة أخرى هبطت في مكان آخر على الأرض، في ذات اللحظة"

يصفون ذلك الجسم القادم من الفضاء، والذي هبط منه الكائن رباعي الأقدام.. بأنه مضيء، قوي النور، تحيط به هالات حمراء، من حوله في كافة الاتجاهات. هذه الهالات تبدو وكما لو أنها تنطلق من نقطة مركزية، تحافظ على نفس حجمها. هناك رسومات للدوجون، قديمة جداً، توضح شكلاً تقريباً للسفينة الفضائية Pelu Tolo وهي تحوم في السماء في انتظار الهبوط على الأرض.

ذلك الكائن ذو الأقدام الأربعة، باعتقاد الدجون، هو أول مخلوق يطأ سطح الأرض.. إنه النومو كما يطلقون عليه

Nomno، وقد تم صنعه بواسطة (أما) إله السماء وصانع الكون.

سرعان ما تضاعف النومو، ليصبح ستة أزواج من التوائم.. في حين انقسمت الروح في داخل كل نومو إلى (ين) و(يانج) أي الخير والشر.. تمّ ذلك عندما أُدخلت طاقة المجال المغناطيسي للبعد الثالث في جسد النومو من قبل (أما). ولابد لـ ين ويانج أن يتصارعا، لأن من شأن هذا التصارع أن يحافظ على توازن الكون واستمراره.

فكرة الازدواجية كانت ضرورية جداً في تاريخ الإنسانية، حيث لابد لنقيضين حتى يتم الثبات والاستقرار.. ولكن لاحقاً سيفهم الإنسان أن هذا الأمر ليس بهذه الأهمية التي يتوقع. فالإله الخالق لم يكن إزدواجياً قط.

كان النومو هو أبو الإنسانية التي قطنت الأرض، ونشرت الحياة.. وهو آدم عند الديانات التي انتشرت في الشرق الأوسط.. الإسلام، المسيحية، اليهودية.. الخ.. وعند الدوجون كان النومو هو أبو المعرفة التي كسبها الإنسان ليبدأ مشوار الحياة على الكوكب الجديد. لكن ثمة لبس في وصف النومو، حيث أن الاعتقاد السائد بأن جسده الأعلى جسد إنسان، وجسده الأسفل جسد ثعبان، أما روبرت تمبل فقد وصف النومو بأنه كائن ثنائي الطبيعة، أيضا برمائي، تم إرساله إلى الأرض من نجم سيروس، من أجل منفعة الإنسان، وهو

يشبه حورية البحر أو حوري البحر. وهذا يعني أن الإنسان موجود قبل أن يهبط النومو.

هناك إذن روايتان، إحداهما تفيد بأن النومو هو الإنسان نفسه، والثانية تفيد بأن النومو خلق من قبل الإله (أما) وأرسله من سيروس إلى الأرض خدمة للإنسان. أي أنه رسول جميل إلى الإنسانية، يعلمهم كيف يهتدون إلى السراط المستقيم.

استخدم روبرت تمبل كلمة amphibious لدلالة ثنائية (برمائية)، وهي كلمة تشير إلى تداخل اللاشعور مع منابع الابتكار.. لقد كان الإنسان دائماً يبحث عن ربط الإبداع، الابتكار، الخلق باللاشعور.. لكن كل ذلك سيتم دحضه لاحقاً، لأن كل شيء منظم ومرتب وينم عن رغبة أكيدة.

سُمي النومو برجال الماء، أو أسياد الماء، أو "المديرون"، أو معلمو المعلم، أما الكلمة في حد ذاتها فتعني No more No longer، وهو أمر يدعو للعجب كما يذكر روبرت.

***

الأربعاء 23 مايو 9500 ميلادية

هو يوم مولده إذن.. بستار جونسار.. مولده ليربط بين ذلك الاعتقاد القديم عند الدوجون، والحقيقة الكونية

الغائبة طوال قرون ما قبل بزوغه من ذلك التلاقح الفريد. وعندما ولد لم يكن أحد يتذكر الدوجون الذين راحوا ضمن ضحايا الحروب والمجاعات في أفريقيا. لقد ذهبوا وتركوا معهم معرفة كبيرة وعميقة، ظلّ الكثيرون، حتى العارفين ينظرون إليها على أنها مجرد أساطير.. أساطير لا غير، ساعة يفسر الإنسان كل شيء يعجز عن تفسيره بالأسطورة، تلك المفردة التي كانت قادرة على استيعاب كافة العجز البشري. لكن على أية حال كانت ثمة إشارات لم ترشد إلا قلة غير ذات دور كبير، لا تملك قرار السيطرة على العالم، ميزان القوى.

يذكر أهل الدوجون، للعالمين الفرنسيين، في الثلاثينات من القرن العشرين، أن لنجم سيروس توأم غير مرئي، لا يمكن رصده بالعين المجردة، وهو اعتقاد قديم عند الدوجونيين. وذكروا أن هذا التوأم يتحرك لمدة خمسين سنة في شكل بيضاوي حول سيروس الأب، ليكمل دورته، وذلك لصغره وخفة وزنه لدرجة لا تصدق..

قال الكاهن Innekouzou: "هو متأرجح، كثير الحركة حول محوره".

سمع Marcel إفادة الكاهن العجوز، وتعامل معها على أنها جزء من أساطير الدوجون. لقد كان الغرب ينظر إلى أفريقيا على أنها مهد الإنسان، فأقدم الهياكل العظيمة البشرية وجدت هناك، لكنهم في الوقت ذاته كانوا ينظرون إلى

تلك القارة على أنها مهد الأساطير.. لا مجال فيها للحقائق، هم شعوب بارعة في الخيال استطاعت أن تخترع آلهة لتعبدها وطورت أنظمة ممتعة للعيش بخبراتها الطويلة، بعد أن وهبتها "الطبيعة" هبة أن تكون الأقدم بين شعوب العالم.

نشر الباحثان الفرنسيان هذه المعلومات في مجلة شبه غامضة تختص بعلم الأنثروبولوجيا، ولأنهما لم يقيّما المعلومات التي طرحها الكاهنان جيداً، من حيث دقتها فلكياً، فقد تعاملا مع موضوع توأم سيروس في إطار فكرة الأسطورة والخيال الأفريقي الباذخ. وما لم يكن يدركانه، أنه منذ عام 1844م كان علماء الفلك يشكون في وجود توأم لنجم سيروس. وقد كشفت الحقيقة لاحقاً في سنة 1862م بواسطة (إلفن كلارك) Alvan clark عندما اكتشف النجم التوأم. وفي سنة 1920م تم التأكد بأن سيروس الثاني B نجم قزم، أبيض اللون، بحيث لا تراه العين المجردة، وتعمل جاذبية سيروس A على جعل سيروس B يتأرجح مثل بندول في حركته.

الدجون يسمون سيروسB بـ "بوتولو" PoTolo وتعني (النجم – تولو).. ومفردة (تولو) تعني البذرة الصغيرة أو اللؤلؤة الصغيرة.. إنها ببساطة البذرة أو المني الذي يرمز إلى الخلق. وفي هذه الحالة فإن البذرة تشير إلى خلق الإنسان في أغلب الأحيان. و(بوتولو) تعني كذلك، كوكب الخالقين.. وقالوا إن الـ (تولو) هو أصغر جزء شيء يمكن تخليه.

هم تارة يقولون عن سيروس الأب أنه كوكب الخالدين، وتارة عن سيروس الابن B، لقد كان لديهم ثمة لبس في الأمر.. لكن مهما يكن فقد كانوا قريبين جداً من الحقيقة.

دعونا لا نستعجل..

يزعم الدجون، بحسب ما يرى العالمان الفرنسيان بأن هناك نجم ثالث، هو "إيمي" Emme يظهر في نظام سيروس الأب A، ويدور حوله. وإلى أن كتب الفرنسيان بحثهما ونشراه، وإلى ما بعد أكثر من قرن من نشر البحث لم يثبت علم الفلك وجود هذا النجم الثالث، والذي تم اكتشافه لاحقاً. وسمي سيروسC. ويلقب الدون سيروس الثالث بـ ""مهد الأمومة" Sun of woman ويقولون إنه مأوى أرواح النساء، ويعتقدون أنه يرسل شعاعين أنثويين للأرض!..

ولم يعد غريباً بعد أن تكشفت الحجب، أن قدماء المصريين صمموا بعض معابدهم بحيث يصل ضوء سيروس الأب، الأحمر، مباشرة إلى الممر الرئيسي الذي يؤدي إلى المذبح أو القداس كما في معبد أزيس Isis، وبمعنى فصيح فإن ذات الشيء عند الإغريق في معابدهم كما في معبد Parthenon ولكن مع نجم آخر هو Pleiades.

الدوجون التقليديون أيضا يقولون أنهم ومنذ آلاف السنين يدركون جيداً أن الأرض تدور حول الشمس، وأن كوكب المشتري لديه أقمار وأن زحل لديه حلقات (إله الزرع

عند الرومان). وقد كان لديهم نظام تقويم معقد، لا يعتمد على الشمس، أو القمر، بل على دوران سيروس B تأرجحه حول سيروس A في دورة تبلغ خمسين سنة، يعتمدون عليها في تنظيم الزراعة.

أما الأمر الأكثر غرابة، فإن الدوجون وصفوا بدقة النظام الدقيق للـ DNA الذي أُوجد بواسطة النجمين سيروس الأول والثاني أثناء تأرجحهما حول بعضهما. لأنهم كانوا يعتقدون أن سيروس يمثل عنق الكون، مركزه، ومنه صنعت كل الأرواح بواسطة الحركة الحلزونية.

ومن الأمور المدهشة أن الدوجون حسبوا التقويم بناء على سيروس وكان دقيقاً نوعاً ما، كذلك قدماء المصريين حسبوا التقويم السنوي بناء على سيروس وكانت النتيجة متطابقة. حدث ذلك قبل أن يثبت العلم أن الأرض تكمل دورتها حول الشمس في 365 يوماً، وقبل أن يعرف الناس أن الأرض تدور وليست مسطحة. فالسنة القبطية عند المصريين هي سنة نجمية، وليست شمسية، لكنها تعطي نفس النتائج الشمسية التي تم التوصل لها لاحقاً. وتحديداً هي مرتبطة بدورة النجم اليماني سيروس، حيث كان المصريون يراقبون ظهوره الاحتراقي قبل شروق الشمس قبالة أنف أبو الهول، التي كانت تحدد موقع ظهور هذا النجم في يوم الإله العظيم عندهم؛ وهو يوم وصول ماء الفيضان إلى "منف" أو "ممفيس" قرب الجيزة. وحسبوا طول السنة (حسب دورة

النجم) 365 يوماً، ولكنهم لاحظوا أن الأعياد الثابتة الهامة عندهم لا تأتي في موقعها الفلكي إلا مرة كل1460سنة، فقسموا طول السنة 365 على 1460 فوجدوا أن الحاصل هو ¼ يوم فأضافوا هذا الربع إلى طول السنة ليصبح 365 يوماً وربع اليوم، وحدث هذا التعديل عندما اجتمع الكهنة المصريين (قبل الميلاد بنحو ثلاثة قرون) في كانوبس Canopus (أبوقير حالياً بجوار الإسكندرية)، واكتشفوا هذا الفرق وقرروا بناء عليه إجراء هذا التعديل، في المرسوم الشهير الذي أصدره بطليموس الثالث وسمي مرسوم كانوبس.

خاتمة الناقد

ما بعد الحكايات

نهاية الحكاية!

يكتبها: تشيخوف الآخر

قيل في فلسفة المعنى إن العالم لم يعد على شكل قصة، أو حكاية. وهذا يشير ببساطة إلى أن تتبع الوجود وإدراك المغزى وصناعة المستقبل لم تعد قائمة على النماذج الكلاسيكية في الرؤية، التي تؤمن بالحبكات والخطوط المستقيمة والبدايات والنهايات. تلك التي ترى الحياة بين التراجيديا والكوميديا، فإما أن تبكي أو تضحك. لكن "حقيقة" عالمنا الجديد ليست كذلك كما يبدو، إنها ذلك النموذج الذي يفارق شكل الحكايات والنمط ويرغب في بناء وجود غير متوقع، وغير متوارث، بناء عالم جديد يستفيد من كل فرص الأمس لا يهملها لكنه في الوقت نفسه يُقلبّها ويعيد أخذ النقاط الحية منها ليربطها بالراهن ليكون ممكنا القفز إلى صور المستقبل وأشكاله.

الحكاية تعني أن هناك حقيقة مستترة وتهدف إلى تشكيل صور منمذجة عن العالم بأن وراء كل قصة حكمة أو قيمة يشار إليها، فالطفل الذي يولد اليوم لابد أن يصبح شيئا في الغد، والرجل الذي يدخل مدينة لابد أنه سوف يتوه فيها، كما وفق قاعدة الكاتب الروسي تشيخوف فإنه "إذا ظهر

مسمار في بداية القصة فيجب على البطل أن يعلق عليه حبلاً ويشنق نفسه به في نهايتها!".

لكن هذه التصور أو هذه الأشكال في رؤية العالم، لم تعد تصوغ عالم اليوم بالمعنى المباشر، قد يكون للمسمار علاقة بالنهاية الافتراضية. لكنها لا تتخذ المباشرة أو أن المسمار سوف يؤدي الدور ذاته المعطى في خصائص المسمار. وهذا مجال لإعادة تأويل كيمياء الأشياء وأدوارها وما يمكن أن تلعبه بشكل عام في الوجود من قيم وتأثيرات.

في فكر الحداثة تم النظر إلى المعنى من قبل كتاب كبار أمثال كافكا وتشيخوف وكونراد وغيرهم، على أن العالم منمذج ويقوم على الترتيب والنظام بل أنه نمطي جدا، لذلك فأن النصوص تقوم على بعثرة الوقائع بهدف لململتها من جديد، وكما يرى الناقد والمفكر البريطاني تيري إيغلتون فإن هذا الأدب كان يحاول إعطاء معنى للعالم من خلال البحث عن المركزية أو الفجوات الخفية لبؤرة المعنى، وحتى أعمال كافكا التي تبدو عبثية فإنها هي الأخرى تفكر من داخل النظام، فأن يتحول إنسان لحشرة كما في قصة "المسخ" فالافتراض الأساسي أن المعنى قائم في الإنسان لا في كائن آخر. بخلاف ما يمكن أن نجده في أعمال متقدمة كما في أفلام الخيال العلمي التي تقوم فيها كائنات غير مؤثرة وبدائية بصناعة العالم وإعادة تشكيله بروح مغايرة وغير مألوفة.

لقد قام الأدب الحداثي الغربي على الاشتياق بحالة من الإحساس بكسوف المعنى، وفي المقابل الافتراض بأنه قائم ويمكن القبض عليه وتطويعه في أشكال محددة عبر الحكايات أو الروايات، فالبحث عن قيم العدالة والحرية والانتصار للذات وتعزيز القيم الأخلاقية والمفاهيم كلها تشير إلى حالة حداثوية في النصوص، وتعني أن الإنسان هو بؤرة العالم، والتي يجب أن تنسج القيم حولها وأن صيرورة الكون كلها تعمل لحسابه.

وبتلخيص بسيط ففي الفكر الحداثي فإن رغبة إنتاج المعنى او استعادته هي الأساس، ما يعني أن ثمة نظام وقيمة وألفة ومركز، أما في الفكر ما بعد الحديث فالحكاية تدور حول رغبة إنتاج اللامعنى وتعظيم الفرص باتجاه ذلك، وتشيتت المركزيات والسرديات الكبيرة بل بعثرتها إلى اللاشيء. لأن العالم لم يعد على شكل قصة.

لكن حتى هذه الفكرة هي اليوم محل جدل وارتباك وإعادة بلورة، نعم لم يعد العالم على شكل قصة، لكن ذلك يتطلب أن يفكر في الأمر برمته ليس على صعيد التضادية فيما كان سابقا، فإذا كان السابق هو الحكاية الروتينية، أن قيم العالم تقوم على النظام والتتابعية والهيراركية واستخلاص العظات والعبر، فإن ما بعد السابق وقبل الراهن، يقود إلى المعنى المضاد في أن ثمة لانظام ولا تتابع ولا هرمية.

إن استخلاص مغزى (ما بعد الحكاية) أو ما وراءها في سير العالم اليوم، في الأدب والفنون والسياسة والعلوم الاجتماعية والحياة، بشكل عام في الأنساق المختلفة، يقود إلى التفكير بالحبكات التأويلية التي تقود إلى الأسئلة المستمرة بدلا من الإجابات المقنعة وإذا كان ثمة إجابة فهي حتما تقود لسؤال. ربما كان ذلك مدركا من ناحية أولية. بيد أن الأعمق في ذلك يتمثل في تمثلات المعنى المفترض، لأن حقيقة الكائن لا تنفك تبحث عن ذلك المعنى، سواء كان الزمن حداثيا أم سواه. وهو أمر افتراضي في مقامه النهائي، يعني المتعة واللذة ومنح ابتداعية للحياة تجعلها ذات كينونة تشعر الكائن البشري بأنه موجود وآمن على وجوده.

تمثلات المعنى - هي - ببساطة يمكن أن نفسرها بأنها المحسوسات التي تنطلق من الأفكار، لكنها ليست ذات قدرة على الصمود أمام التغيير المستمر في عالم سريع الأثر والتأثر، عالم شبكي ومعقد يفتقد للمراكز التقليدية ونقاط القوة القديمة. حتى قيل إنه ما من شيء يمكن أن نعده حدثا، كما لم تعد ثمة حكاية. وقيل إن العيش يعني باستمرار التملص والتأجيل. وهذا لا يعني التسويف إذ يجب أن تؤخذ هذه المعاني بحذر شديد، لأن أخذها الحرفي والمباشر قد يجعلها تقود لغير النتائج المفترضة، أي القيم التي من أجلها سيقت أو تبلورت هذه النظريات الكلامية.

يتراوح فكر العالم المعاصر، أي العالم الجديد، في واقعه الأبدي بين حقيقتين افتراضيتين هما الحكاية وما وراءها، المعنى وما وراءه، التأويل وما وراءه، أي الشيء وما يتخفى في الظل. قديما كان السؤال دائما حول المعنى؟ لكنه اليوم لن يكون كذلك لأن المعنى استنفد غرضه تماما، كما أن الحكاية ماتت ولم تعد قادرة على تفسير مغزى لوجود الإنسان في عالم متشابك. وبالنسبة للتأويل هو الآخر فقد الظرفيات والسياقات التي تجعله يقدر على التشبيك الملموس والمقنع للمعاني والضمائر المستترة، وهذا يتعلق كذلك بالتباس التاريخ وما يتبع ذلك من أن النصوص التراثية مثلا لم تعد تشير إلى المعاني ذاتها في سياق تاريخها، لأن ذلك التاريخ غامض وغائب. وهذا المنهج يقود إلى أن التأويل الجديد يرفض أفكارا مثل علوم ربط الوقائع بالظرف التاريخي. لأن السؤال الذي يتدثر وراء ذلك، هل من قيمة لذلك الربط. إن القيمة تنوجد من خلال الآن ومن معطى يفارق الحكاية، لأن هوية ذلك الربط حكائية بحتة، في حين أن التركيب التشابكي لعالم اليوم ينتصر لنفي السرديات والتتابعيات وينسج شيئا غامضا ربما لم يتبلور شكله النهائي بعد.

-انتهى وانتهت الهمابيل-

كتبه الطبيب تشيخوف

نبذة عن المؤلف:

عماد البليك: كاتب من مواليد السودان 1972 درس هندسة العمارة واشتق طريقه في الصحافة والأدب، صدرت له ست روايات أشهرها: شاورما (منشورات مومنت، 2014)، و(دماء في الخرطوم، الفارابي، 2008)، وله كتب أخرى في النقد الأدبي والفكر الإنساني عموما، كتابه "الرواية العربية.. رحلة البحث عن معنى" الصادر عن وزارة الثقافة، قطر يدرس بجامعة الوادي بالجزائر لطلبة الماجستير. يعمل حاليا في مجال الصحافة بسلطنة عمان ويكتب بشكل راتب في عدد من الصحف والمواقع العربية الإلكترونية.

المحتويات

